هدى بركات

مكتبة

هند
أو
أجمل امرأة في العالم

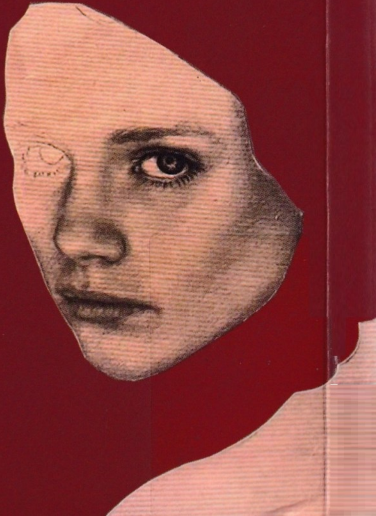

رواية

دار الآداب

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

هند أو أجمل امرأة في العالم

هند أو أجمل امرأة في العالم

هدى بركات / روائيَّة لبنانيَّة

لوحة الغلاف: رضا عبد اللّـه
الطبعة الأولى عام 2024
ISBN 978-9953-89-768-4

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:
www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

هدى بركات

مكتبة
t.me/soramnqraa

هند أو أجمل امرأة في العالم

رواية

دار الآداب بيروت

الموتى هم من يحكمون الأحياء، قال أوغست كونت.

للمرَّة الألف تركض هذه المرأة للَّحاق بالباص. للمرَّة الألف. وهي تعرف أنَّها لن تلحق إلَّا بدوالي ساقَيْها. غريبٌ أمر هذه المرأة، قال رضا.

لم أعُد إلى هذه البلاد حبًّا أو اشتياقًا.

بل بسبب أنَّ أرض اللَّـه الواسعة لفظتْني. وجدتُ نفسي على الرمل، عند حافَّة الموج كالحيتان النافقة. كانت زعانف الحيتان مرتفعةً عن الماء قليلًا، وأنا بعد أن صفنتُ في هذا المنظر وجدتُ أنَّ خياشيمي تنتفض شيئًا فشيئًا، ثم صار يهزُّها الهواء اللطيف. بصقتُ ما في حلقي، ثم قمتُ ومشيت.

يعني. تقريبًا. رمل الشاطئ في صورة الحيتان، أو ضفَّة هذا النهر. لا فرق كبيرًا. لا مياه في الصورة ولا في مجرى هذا النهر.

هذه المنطقة اسمها «النهر». ربَّما كان هناك نهرٌ حقيقيٌّ في زمنٍ ما. هنا أيضًا صفصافةٌ غريبة. جذعٌ هزيلٌ وغصنٌ وحيدٌ ما زال أخضر وارفًا. أجلس تحته، وأستعجب من أين تأتي جذور هذه الصفصافة بالرطوبة.

هنا، أقلَّه، لا تلاحقني حجارة الأولاد، ولا نباح الكلاب الشاردة.

وهنا بيت أمِّي يأويني.

الغربة ليست بالأمر السهل، ولو أنَّ العودة إلى البلاد كانت، دوريًّا وبين وقتٍ وآخر، تتنطَّط أمامي على طريق الحياة كالكرة، أقذفها بعيدًا بكلِّ أريحيَّة.

عرفتُ بموت أمِّي بعد شهور. لم يصلني الخبر حينها. لذا لم أكن متأكِّدةً من خلوِّ بيتها إلَّا بعد أن طرقتُ الباب بقبضة يدي بقوَّة، إذ لم يكن هناك جرس. ولمَّا لم أسمع صوتًا أو ضجَّة، هززتُ درفة الباب فاندفعت من تلقائها.

ليس هناك مجرى لهذا النهر. إنَّها دربٌ باطونيَّةٌ في وسطها تقعُّرٌ خفيفٌ طوليٌّ لاحتمال جريان مياهٍ ما. مياهٌ قد تنزل من السماء، أو من ذوبان الثلوج في الأعالي البعيدة التي لا نراها من هنا، لكنَّ الناس تصفها دومًا بالجبال المكلَّلة بالثلج. ولقِلَّة المياه التي بنوا المجرى العريض من أجلها، تروح السيَّارات وتجيء على ضفَّتَيْن مفترضتَيْن كأنَّها تسير على أوتوستراد.

لا أحد يلحق بي إلى هنا. وأستطيع أن أبقى الساعات الطوال، وحتى ينزل الليل. حتى يهبط أيُّ ليل، مهما كان الطقس أو الفصل. فلا هو مكانٌ للتنزُّه مشيًا، ولا للجلوس أو التريُّض. ثم لا شيء يمكن أن يشغل الإنسان في هذا المكان، ولا هو حتى قريبٌ من دكَّانٍ مثلًا، إن احتاج الواحد أن يبتاع قنينة ماءٍ أو كازوز. مثلًا.

أنا فقط. آتي إلى هنا هربًا من مخلوقات الربّ. إذ قبل أن يضرب نخاع رأسي ذلك المرض اللعين ويحوِّلني إلى عاهةٍ متنقِّلة، كنت أجمل تلك المخلوقات، في البلاد وخارجها.

في الوطن والمهجر، كما كانت أمِّي تقول: ليس هناك في الدنيا التي خلقها اللّـه أجمل من بنتي. ليس هناك أحلى من هند.

مِن هنادي؟

ليس هناك أجمل منِّي، كانت أمِّي تقول.

ليس هناك أجمل من بنتي، صارت فيما بعد تقول، فلا تسمِّي ابنتها تلك. لا تكذب أمِّي حين تُغفِل الاسم. لا تكذب لكنَّها تدَّعي. والفرقُ كبيرٌ بين الكذب والادِّعاء.

حيث أجلس أُسمِّي المكان ضفَّة النهر. الأشياء بحاجةٍ للأسماء، حتى تلك التي لا نراها. ولا مياه تجري في المجرى، لكنَّه مجرى، لا بدَّ، ولو أنَّ ما يجري فيه أمام عينَيَّ سوائل سوداء هي على الأرجح مجار. لا بأس، فهي جمعٌ لكلمة مجرى.

وأنا لا يزعجني هذا المنظر. سوى أنَّ على حافَّة تلك السوائل جيفة بقرةٍ منتفخة رافعة قوائمها تحت سماءٍ فاقعة الزرقة، تجعل المنظر على شيءٍ من البذاءة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ كنَّا في الترام، تقول أمِّي.

الترام؟ أيُّ ترام؟

ـ أو في الباص.

الباص؟ أيُّ باص؟

ـ في الترام أو في الباص...

كنت أحملكِ إلى صدري، وألفُّ ذراعي الأخرى بقوَّةٍ حول عامودٍ معدنيٍّ مخافة أن أقع، بخاصَّةٍ عند المنعطفات القويَّة ومنحدرات الطرق، مخافة أن تفلتي من ذراعي.

كنَّا عائدتَيْن من زيارة طبيبك، طبيب الأطفال الشهير، الأشهر في البلد. زيارتك الأولى المخصَّصة للفحوصات العامَّة واللُّقاحات. حين نزعتُ عنك الثياب الجميلة ذُهل الطبيب. ما شاء اللَّـه. ما شاء اللَّـه صار يقول. لم يسبق أن رأت عيناي طفلةً بمثل حلاها. ما شاء اللَّـه. وهو طبيب أطفالٍ كهل، رأى قبلك آلاف الأطفال. لم ترَ عيناي. يبتسم ويشيح بوجهه. وحين حمل إبرة اللُّقاح راح يفكِّر. قال إنَّ لقاح الجدريِّ يترك أثرًا على الجلد. بقعةٌ دائريَّةٌ صغيرةٌ كأثر الحروق. وهذه الطفلة،

الآية في خلق اللّـه، لا أريد أن... يلقي الحقنة جانبًا، يهرش رأسه ويفكِّر. ثم قال سأشكُّ إبرة اللُّقاح في كعب رجلها، حيث ولو تركت أثرًا فلن يراه أحد.

تشير أمِّي إلى دائرة أثر اللُّقاح على ذراعها. ليس في كامل جسمك ما يشبه هذا. فتِّشي، لن تجدي، ولا حتى في كعب رجلك. ربَّما تكونين الطفلة الوحيدة في العالم أجمع التي لا أثر على كامل جلدها لشكَّة إبرة. قرِّبي باطن قدمك من عينَيْك، هل ترين سوى تلك الشامة السوداء في التكوُّر الأبيض الرقيق؟ لا شيء سوى تلك الشامة في نعومة الساتان من طرف الأصابع إلى التفاف الكعب. كعبك الزهريُّ اللون، الذي يُشبه قطعة راحة الحلقوم. لستُ أنا، الطبيب هو من شبَّه كعبَ قدمك براحة الحلقوم المجبولة بماء الورد.

ثم ألبستك ثيابك الجميلة، ولففْتُك جيِّدًا بالأغطية الصوفيَّة البيضاء المهفهفة، إذ كان الفصل شتاءً والدنيا بردٌ ومطرٌ وريح. وفي عربة الترام، الباص، وأنا متشبِّثةٌ بالعامود المعدنيّ، أشفقتْ عليَّ امرأةٌ فتركت لنا مقعدها. جلستُ وأنت في حضني لا تكفِّين عن البكاء. أزحتُ عن وجهك الغطاء الصوفيَّ المصنوع من الفراء، فراء الأرانب التي تشبه الصوف، فرأت المرأة وجهك. يا اللّـه يا اللّـه، يا سبحان اللّـه، صارت المرأة تقول بالصوت العالي. انظروا جمال هذه الطفلة. تعالوا انظروا يا ناس. فتجمَّع خلق اللّـه، أعني الركَّاب حولي، ومنهم من صار يشهق، والمرأة تكرِّر على الجميع أن سمُّوا باسم اللّـه، سمُّوا كي لا تصيبها عين الحسد. يا لطيف ألطف. عينُ الحاسد مؤذيةٌ شريرةٌ ولو عن غير قصد. سمُّوا يا مؤمنين. وبالفعل صارت الناس تبسمل وتقول ما شاء اللّـه.

هكذا. حتى نزلنا أنا وأنت من الـ...

كان المطر قد توقَّف وهدأت الريح. وفي الشارع المؤدِّي إلى البيت رأيتُ المرأة نفسها، تلك التي أعطتنا مقعدها. راحت تناديني، ثم راحت تستحلفني أن أتوقَّف، أن أنتظر قليلًا، حتى لحق بها رجلٌ كانت تنتظره وتقول إنَّه زوجها. طلبت منِّي وهي تستحلفني مجدَّدًا أن أكشف عن وجهك قليلًا. ولمَّا رأت أنِّي توجَّستُ منها، قالت إنَّ زوجها يُقسِم بأغلظ الأيمان إنَّه رأى في شارعنا هذا أجمل طفلٍ في العالم، وأنا أقول له إنِّي التقيتُ اليوم أجمل منه، وهو لا يريد أن يصدِّقني... اقترب الرجل من وجهك، وقال: ياه. ياه. يا إلهي!! إنَّه الطفل نفسه! والمرأة تصيح يا سبحان اللَّـه. إنَّها الطفلة نفسها! باسم اللَّـه. يا سبحان اللَّـه. ونحن نسكن في الشارع نفسه؟!. يا سبحان الخالق.

كم مرَّةً روت أمِّي هذه الحكاية؟ كم مرَّةً روتْها لي وللناس؟ بحذافيرها، من دون زيادةٍ أو نقصان. كنت كأنِّي أسمعها على شريط تسجيلٍ آليّ. ينطلق، يتمهَّل، ويتوقَّف من نفسه.

وأنا، لا شامة سوداء في باطن قدمي، لا اليمنى ولا اليسرى.

وليس في مدينتنا أو في كامل البلاد تراماتٌ أو باصات.

بعد أن ماتت أمِّي وعدتُ أنا إلى هنا، صرتُ أعرفها أكثر، وأتذكَّرها أكثر.

لكن ما كانت ترويه ما زال يشبه رغوة الصابون الكثيفة، تلفُّ رأسي أحيانًا وتغطِّيه بالكامل فأغرق. يتوقَّف نَفَسي، وأروح أتخبَّط لإخراج أنفي أو فمي إلى الهواء، حتى يكاد يُغمى عليَّ وأتقيَّأ.

وأحيانًا أخرى أنزلقُ على صابون الرغوة تلك بسهولة. أتذكَّر الحكاية، وأتذكَّر وجه أمِّي، وفمها، ولون أحمر الشفاه وهي تروي بسعادةٍ وعذوبة، أو بشيءٍ من الحيرة أو الامتعاض. سهولةٌ تشبه أن تكبس زرَّ الإضاءة في عتمةٍ كالحة، فيكون النور في اللحظة.

وأفكِّر بأنَّ كلَّ ما أتذكَّره عن أمِّي صعب، أكان في حركة جريان الصور، أو في فوضاها أو تمنُّعها. ذكرياتي عنها، أو تذكُّري إيَّاها، يبقى صعبًا، لأنَّه مبعثرٌ جدًّا ولا يدلُّني إلى شيء. لكنَّ هذا الخليط كلَّه الذي يكرُّ عليَّ بعد عودتي يجعلها حاضرةً باستمرار. تقريبًا باستمرار. إذ في البلاد الأخرى، حيث أقمت فترةً لا بأس بها، كنت نسيتُ أمِّي تمامًا. تقريبًا نسيتُها تمامًا. لا أدري لماذا، ولا أمل أن يُعينني ذكائي المحدود في البحث عن السبب. ثم ما الفائدة من معرفةٍ كهذه؟ لا أعتقد أنَّ ذلك ينفعني في شيء.

قالت أمِّي إنَّه كان صيفًا قائظًا جدًّا، يوم دخلت بيتنا امرأةٌ غريبة.

وجدتُها فجأةً في صدر الدار، قالت. واقفةً هكذا. شعثاء الشعر، مفنجرةً عينَيْن كبيرتَيْن تكادان تخرجان من محجرَيْهما. بدت المرأة ضائعةً لا تعرف أين هي، كأنَّها ضلَّت طريقها ودخلت بيتنا عن طريق الخطأ.

أنتِ كنت في السرير الذي جعلناه في صدر الدار كي نراقبك باستمرار، تروي أمِّي. وأنا خفتُ منها، وصرتُ أقول من أنتِ ماذا تريدين. ثم راحت المرأة تضمُّ أصابع يدها تريدني أن أنتظر. حتى بدأتْ تتكلَّم، تقول لا تخافي، لا تخافي. لكنَّ الرعب دبَّ في قلبي حين صار جسم هذه المرأة يرتعد وينتفض بكامله، وهي تعضُّ بقوَّةٍ على سبَّابتها وترسل همهمةً غريبة. مددتُ يدي صوبها بكأس ماءٍ من بُعد، تناولتُه سريعًا عن المنضدة قرب سريرك، لكنَّها رفعت يدها لا تريده. قلتُ إنَّها لا بدَّ نوبة صرع. المرأة مريضةٌ بداء النقطة، وشرب الماء يخنقها ويقضي عليها. إنَّها نوبةُ صرع. رأيت قبلًا ما تفعله نوبةُ الصرع، لكنَّ المرأة لم تقع أرضًا. وبعد دقائق ذهبتْ إلى أقرب مقعدٍ وجلست عليه.

وأنا أرى لونًا ورديًّا فاقعًا قريبًا من عينَيّ.

وأرى أنَّني ممدَّدة، كأنِّي نائمة.

لا أترك مكاني المحبَّب على ضفَّة النهر، الذي ليس نهرًا، قبل أن أسمع الليل.

أسمع الليل كأنَّ الشمس التي تطجُّ في البحر كطابةٍ منفوخةٍ ترسل في المدينة جلبةً وأصواتًا لا يعرفها النهار. وهي تطجُّ طجًّا إذ إنَّ المغيب لا يستغرق أكثر من دقائق قليلة، تليه عتمةٌ سميكةٌ تسدُّ السماء. حتى إنَّ النجوم لا تظهر إلَّا بعد وقت، إن هي ظهرت. ثم إنَّ تلوُّث الهواء في طبقاتٍ متراكمةٍ يجعل غطاء السماء لزجًا غليظًا، لا تخترقه نجومٌ أو قمر، ولو كان بدرًا. إلَّا نادرًا.

أبقى في مكاني أستمع إلى الليل، في العتمة، حتى تخفَّ الأصوات وتتناثر. فضجيجُ محرِّكات السيَّارات المتزاحمة، وأكثرها منهَكٌ وقديم، يتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى زمامير متباعدةٍ وصرير كوابح. تزيد السيَّارات والفانات من سرعتها على الطرقات العريضة المحاذية للبحر والقريبة من هنا. والصرير المعدنيُّ القويُّ الذي تُصدِره الكوابح يُشِير إلى تقدُّم ساعات الليل، ورغبة الناس بالعودة سريعًا إلى بيوتهم. لكنِّي أستطيع أن أسمع من هنا صريرًا يتبعه سريعًا صوتُ ارتطام، فالسائق المُسرِع سيُدرِك بعد فوات الأوان أنَّ الطريق انقطعت أو انكسرت فجأة،

في منعطفٍ لا تستطيع أضواؤه الأماميَّة حياله شيئًا، من دون أنوارٍ عموميَّةٍ أو إشارة سيْرٍ أو لافتة مرور. وغالبًا أستطيع من حيث أنا أن أخمِّن نوعيَّة ارتطام معدن السيَّارة، بالباطون أو بركامٍ من حجارةٍ أو كراتين ومخلَّفات بناء، أو إن هي انزلقت عجلاتُها من مكابحها على رملٍ من فضلات الورش. وتتغيَّر أصوات ذلك الليل بحسب الفصول، إذ أتبيَّن بعد المطر دوران العجلات في الوحول، وفحيح الموتورات التي تحرق زيوتها في فراغ، قبل أن تختنق وتسكت تمامًا.

أقول في نفسي إنَّ المسكين كان يريد الوصول بسرعة.

أحيانًا تمنعني زخَّات المطر القويَّة من فوائد الإنصات، أقلَّه لتقدير الوقت وتقدُّم الساعة. فأنا لا أحمل في معصمي ساعةً مضيئةً أستطيع قراءة عقاربها في العتمة. حين تمطر بغزارةٍ أضع على رأسي وكتفَيّ المعطف البلاستيكيَّ الرقيق، الذي أستطيع طيَّه ودسَّه في جيبي. ففي هذه المدينة قد تهطل أمطارٌ بقوَّة الطوفان، لكنَّها لا تدوم طويلًا. ينسكب الماء من حلق السماء كالحازوقة، قويًّا إنَّما متقطِّعًا.

في طريق العودة إلى البيت أخبط خبطًا كالعميان، لا أرى على بُعد مترَيْن اثنَيْن من قدمَي. ذلك أنِّي أتجنَّب المشي في الضوء حتى لا يراني أحد. حتى أضواء السيَّارات أبتعد عن طرقاتها المعبَّدة. أتحاشاها تمامًا إلَّا حين أضطرُّ لقطعها بالعرض متَّجهةً إلى الفلوات والبوَّارات، ودوائر الأراضي الداشرة أو مربَّعات البنايات غير مكتملة البناء، والتي لم يَعُد ينام فيها حرَّاس. أتبع خطَّ الخلوات الصغيرة التي بتُّ أعرفها، بين الأبنية المتروكة والكراجات، وما يبدو سكك حديدٍ قديمةً وبقايا محطَّاتٍ كانت أُقيمت في زمنٍ بعيدٍ بموازاة شاطئ البحر.

أمشي بين ركام الحجارة والأعشاب البرِّيَّة بصعوبة، لكن بطمأنينة. وعادةً ما تكون طريقي سالكةً وآمنة. أحيانًا يقطعها عليَّ بعض السكارى والحشَّاشين، لكنِّي أعرف كيف أتفاداهم لأنِّي أسمع جلبتهم من بعيد. هم مرَّةً رأوني فراحوا يمازحونني من بعيد. ثم لحق بي واحدٌ منهم يعزم عليَّ وفي يده قنينةٌ يلوِّح بها. وحين اقترب منِّي راح يُهرول مبتعدًا، صارخًا بأقذع الشتائم واللعنات. فقط مرَّةً واحدة. كان استبدَّ بي الجوع فأسرعتُ عائدةً من دون أن أدرس خطواتي. ومن يومها أحمل زوَّادتي معي، مربوطةً إلى خصري، وأيضًا قنينة ماءٍ كبيرةً تكفي للشرب والاغتسال السريع. وكذلك لفافةً من ورق التواليت. إلى هذا أضفتُ في ما بعد كرسيًّا صغيرًا ذا مقعدٍ من قماشٍ يمكن طيُّه، أُعلِّقه بحبلٍ رفيعٍ بكتفي. فالكرسيُّ مفيد، يرفعني عن الرطوبة، إذ رغمَ كِبَر بنيتي وقوَّتي البدنيَّة البائنة، تضرُّ الرطوبة بعظامي المهدَّدة لهشاشتها بالتفتُّت. أنا قويَّةٌ لكنِّي لا أركن إلى قوَّتي ولا أستعملها دائمًا بكامل طاقتها لأنِّي أخاف من الوقوع أرضًا، ومن الاصطدام العنيف بالأشياء القاسية، لأنَّ حادثًا كهذا يهشِّم عظامي. فمن عجائب مرضي أنِّي قويَّة العضل، لكنِّي هشَّة العظام والمفاصل.

الأيَّام القليلة التي لا أخرج فيها من البيت تكون أيَّام العصف والريح والمطر الشديد. في ما عدا ذلك أكون تحت الصفصافة، التي هي نصف صفصافةٍ أو أقلّ. أتأمَّلها وأقول إنَّها ستقع يومًا أو تتيبَّس بالكامل. جذعُها مشقوقٌ حتى أسفله، ربَّما بفعل صاعقةٍ نزلت فيها، أو بفعل صاروخٍ ما. على أيِّ حالٍ لا أثر للجزء الميت. الجزء الذي ما زال حيًّا آيلٌ لا بدَّ إلى ذبولٍ نهائيٍّ وتفتُّت. فهي صفصافة ماء، يُقال لها الصفصافة الباكية، أو الحزينة، لطأطأة أغصانها والتوائها باتِّجاه الماء.

أين تجد الماء هنا؟ لعلَّها بقايا رطوبةٍ قديمةٍ يُحييها المطر بين وقتٍ وآخر، وينعشها. هكذا.

لا أعرف الكثير عن الأشجار، أنواعها أو ميزاتها، ولا عن النبات عمومًا. لكنَّ الخَضار، أيَّ أخضرٍ ينبتُ في التراب ويرتفع عنه، يحمل أسرارًا، من جذوره إلى سيقانه فأغصانه حتى الأوراق.

كانت أمِّي تقول إنَّ من النبات ما هو خبيثٌ ولئيم، مثل تلك التي تقضي الساعات في معالجتها في الأحواض أو في الأصص والأوعية، ولا ينفع فيها علاج. تجرُّها من الفيء إلى الشمس أو العكس، ومن الداخل إلى الخارج أو العكس. لا يفيد فيها ضوءٌ أو فيء، حرارةٌ أو برودة. تسقيها بكثرةٍ أو تمنع عنها الماء. تضع على التربة تفل القهوة، أو قشور البيض المطحونة، ثم تنكش وجه التربة بالشوكة لترفع السماد المتعفِّن إلى كيس النايلون المعلَّق دائمًا بحافة نافذة الشرفة، والمخصَّص لزبالة النباتات ولغضب أمِّي. فأمِّي تغضب من تلك التي تعلُّ وتبقى مريضةً بين الموت والحياة، وهي تتنفَّس الصعداء حين تُعلن النبتة موتها الصريح، فتقلعها بسرعةٍ لتعدَّ مكانها لنبتةٍ أخرى طيِّبةٍ غير لئيمة. أعتقد أنَّ أمِّي مثلي، لا تفهم في الزرع أو خاصيَّات النبات، لكنَّها لا تقرُّ بذلك، إذ يحصل أحيانًا أن تلمَّ عودًا عن الطريق تشكُّه في التراب، فيمدُّ شروشه الرفيعة ويُورق أو حتى يُزهِر لوحده. آنذاك تروح أمِّي تروي عن عجائب حصلت معها تثبت كم أنَّ يدها خضراء.

لو كانت أمِّي معي هنا لوصفت هذه الصفصافة بالخبيثة. بالخبث لا باللؤم. فهي بأغصانها المتهدِّلة الليِّنة، المُسبسلة كشعر العذارى، ليست على ما تبدو عليه من حنيَّةٍ ورومنطيقيَّة. فهي، من أجل ما تحتاجه

من رطوبة الأرض، تمدُّ جذورها لتعبث في التربة المضيفة، طاردةً في طريقها كلَّ مخلوقات أرض النبات، ممتدَّةً تحت الجدران التي قد تقوِّضها. فيما جذور الأشجار الطيِّبة تلتفُّ حول ما يعترضها فلا تدمِّر منه شيئًا. الصفصافة تُظهِر ما لا تُضمِر. وهي، اللطيفة الوادعة، قد تدخل في مواسير المجارير وتُفجِّرها بخرائها.

وهذه التي تدَّعي أنَّها تُظلِّلني، لعلَّ غضبًا ربَّانيًّا ضربها وشقَّها إلى نصفَيْن، فأمات نصفًا وترك الآخر أخضر حيًّا ليعتبر من القصاص. هكذا يفعل غضب الربِّ في الشعوب أيضًا.

هذا ما كانت ستقوله أمِّي.

لكنَّ هذه السماء التي فوق رأسي، غالبًا وكثيرًا جدًّا ما أرسلت نارًا وحجارةً ملتهبة، لكنَّها لم تقرنها بالعِبَر. لا أظنُّ أنَّ ناس هذه الأرض ارتكبوا من الأفعال الفاحشة أكثر ممَّا ارتكبه غيرهم. لكنَّ هذه السماء التي فوق رؤوسهم قرَّرت جعلهم عِبرةً لغيرهم، من دون أن تعطيهم مفتاح العِبرة أو شيفرتها. سدوم وعمورا، وجبةٌ تنزلها فيهم دوريًّا، بين عصفٍ وآخر، زمنٍ وآخر، والحكمة منغلقةٌ على البشر. لم ينكح ذكورنا ذكورًا أكثر ممَّا فعل غيرنا. ولا هم عرفوا صالحًا يحذِّر أو يعظ. ثم سدوم أخرى، عمورا أخرى. ومن هرب صار عمود ملح، حتى هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى الوراء. البشر والحجر والشجر. كذلك الانفجار الكبير الذي أتى من البحر وتحدَّثت عنه أساطيل العالم أجمع. وهو ما زال يطلق لغطًا من أنتيناتٍ خفيَّةٍ تصفِّر في رؤوس الناس اللاهين عن استخلاص العِبَر، منشغلين بكنس الزجاج وإضاءة الشموع للبحث تحت الركام عن ألبومات الصور، أو أشياء من هذا القبيل.

سدوم وعمورا. ليستا بعيدتَيْن من هنا. بقربهما قريتان أخريان شبيهتان، تسبحان في نعمة مياه غور الأردن حيث غطس سيِّد الزمان. أدومة وصبييم. لا نعرف عن تناكح الناس فيهما شيئًا، ولا عن غيرها من الموبقات إذ لم تنخسفا في الأرض. لم تُلقِ السماء عليهما نارًا وكبريتًا. على العكس. فإن أنت ذهبت لزيارة أيٍّ من القريتَيْن، ستجد الناس فيهما تلعب التنس على الغازون الرطب.

لا يجدر بي أن أفكِّر هكذا، كأنَّ في أفكاري بعض الملامة. لكنَّها ملامة المحبِّين، فكيف يريد لنا الربُّ أن نتَّعظ إن لم نفهم؟ وهو، وقد توقَّف عن أن يكلِّمنا، ما زال يكلِّم غيرنا. الغيرةُ هي علامةُ على الحبّ، لأنَّه يكلِّم غيرنا، وحين يفعل تسمعه كلُّ شعوب الأرض. يكلِّم غيرنا، ويُقال إنَّه أحيانًا يرسل لهم مستنداتٍ وصكوكًا، أو شيئًا من هذا القبيل...

لسنا حقودين. ننسى. يُنسينا جمالُنا. يجرُّنا جمال بلادنا إلى غواية النسيان، وشيطانُه قادرٌ عنيد. نفتح جفنَيْن كساهما رماد الحرائق فنرى مناظر رائعة، سرمديَّةً أبديَّة. وسدرة المنتهى.

هذا ما كانت ستقوله أمِّي. كانت ستقول «سدرة المنتهى» من دون أن تعرف معنى الكلمة. كانت أمِّي ستصف بإلقاءٍ شعريٍّ قرى بقرميدٍ أحمر، وجبالًا تكلِّلها الثلوج الطاهرة، ووديانًا تطلع منها أدخنة البخُّور، ورمالًا ذهبيَّةً على شطآنٍ لازورديَّة، وشمسًا عالية الاحتراف في تصنيع الفصول، بحيث لا يذوب الثلج ولا تتصحَّر الشطآن.

لكنَّ أمِّي لا ترمي كلامها جزافًا، ولو كانت تبالغ بعض الشيء، ككلِّ المحبِّين.

أمِّي تجادل وتحاجج وتسوق البراهين من مختلف المصادر. ولأنَّها تحبُّ المعاني فهي تنسى سامعها تمامًا، خاصَّةً حين تتكلَّم عن حبِّها للبلاد. وأنا أتساءل الآن إن كانت أمِّي أحبَّت أحدًا، شخصًا، رجلًا في حياتها كحبِّها للوطن. فهي كانت تَخلُص إلى أنَّ الأرزة هي سدرة المنتهى، مارَّةً بسِيَر كافَّة الأشجار التي تنافس الأرزة، وبخاصَّةٍ تلك التي توصف بالمقدَّسة. فعن شجرة المعرفة تقول إنَّها لم تبقَ في الجنَّة، إذ اشتاق إليها آدم قبل موته على الأرض، فحمل إليه أحد أبنائه غصنًا منها، سرعان ما نبت ونما في التربة فأصبح شجرةً عظيمة، ثم غابةً عظيمة، احتطب منها الملك سليمان لبناء قصره. ثم صحَّح الكُتَّاب والمؤرِّخون تلك الحكاية، بأن أقرُّوا بأنَّ أرز لبنان هو ما تمَّ حمله لبناء القصر العظيم. أين الخلاف؟ تقول أمِّي، حيث جاء في الكتب أنَّ سدرة المنتهى هي شجرة نبتت في السماء السابعة، أو السادسة، وامتدَّت وعَظُمَت أغصانها وتعاظمت، وأصبحت مثل آذان الفيلة، يسير الراكب في ظلِّها سبعين عامًا ولا يقطع الظلّ. حسنًا، هل هناك في الشرق قاطبةً شلوحٌ بعرض شلوح الأرزة؟ هل هناك شجرةٌ تنمو على علوٍّ يرتفع عن علوِّ غابة أرزنا، وتعيش أزمانًا سرمديَّةً عابقةً برائحة القداسة، لا يقدر على نخرها سوسٌ أو حشرةٌ أرضيَّة؟

لكنَّه نخرها، كنت أودُّ أن أقول لأمِّي. إلَّا أنَّها كانت ستجيبني بأنَّ امتحانًا من الربِّ أرسل إليها الحشرة التي تُسمَّى بالمنشاريَّة. حشرة غريبة أتتْها من خارج الوطن، من خارج تربتها لتأكل نسغها وتشيع فيها يباساً، لكنَّها ستنتصر، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. كلُّ شيءٍ جميلٌ حدَّ الكمال يخضع لامتحان الربّ. فالكمال خطيئةٌ تعلو رؤوس البشر الخطأة كالسَّيف المُسلط.

هذا ما كانت أمّي ستقوله. وأنا لا أثق بما أسترجعه منها. فهي مثلي، ومثل كلِّ الوحيدين المستوحشين الذين لم يذهبوا إلى المدارس لأكثر من فكِّ الحرف. جمَّعوا معرفتهم بما تيسَّر ووقعت عليه أيديهم، فأعادوا تدويره في الفوضى وبحسب الحاجة... مع التعصُّب اللازم لما يحصِّله الجاهل، جزافًا ومن غير جدوى أو فائدةٍ حقيقيَّةٍ له أو لغيره.

تتأبَّط أمِّي أسلحةً كثيرةً ومتنوِّعةً للمحاججة. تفعل ذلك بحماسة المحارب المدفوع بإيمانٍ عميقٍ لا يتزحزح. تترقرق الدموع في عينَيْها من تأثُّرها بأفكارها. وأيضًا حين تُغيِّر تلك الأفكار، تترقرق الدموع في عينَيْها الجميلتَيْن الواسعتَيْن.

فأمِّي جميلةٌ جدًّا.

أمِّي الجميلة جدًّا، هي التي لا تحبُّ من الناس إلَّا المتميِّزين بنسبةٍ عاليةٍ من الجمال تُحدِّدها هي، كانت ترتبك إزاء المديح، كأنَّها لا تصدِّقه. وأمام المرآة كنت أسمعها تتأفَّف من اضطرارها إلى الاعتناء بوجهها وشعرها كواجبٍ تعتبره أقرب إلى التهذيب، وكانت لا تحبُّ الماكياج. كأنَّها كانت تخاف من جمالها، أو كأنَّ جمالها لم يكن يومًا مفيدًا، بل كأنَّه حَمَلَ إلى حياتها المتاعب، أو ما شابه. في حكاياتٍ كانت ترويها عن نساءٍ جميلات، كانت تنتهي إلى القصاص الذي نزل بهنَّ في شكل مصائر كئيبة أو حتى كارثيَّة. تروي عن نهايات نجمات هوليوود، وكيف انتهين إلى الجنون والوحدة، مثل كراوفورد، أو إلى القتل، إلى أن تُقتَل، مثل ماريلين. ماريلين تسمِّيها، كأنَّها تعرفها شخصيًّا.

وربَّما لأنَّ لأمِّي ثأرًا ما، كانت تجهد في إبراز ذكائها. منذ بدأ جدِّي، الذي تعبده أمِّي، بجرِّها إلى البيت إذ رأى أنَّها ستكون امرأةً جميلة. كان يأمرها بالدخول إلى المطبخ حين يأتي زوَّارٌ إلى بيتهم. ثم قرَّر أن يسحبها من المدرسة، وأن يضع كلَّ جهده، وجهدها أيضًا، في تعليم ابنه الوحيد. لم تُكمِل أمِّي تعليمها. وكان عليها، مُذ صارت تُحسِن القراءة والكتابة، أن تساعد أخاها في الفروض والواجبات المدرسيَّة. كلَّما خرجتِ من البيت وقعت مشكلة، كان جدِّي يقول لأمِّي. لا شكَّ في أخلاقكِ، لكنَّ شكلكِ يُعرِّض أخاك للمشاكل والخناقات مع الشباب الزعران. كلُّ الشباب زعران.

عندما كبرا، وبعد موت جدِّي، كانت أمِّي على خلافٍ دائمٍ مع أخيها، الذي تعبُده هو الآخر. ولأنَّها كانت أذكى منه بكثيرٍ كانت قاسيةً ومُخادعة، تُقنعه بأخطاء وخطايا لم يرتكبها، ثم تُعنِّفه بشدَّة. وكلَّما رأت ارتباكه وتخبُّطه كالصوص الضعيف بين يدَيْها ازدادت قسوة. وهو، إذا ما راح يعتذر لها، عن كلِّ ما تتَّهمه به، تروح تسأله عمَّا يعتذر تحديدًا، بالتفصيل، إمعانًا في إذلاله وفي إثبات تفوُّقها عليه. وفي حال صمت تمامًا ولم يَعُد يردُّ عليها بالمرَّة، تروح إلى انتقاد لباسه من القميص إلى الحذاء... وبعد أن يترك خالي بيتنا تبدأ أمِّي بالبكاء ندمًا. يا إلهي كم هو جميلٌ أخي! مثل القمر أخي. أجمل رجلٍ في العالم أخي... وكم هو يشبه أباه. أبي حبيبي.

وأنا، شاهدها الوحيد، تلميذها الوحيد، كان عليَّ أن أكون كاملة الأوصاف. جميلةً مثلها. ذكيَّةً مثلها.

وحيدةً مثلها.

كانت أمِّي تقرأ كثيرًا. تقرأ أيَّ شيء، كلَّ شيء. فإلى جانب الكتب الكبيرة الثلاثة التي تصمدها على المنضدة العالية في صدر الصالون ككؤوس جوائز الرياضيِّين ولاعبي الشطرنج، العهد القديم والعهد الجديد والقرآن، كانت تعود دائمًا إلى البيت بقُصاصات المجلَّات وجرائد قديمة، وأحيانًا بنشراتٍ طبِّيَّةٍ وبياناتٍ حزبيَّة، وتقرأ كلّ شيءٍ بتأنٍّ. حتى شروحات استعمال الأدوات المنزليَّة وروشتات الأدوية. تقرأ وتحتفظ بأوراقها بعد تبويبٍ تعرف هي فقط كيفيَّة استعماله. ولا ترمي منها شيئًا. كأنَّها تستعدُّ لمعركةٍ تُحضِّر لها المستندات اللازمة. ومهما كانت المعركة فأمِّي حاضرةٌ لخوضها، من شهود يهوه إلى محامي البناية إلى مدير المدرسة، إلى أخيها الوحيد.

وكم كان فرح أمِّي كبيرًا حين علمت بوجود شيءٍ جديد، فكرةٍ عظيمةٍ اسمها الفيزياء الكمِّيَّة. كانتيك، كانت تقول بثقةٍ وفرحٍ عظيمَيْن. كانت تستلُّ الكانتيك كسلاحٍ أخيرٍ كلَّما واجهها أحد معارضيها بحقيقةٍ ما، وفي أيِّ مجالٍ كان. كانت تردُّ بأنَّ كلَّ ما يقدِّمه الخصم من براهين وأدلَّةٍ بات قديمًا منتهي الصلاحيَّة، وتُسرِع إلى نقض الأسباب والموجبات والعلل بعد أن اكتشف العلم نفسه مدى قدراته على ضوء فلسفة الكانتيك.

هكذا.

وأنا كنت أتفرَّج على أمِّي بفرحٍ كبير. صغيرةً وجميلةً ومنتصرة، كنت أراها نجمًا مضيئًا في سماء قلبي.

وذات يوم، قرأت أمِّي حكاية المصارع الفرنسيِّ موريس تييه[1]، وأرتني صورةً له قرب ليلى مراد، أو لعلَّها أخت ليلى مراد.

---

(1) Maurice Tillet.

ليس بي حاجةٌ لأتذكَّر خلقة وحكاية موريس تييه، فقد وجدتُ الصفحة إيَّاها مع قصاصاتٍ وصورٍ مكوَّمةٍ كالزبالة في إحدى الزوايا حين عدت إلى بيت أمِّي.

ليس بي حاجة. يكفي أن أنظر في المرآة، التي لا أنظر فيها مطلقًا.

صرت أعرف أمّي أكثر بعد موتها.

صرت أحاول أن أجد عنها، أو عنّي أنا، ما يدلُّني أكثر إليها. فقد غِبتُ عنها زمنًا طويلًا.

أجد في بيتها، في ما بقي من أغراضٍ وأشياء تركها النهّابون بعد المحتلّين، آثارًا قليلةً لمكوثها هنا. مثل تلك القُصاصات والأوراق المكوَّمة كانت في زاوية غرفة النوم، والتي لا تفيد أحدًا. كأنَّهم تكاسلوا عن رميها. قُصاصاتٌ وأوراقٌ تبدو قديمةً من لونها المغبرّ الأصفر، أو من قِدَم تقنيّات التصوير والطباعة. وأخرى أقلّ قِدَمًا بحسب ما يظهر أحيانًا في رأس الصفحات من تاريخ الصدور، إن كانت مزقًا من جرائد أو مجلّات. هناك أيضًا أوراقٌ قليلةٌ مكتوبةٌ بخطّ اليد وسطورها معدودة. منها مثلًا: لا يقتل الإنسان إلّا الحبّ.

أتساءل إن كانت تعنيني أو تعني أبي حين تكتب جملةً كهذه على كامل الصفحة، أو إن هي عنت حبَّ الأرض أو حبَّ الوطن الذي نزلت فيه حروبٌ ومصائبُ كثيرة، أو هو ذلك الحبُّ الذي يؤدّي إلى الموت والاستشهاد، أو القتل. بعض الأوراق المكتوبة بخطّ يدها تتجاوز فيها السطر أو السطرَيْن، لكنّها قليلةٌ جدًّا والخطُّ فيها متعثّرٌ ومبعثر الحروف.

كـ: هذه وصيَّتي، أرجو الانتباه. أرجو تنفيذ إرادتي الأخيرة. أريد هذه الموسيقى في جنازتي. وهذه الورقة مطويَّةٌ داخل صفحةٍ مشقوقةٍ من مجلَّةٍ فنِّيَّةٍ باللغة الفرنسيَّة، عن فرانسوا كوبران[1]، واضع موسيقى «درس الظلمات». وفي المقالة تضع أمِّي خطًّا تحت «قديمة، لكنَّها ما زالت تُرتَّل في الكنائس، في القداديس الجنائزيَّة، أو مرَّتَيْن خلال أسبوع الحِداد، مرَّةً عند الغسق، ومرَّةً عند الغياب، أثناء إطفاء الشموع التي تنير الكنيسة».

ماتت أمِّي وحيدةً ولم يقرأ وصيَّتها أحد. والأرجح أنَّها نستْها بالكامل، وصيَّتها هذه، نظرًا إلى بؤس مكان سكنها الذي قضت فيه أيَّامها الأخيرة... ربَّما شدَّ انتباهها كلمة الظلمات، أو الموسيقى، أو الشموع، فتخيَّلت جُنَّازًا مهيبًا في كنيسةٍ تغرق في الظلام شيئًا فشيئًا، وعند إطفاء كلِّ شمعةٍ من الشموع الكثيرة، وهي تبتعد مودِّعةً العالم في تابوتٍ فخم. فمَسَرحةُ موتها تخلُّصها من رعبها الفظيع من الموت. والموت يستحقُّ المَسرحة أكثر من الحياة التي كانت أمِّي تجهد يوميًّا لمسرحتها.

لا حاجة لسؤال أمِّي، لو كانت هنا، عن الموسيقيِّ أو عن موسيقى كوبران، فهي ستدَّعي معرفتها العميقة وتستعمل أفعال التفضيل. لا أعتقد أنَّها كانت تكذب. كانت ميَّالةً لاختراع حياةٍ تتخيَّلها وتصدِّقها، وتستبدلها بحياةٍ كان كلُّ ما فيها قليلًا. إلى جانب خيباتٍ كثيرةٍ ربَّما بدأت بي، أو انتهت بي، أنا ابنتها الوحيدة.

وتستبدل أمِّي حياتها أحيانًا كثيرةً بالضحك، أو بالسخرية اللاذعة، وهي موهوبةٌ في ذلك. كأن تكتب على هامش صفحةٍ من مجلَّةٍ

---

(1) François Couperin.

فنِّيَّة: هههههه. فيلم خرا على الأكيد. فوق عنوان «فيلم لواحظ، فيلمٌ ساحرٌ عن قصَّةٍ حقيقيَّة. بطولة شادية وكمال الشنَّاوي». وتكرِّر أمِّي في الهامش على طول الصفحة: هههه هههه. «تجد المغنِّية الجميلة لواحظ نفسها في عالمٍ من الموبقات. فهي ورثت عن أمِّها مهنة بنات الليل. وباعتبارها ابنة شهوةٍ آثمةٍ عابرة، تجد لواحظ في حياتها أكثر من رجلٍ يدَّعي أبوَّتها، بدءًا من ذلك الذي تبنَّاها من أجل أمِّها ثم دخل السجن، ثم التاجر الذي عشق أمَّها وعاشرها في الحرام رافضًا أن يستر عليها... حتى تقع لواحظ في غرام ضابط شرطةٍ يتبيَّن أنَّه أخوها... ثم تكتشف لواحظ أنَّ خادمتها إنَّما هي أختها...».

الفيلم قديمٌ جدًّا. هل حملت أمِّي تلك القصاصة من بيت أبيها، واحتفظت بها من أيَّام شبابها الأولى لشدَّة ما كانت تتمنَّى أن تكون هي لواحظ، وأن تعيش حياة لواحظ؟ أو بسبب أنَّ في الحكاية مغنِّيةً مظلومةً غلبتها ظروف الحياة؟ لا أعتقد. رغم أنَّ أمِّي، إلى جانب جمالها الأخَّاذ، كانت ذات صوتٍ جميل، تصفه بأجمل الأصوات. أنا لم أسمع ذلك الصوت، فهي حين كانت تغنِّي في البيت كانت تردِّد بأسفٍ عميقٍ أنَّ السيكارة خرَّبت صوتها وخنقته. ربَّما خنقه أبوها قبل السيكارة، فهي كانت تلمِّح حين تسمع صباح إلى أنَّ الحظَّ هو من أطلق صوتها الجميل. الحظّ، وقرار صباح بالابتعاد عن أبيها وعن المجتمع المتزمِّت وذهابها للعيش حرَّةً في مصر. حرَّةً برأسها.

زبالة بيت أمِّي ليست دائمًا مفيدة. لا تقرِّبني منها كثيرًا. فبعض أوراقها يترك في رأسي طنينًا مثل موجات التشويش الكهرومغناطيسيَّة، وأحيانًا أخرى تنبح هذه الأوراق في قلبي ككلبٍ جريح، وتدفعني دفعًا إلى ذكرى حضنها الدافئ.

في غيابي كانت أمِّي تغنِّي لي أغاني الفراق الحزينة. أتخيَّل ذلك.

فهي كانت تغنِّي كلَّما اعتصر قلبها شعورٌ قويّ، وتجد دائمًا الأغنية المناسبة.

طفلة، كانت ترافقني إلى بوَّابة المدرسة حيث يجب أن تترك يدي. الحجج التي كانت تسوقها لمرافقتي إلى الداخل، من أنِّي أبكي لأنِّي مريضة، وأنِّي سأتقيَّأ وسيكون عليها تغيير ثيابي، لم تَعُد تنفع وسط بكاء كلِّ الأطفال. تبقى وقتًا طويلًا لوحدها خلف البوَّابة، لوحدها واقفةً تنظر في اتِّجاه الصفوف بعد أن يغادر الأهل المكان. وحين تعود لإرجاعي إلى البيت كانت تكون الأقرب إلى البوَّابة، تفتح ذراعَيْها من بعيد، تحملني وتقبِّلني، وتبكي أحيانًا من فرحها بي. وعلى الطريق تغنِّي أمِّي أغاني لوديع الصَّافي تلوم المهاجرين وتدعوهم للعودة إلى الوطن، أو تلك الأغاني الخفيفة من نوع «لو شبّاكِك عا شبَّاكي، كنت بقلِّك كيف بهواكِ»...

لكن أنا، ليس عندي أولاد، ولا أحبُّ الأولاد. هذه حقيقة.

لا أحبُّ الأولاد ولا كلَّ ما يحيط بهم من أقوال وعِبَر، من أنَّهم أبرياء وطيِّبون. كنتُ في ملعب الصغار ألتصق بالحائط خوفًا من

شراستهم وتنكيلهم بي وبغيري من ضعفاء البنية، أو الجبناء. لا أعرف بِمَ أردُّ حين أسمع البالغين يشفقون على كوننا ضحايا. دائمًا ضحايا شيءٍ ما، لا ضحاياهم هم بالذات. ضحايا الحروب، ضحايا العنف، ضحايا الظروف، إلخ...

يتكلَّمون عن الأطفال كأنَّ هؤلاء يتربُّون من أنفسهم، في بلادٍ بعيدةٍ أخرى. كأنَّهم، وهم يصوِّرونهم بالأسلحة الخشبيَّة الظريفة التي صنعوها لهم بأيديهم بكلِّ فخر، أو حين يعصبون رؤوسهم بخِرق الأحزاب، حاملين فلذات الأكباد على الأكتاف لرفع شارة النصر القريب، بريئون من شبَه هؤلاء الأطفال بهم. قساة، بدءًا من ملعب المدرسة حيث عصاباتهم كانت تضطهدني. وترتقي نسبة قسوة العصابة مع ارتقائنا الصفوف، وبحسب مزاج القائد وقوَّة محتدِّه وسيطرة أبيه على الحيّ. لا المعلِّمة تفهم رعبي، ولا المدير يصدِّق أمِّي عن أسباب غيابي المتكرِّر.

لا أمِّي ولا المعلِّمة ولا المدير يشرحون لنا، لي، كيف استُشهِد الطفل البريء، رفيقنا في الصفّ، والذي نرفع صوره على جدران المدرسة، حتى تغطِّيها صور بريءٍ آخر. الأمُّ الرئيسة لا تُلقي خطبتها المؤثِّرة إلَّا حين يطلب منها الأهل. وإذ ذاك تكون الخطبة صباحًا في الملعب أمام كامل الصفوف. أمَّا القدَّاس الإجباريُّ فكان نادرًا، وفقط حين يكون أب الشهيد البريء شخصًا مهمًّا أو قائدًا مرموقًا.

كان يخيَّل لي أنَّ البراءة هي بلادٌ أخرى، ينتقل إليها الموتى من الأطفال فور عبورهم، من أنفسهم، حاجز الحياة. بلادٌ أخرى، أو كوكبٌ آخر حيث سيكونون ملائكة البراءة، ولأنَّ أهلهم هم أهلُ أبرياء

من قتلهم. البراءة قبل وبعد. وأنا توقَّفت عن التشكِّي لأمِّي، واكتفيتُ بوجع البطن حين صارت أمِّي، من قلَّة حيلتها، تقول إنَّ الصبيان يضربونني ويعذِّبونني لأنِّي بنت، ولأنِّي جميلة، إذ هكذا يغازل الصبيان البنات الحلوات في هذا العمر... وتروح أمِّي تغنِّي أغاني الغرام والغزل للتخفيف عنِّي.

ليس عندي أولاد، ولا أنا أحبُّ الأولاد.

والحقيقة أنِّي لا أستطيع الإنجاب. ما يجعل كلَّ ما أقوله عن كرهي لهم هراء. هراءٌ خالص. وعبث. فأنا أكره ما لا أستطيع الوصول إلى تحقيقه، كحكاية الثعلب والعنب. حصرمٌ هو بطني. حصرمٌ رحمي. توقَّفتُ عن تناول الهورمونات نهائيًّا، واستسلمتُ لمرضي ولقباحتي.

من يكون وحيدًا مثلي عليه أن يتبنَّى نفسه مهما كانت الظروف. أن يجعل لنفسه خططًا يدافع من خلالها عن سقطاته، وعن جوانب قلبه المُظلمة، وحتى عن إساءاته.

أن يحمل صليبه ويجاهر به كأنَّه تاج، كأنَّه علامة جدارةٍ واستحقاق. وسامٌ لا يستحقُّه الآخرون. أن تقرِّر أنت بنفسك كيف يراك الآخرون. أنا لم أنجح في ذلك، لكنِّي أحاول. تستطيع امرأةٌ قبيحةٌ أن تقنع الرجال بأنَّها جميلة، لكن ليس من هُنَّ في مثل هيئتي.

صغيرةً حملتُ إلى أمِّي أوسمة شطارتي، لكنَّها كانت أوسمةً لها، وليس لي، أوسمةً ورَّطتني في خوفي من العالم. صارت أوسمتي المادَّة الدافعة لتعذيبي في الملعب، وفي الصفّ، بالسخرية وبالأذيَّة. كان عليَّ أن أكون قدوة، كاملة الأوصاف، صبحًا ومساء. ألَّا أخطئ، ألَّا أصحِّح حرفًا على دفتري فترى المعلِّمة أثر الممحاة، ألَّا يكون على حذائي

غبار، ألَّا يحمل زيِّي المدرسيَّ طيَّةً في غير موضعها. أن تكون أظافري مقصوصةً حتى اللحم، أن يكون شعري ممسَّدًا ملتصقًا برأسي طيلة النهار، وأن تكون رائحتي تفوح بالمطهِّرات. ألَّا أتعرَّق. ألَّا أركض. ألَّا أدفع عنِّي من يضربني. وألَّا أدخل بيت الخلاء في ملعب المدرسة.

الآن أكلِّم نفسي وأطبطب عليها. أقول أنا هكذا. ولا أحبُّ الأطفال. أو أنا بالتأكيد أكره الأولاد. أمكث هنا بالساعات هربًا منهم، من قسوتهم. حتى في الليل، إذ أحسب أنَّهم عادوا إلى بيوتهم. لكنَّ أعداد قطعانهم الليليَّة ازدادت على نحوٍ فظيعٍ مع ازدياد أعداد المشرَّدين، وصار من الصعب جدًّا تجنُّبهم. ما إن يعوي واحدهم عليَّ حتى تلتمَّ جماعته وتلحق به. وهم خطرون. يحملون العصيَّ والسكاكين، وأنواعاً من الآلات الحادَّة يصنعونها بأيديهم. لا يخافون من أحدٍ وليس في قلوبهم رحمة. وحين أقع في سيري على جثث وجيف حيواناتٍ من قطط وكلاب، أعرف من منظرها الشنيع أنَّهم هم، هم من عذَّب تلك الحيوانات حتى القتل. فأخاف أكثر، وأحاول جاهدةً الابتعاد عن أماكن تجمُّعهم، معتمدةً على أذنَيَّ وإصغائي المركَّز عند كلِّ خطوةٍ أخطوها.

لا أراهم في النهار. في النهار أخاف من الناس العاديِّين ولو خوفًا أقلّ. وأخاف من الزحمة كثيرًا ومن السيَّارات. فجسمي الكبير يوحي بالصلابة فلا يراعيني من يصطدم بي.

في النهار لا أرى الأولاد السيِّئين. ربَّما ينامون من سهر الليالي، أو هم يتفرَّقون ساعين إلى أرزاقهم فيخفّ خطرهم. في النهار يكونون فرادى أو أزواجًا، وإذا ما هجم أحدهم عليَّ قد يجد من يردعه من الناس. لكنِّي لا أخرج إلَّا في الفجر.

إنَّهم يزدادون عددًا على نحوٍ مضطرد. ولا تخلو منهم ساحات وسط البلد، لا البورة القريبة من هنا، ولا تلك الواسعة وسط الأسواق القديمة منها والجديدة. هناك حيث يرمي التجّار الكراتين والصناديق البلاستيكيَّة بمختلف الأحجام، وحيث تتكوَّم وتتكدَّس أكياس الزبالة السوداء الكبيرة على الحاويات وحولها، يلقي بها من بعيدٍ غرسونات المطاعم. هذه الفلاة بالذات يفضِّلها أولاد الليل، إذ غالبًا ما ينامون بين الكراتين ويأكلون من فضلات المطاعم والجزَّارين، ولا ينغِّص عليهم مرور شاحنات البلديَّة إلَّا نادرًا. وهم باتوا أكثر اطمئنانًا منذ أقفلت معظم المحالِّ التجاريَّة، وسُدَّت نوافذ البيوت الفخمة، وخلت شرفاتها الجميلة العالية. حتى المطاعم صارت تُخلي لهم الساحات في أوَّل المساء، إذ صارت تُقدِّم خدماتها للغداء فقط، ويبدأ لمُّ الطاولات والكراسي، وتُجَرُّ الخيم بأنواعها وتُطوى في الداخل قبل مغيب الشمس. وقد يحصل أن تمرَّ أسابيع أو أكثر تبقى فيها كلُّ ساحات وسط البلد، الصغيرة كما الكبيرة، مقفلة، ثم مسيَّجةً بالسلاسل المعدنيَّة، ثم مطفأةً بالكامل. إذ ذاك تتَّسع العتمة، ولا يتبقَّى من أصوات الليل سوى مواء القطط الشهوانيّ، وقهقهات هؤلاء الأولاد إذ يبالغون في شرب الكحول.

لا أذهب مطلقًا إلى هذه الفلوات، أو إنِّي توقَّفتُ نهائيًّا عن ذلك.

فقد أردتُ مرَّةً أن أتفرَّج ولو من بعيدٍ على المظاهرات الصاخبة، وعلى تجمُّع الناس الصارخين المُحدِثين جلبةً عظيمةً في تلك الأماكن، لكنِّي خفت. خفتُ أن يدوسني المتظاهرون الهاربون من لعلعة الرصاص وهم يركضون في كلِّ اتِّجاه.

كان بودِّي أن أتفرَّج على المفرقعات تملأ سماء تلك الأرض الواسعة. كنت أحبُّ أن أتفرَّج على ما وصلني من الأغاني المفرحة ودقِّ الطبول ووقع الدبكة، فأنا منذ غادرتُ البلاد لم أتفرَّج على أعراسٍ أو احتفالاتٍ بهذا الحجم. لكنِّي قطعًا لا أحبُّ المغامرات، ولا تجمُّع الناس وكثرتهم الفوضويَّة المتحمِّسة، فلم أقترب. وأنا يرعبني صوت الرصاص وتعدُّد الانفجارات المهولة وقوَّتها.

حين أطيل الجلوس هنا، على ضفَّة هذا النهر الذي ليس نهرًا، أدرس جيِّدًا خطَّتي للعودة، وأرسم في ذهني الطريق التي عليَّ أن أسلكها لأصل إلى البيت. ويكون ذلك بحسب الظروف، ففي ليالي الربيع المشرقة أتجنَّب الكورنيش والطرقات المحاذية لأنَّ الأولاد هؤلاء يحتلُّون أجزاء منه، خاصَّةً تلك الغارقة في العتمة من قلَّة الكهرباء، وتلك التي بقيت بلا إنارةٍ منذ أيَّام الحرب. وهناك أيضًا أخطارٌ غير محسوبةٍ في قطعٍ دائريَّةٍ من الأرض الواقعة بين درابزين الكورنيش ومياه البحر أو صخوره، والتي رغم خلوُّها من كلِّ إنارةٍ تبدو مخضرَّةً في الليل، كصحراء اشتعلت فيها الحياة فجأةً بعد مطرٍ مفاجئٍ طوفانيّ.

إلى أن عَصَفَ بنا جحيمٌ نزل من السماء ذات غروب. أبرقتِ السماء بأبيض فوسفوريٍّ شفطني عن الأرض شفطًا. انخلعت مفاصلي المريضة. اعتقدتُ أنِّي متّ.

وفقدتُ الوعي.

اللون الورديُّ الفاقع كان لون قماش الأطلز الساتان الذي يتوسَّط اللحاف، يحيط به ويلفُّه الكتَّان الأبيض المثبَّت بغرزات خيطٍ قطنيٍّ سميك. لم يكن هذا لحاف سريري، كان كبيرًا وثقيلًا على جسمي الصغير الذي بالكاد يملأ ربع مساحة السرير الكبير. وضعت أمِّي السرير في صحن الدار من أجل الزوَّار، وأيضًا كي لا أغيب أبدًا عن ناظرَيْها وأنا مريضة، وقد طال مرضي وسمع به الجيران والأقرباء.

المرأة التي دخلت علينا فجأة، بشعرها الأشعث وعينَيْها المنفوختَيْن، تتلوَّى وتئنُّ وتعضُّ سبَّابتها وتُصدِر أصواتًا مُنكَرة، لم تكن مصابةً بنوبة صرعٍ كما اعتقدت أمِّي التي لم تكن رأت هذه المرأة في حياتها. كنت أغمض عينَيَّ ثم أفتحهما قليلًا، ثم أُنزِل رأسي تحت اللحاف كي لا ترى أمِّي فزعي، وكي تعتقد أنِّي نائمةٌ من شدَّة ارتفاع حرارتي.

قرَّبتِ المرأة كرسيًّا من سريري. جلستْ وراحتْ تتنفَّس بعمق. ثم قالت بصوتٍ مُنهَك: رصاص. صحنٌ أو قصعةٌ فيها ماء. ومقلاة. ملعقةٌ وشمعة. ولمَّا رأت المرأة أنَّ أمِّي لم تفهم وظلَّت واقفةً في مكانها مُسبِلةً ذراعَيْها، قالت لها: يا ستّ اسمعيني جيِّدًا، على عدَّاد الكهرباء هناك سلكٌ مقفلٌ بدمغةٍ من رصاص، انزعيها وائتِني بها. تحرَّكي يا

ستّ. أريد من مطبخك ملعقةً كبيرةً وطشتًا فيه ماء. وأريد بخُّورًا من كنيسةٍ قريبة.

طشَّ الرصاص المُذاب في الملعقة فوق الشمعة في ماء الطشت الذي كان يعلو رأسي. رفعته المرأة وراحت تُقلِّبه.

وقالت المرأة إنَّها، مع ما تُتمتم به من كلماتٍ خفيضة، قد أنجزتِ الرقية. تبكي أمِّي وهي تتابع الحكاية التي روتها لي وللناس مرَّاتٍ ومرَّات. وأنا لا أميِّز، لم أعُد أميِّز مهما حاولت، إن كنت أتذكَّر تلك المرأة أو رقيتها، أو أتذكَّر رواية أمِّي، أو إنِّي أتخيَّل ما روته أمِّي تكرارًا وبانفعالٍ كبير.

ثم قلتِ ماما أنا جوعانة. وحين تصل أمِّي إلى «أنا جوعانة» تكون بداية النهاية السعيدة، وتشرق بدموع الفرح.

المرأة الغريبة، التي لم أكن رأيتُها في حياتي، أتت من بعيد. قالت إنَّكِ شفيتِ تمامًا لكنَّ نجمكِ خفيف، وستُصابين بعيْن الحسد طيلة حياتك. وقالت إنَّها لا تستطيع أن تُعلِّمني رقيتها لأنَّ رقية الأمِّ لا تنفع، ولا تتعلَّمها المرأة من امرأةٍ بل من رجل، والرجل من امرأة.

وقالت إنَّها قرأت، رأت، في شكل الرصاص امرأةً سمينةً تنظر إلى الصغيرة وهي تأكل منقوشة زعتر. سمينةً وشقراء وعاقرًا لا تُنجب، لم تُبسمل ولا ذكرت اسم الصليب. وابنتكِ جمالها هو بلوتها. طيلة حياتها. يلزمني من أثر تلك المرأة أيُّ شيءٍ لأحرقه بالبخُّور فتتمَّ الرقية. شعرةٌ أو خيطٌ من ثوبها. وهي شقراء بالصبغ والأوكسجين. وليس عندها أولاد. تذكَّري. كانت الطفلة تأكل منقوشة. لا يا ستّ، أنتِ لا تعرفينني. أنا أسكن في منطقةٍ بعيدةٍ من هنا. إحدى عمَّات البنت جارتي، وهي

كانت تُحدِّثني عن مرض البنت الذي لم يفهمه الأطبَّاء، ولا وجدوا علاجًا له. وكانت عمَّة البنت تبكي. ثم، وحدي في مطبخي كنت أقلي الباذنجان وأسمع الراديو، شعرتُ بقوَّةٍ تحرِّك قدمَيَّ وتدفعني دفعًا نحو الباب. أطفأتُ النار تحت المقلاة. خرجتُ وتبعتُ دفع هذه القوَّة في الطرقات ووصلت إلى هنا. هكذا. انتبهوا. نجمها خفيف.

كيف أنتبه؟ وممَّ أنتبه؟ تقول أمِّي، وأنتِ كلَّما رأتكِ عينٌ وأشاد بجمالكِ لسانٌ أصابني الهلع. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل بكِ؟ لا أستطيع حبسكِ في البيت. وأنتِ على شرفة البيت أصابتك العيْن. الحسد ليس بالإرادة، لا يؤذي عن قصد. الخرزة الزرقاء لا تكفي، وأنا قد لا أُبسمل بما يكفي لحمايتك. لذا قرَّرتُ أن أنذرك للقديسة ريتا أمِّ القضايا المستعصية، فألبستكِ ثوبها لتكون شفيعتكِ العجائبيَّة. لكن. لكن في هذا الثوب مع غطاء الرأس الكامل، مثل صورة الأيقونة، كنتِ أكثر جمالًا، كنت أجمل. راهبةٌ صغيرة. ملاك. لعبة.

تتحلَّل ذكرى الألم في الدم. تدخل الخليَّة وتُعيد تنظيمها، تدويرها. من الكبد إلى الدماغ فكامل الأعضاء.

الألم الذي يقيم طويلًا في صمت، ويحفر في الظلِّ كالضغينة.

في ملعب المدرسة أنتحي جانبًا ملصقةً ظهري بجذع شجرة الكينا الكبيرة. وأنا أدور حول الجذع لأتفادى ركض الصبيان ويدي مرفوعةٌ أعلى رأسي، على النقطة المسمَّاة بالنافوخ، كي أمنع القماشة البنِّيَّة من الانزلاق. الخرقة المستطيلة التي تغطِّي الكيس الأبيض القطنيَّ الذي أخاطته أمِّي ليلفَّ شعري ورقبتي، كما في صورة القديسة التي علَّقتْها أمِّي في مدخل بيتنا. تتشنَّج عضلات ذراعي المرفوعة، وينسحب الدم

من يدي لتبقى إصبعي السبَّابة ضاغطةً على أعلى رأسي، مخافة وقوع الغطاء البنِّيّ، وهو كان مثبَّتًا بدبُّوسٍ صغيرٍ وقد انزلق وضاع. أبكي بدموعٍ غزيرةٍ من وجعي، ومن خوفي من الأولاد، ومن هيئتي بلا الرقعة البنِّيَّة ورأسي التي ستكون مكشوفةً في كيسٍ أبيض، وأيضًا من قلَّة قداستي، وأختبئ متنقِّلةً وراء جذع شجرة الكينا. لكنَّ معلِّمةً مارَّةً من هناك تسمع بكائي. تسألني عن سبب بقائي في الملعب وقد انتهت الفرصة، وعن سبب بكائي. أحاول أن أتكلَّم بين الشهقات. تحملني المعلِّمة اللطيفة، ثم تُنزِلني عن ذراعها بسرعةٍ إذ ترى أنِّي بلتُ في ثيابي.

تلك الفتاة الصغيرة، التي كانت في الرابعة، أراها الآن، وتؤلمني ذراعي. ذلك الألم الذي كان ينبغي أن تنتصر عليه الطفلة ولم تستطع. فشلتْ في تقديمه للربِّ إماتةً مع آلامه، كما فعلت شفيعتها. ريتا الإيطاليَّة الجميلة الطاهرة التي ظلَّت تصلِّي راكعةً على ركبتَيْها أمام صورة يسوع المصلوب، طالبةً منه أن تشاركه في آلامه العظيمة برهانًا على حبِّها. ساعات، ثم أيَّامًا وشهورًا، وربَّما أكثر، حتى استجاب لصلواتها، وأرسل شوكةً من إكليله إلى جبهتها انزرعت فيها حتى العظم.

خمسة عشر عامًا عاشت ريتا مع شوكة الحبّ، سعيدةً بها. لم ينجح أحد، لا الأمُّ الرئيسة ولا حتى المطران في إقناعها بأن كفى، وبأنَّه صار ينبغي استخراج شوكة الحبّ. حتى وصل التقيُّح إلى عظام الجمجمة واخترقها، فابتعدتْ عنها وعن خدمتها الأخواتُ الراهبات من قوَّة الرائحة الكريهة. ثم ابتعدت هي عنهنّ، وعن الصلاة والقداديس من شدَّة آلامها ومرضها. حتى ماتت ريتا. ظلَّت مع شوكة حبِّها، سعيدةً بهديَّتها حتى الموت.

ظلَّت ريتا، التي اصطفاها يسوع ومنحها شوكة حبِّه دون غيرها من مستحقِّي الشوك، ظلَّت سعيدةً حتى النهاية. وما زال جسدها الطاهر الجميل لم يفنَ، منذ موتها في القرن الرابع عشر، ممدَّدًا في تابوتٍ في كنيسة دير الرهبنة إيَّاه حيث عاشت. جسدها الخالد الحيُّ بشوكته الخالدة، يراه الحُجَّاج ويرون الشوكة في جبهة شفيعة الأموز المستعصية.

شطفت المعلِّمة اللطيفة نصفي الأسفل بالماء البارد، وسألتني لماذا لم أذهب إلى حمَّام المدرسة بدل أن أبول على نفسي. كنت سعيدةً لأنَّها وجدت لغطاء رأسي البنِّيِّ دبُّوسًا ذا قفلة، فلم أجد لزومًا لأشرح لها عن صعوبة إنزال الكيلوت بيدٍ واحدة، وعن خوفي من الوسخ في حمَّامات المدرسة، حيث لا صابون ولا اسبيرتو.

لم تضيِّع أمَّكِ رأسها إلَّا حين أعادوها من المستشفى، قالت أمُّ منصور.

لا أدري لأيٍّ سببٍ غادرت العائلة هكذا على عَجَلٍ بيت أمِّي الذي كانت احتلَّتْه. لا أدري إن كانت دخلت البيت قبل موت أمِّي، خلال وجودها في المستشفى، أم بعد ذلك، بعد موتها.

المكان الذي عدتُ إليه ليس بيتنا.

بيتنا كان أوسع، كان في بنايةٍ تقع في الشارع نفسه. لكنِّي حين عدتُ لم أتعرَّف على البناية بالمرَّة. أعتقد أنَّها بنايةٌ جديدة، عمَّروها بعد أن أزالوا القديمة التي كان لنا فيها بيت. ربَّما تضرَّرت من قصفٍ ما، أو أنَّها انهارت من نفسها، بسبب قدمها وإهمالها. العمارة الجديدة عالية، ولا تشبه تلك التي أقمنا فيها في شيء.

هذا البيت ليس بالضبط بيتًا. إنَّها شقَّةٌ صغيرة. صالةٌ وغرفة نومٍ ومطبخ. ويبدو لي أنَّ العائلة التي أقامت هنا لم تبقَ لوقتٍ طويل. ومن الواضح أنَّهم غادروا على عَجَل، تشي بذلك الروائح الكريهة المنبعثة من كافَّة الزوايا. وهم لم يخرجوا من هنا منذ وقتٍ طويل، وإلَّا لكانت البقايا، مصدر الروائح التي تركوها، تيبَّست تمامًا، أو أكلتْها الجرذان والصراصير.

لا أدري كيف كانت هيئة هذه الشقَّة، ولا أستطيع تخيُّل أمِّي بداخلها. في الصالة وجدتُ كنبتنا القديمة فقط. كان قماشها متَّسخًا

حتى تبدَّل لونه، واستُبدِلَت إحدى قوائمها الخشبيَّة ببلاطتَيْن سميكتَيْن. في غرفة النوم تعرَّفتُ بصعوبةٍ على الخزانة الخشبيَّة. وفي المطبخ، إذ رحتُ أقحط ما كان متعفِّنًا من طبيخ، محشي الملفوف أو الكوسى، تذكَّرتُ طنجرة ألمونيوم قديمةً بأذنٍ واحدةٍ كانت في مطبخ بيتنا. الروائح التي كانت تنبعث من الحمَّام تشي كذلك بخروجهم السريع من هنا، إذ تكدَّست حفَّاضات الأطفال المستعملة، بخرائها، تفيض عن كيس النايلون المبقور...

لا تعرف أمُّ منصور، الجارة في الشقَّة المُلاصقة، لا تعرف شيئًا عن تلك العائلة التي جاء بها أحد الناس من أهل الحيّ، والتي سكنت هنا شهرًا أو أكثر قليلًا. قالت إنَّها لا تعرف عنهم شيئًا، وإنَّها لا تتدخَّل. وإنَّها فتحت بابها لتردَّ على أسئلتي لأنِّي طرقتُ بابها، وإلَّا لبقيتْ في شقَّتها وفي حالها.

وهي لا تعرف الكثير عن أمِّي.

قليلًا ما كنت أرى أمَّ منصور، وقليلًا ما كنَّا نتكلَّم. فزوجها كان يمنعها من التحدُّث إليّ، وطقِّ الحنك معي، إذ كان يعتقد أنِّي رجل، أو أنِّي امرأةٌ متحوِّلة، أو نصف هذا ونصف تلك. قالت لي مرَّة، وهي تساعدني في الصعود على الدرج، إنَّه يخاف. يخاف عليها أو يخاف منِّي. لكنَّ قلبه طيِّب. أمَّا هي فلم تَعُد تخاف منِّي بالمرَّة، وصارت متأكِّدةً من أنَّه مرضٌ أصابني، وهي تطلب لي الشفاء، أو أقلَّه العون من اللّـه أو من البشر للوصول إلى طابقنا، الطابق الخامس، حين تكون الكهرباء مقطوعةً أو المصعد معطَّلًا أو عالقًا بين طابقَيْن. وتقول أمُّ منصور إنَّ أمور البناية تسير من سيِّئ إلى أسوأ، لأنَّ المستأجرين فقراء. ومالكو هذه

الشقق لا يريدون إصلاح أو تحسين أيِّ شيء، علَّهم بتردِّي الأحوال يتخلَّصون من المستأجرين، فيبيعون شققهم التي لم تَعُد مربحةً ولا تستحقُّ تكاليف التصليح. مالكو الشقق، الذين انتقلوا بأكثريَّتهم من هذه المنطقة، يريدون البيع وترك البلد، تقول أمُّ منصور. ولولا الطابق الأرضيُّ حيث الدكاكين وكاراجات تصليح السيَّارات لكان رصيف البناية نفسه انقبع من مكانه، أو لكانوا فجَّروا البناية وتخلَّصوا منَّا. كلُّنا نعرف نواياهم، لذلك ينام أصحاب المحالّ، أو عمَّالهم، في أماكنهم وأبوابهم وعيونهم مفتوحة. المالكون معهم حقّ، والمستأجرون أيضًا. تقول أمُّ منصور.

كانت عِشرتها صعبة، الستُّ الوالدة. وهي لم تكن تحبُّ التكلُّم مع أحد، أو حتى مساعدة أحد. اللّـه يرحمها.

لم تكن أمِّي تحبُّ بيتها هذا. كانت بالتأكيد تكرهه. ورغم أنِّي لا أجد أشياء كثيرةً لها، من حياتها فيه أو ممَّا حملتْه من بيتنا القديم، فأنا أعلم يقينًا أنَّها كرهتْ هذه الشقَّة، وكرهتْ حياتها فيها. وحين تكره أمِّي شيئًا فهي تنساه ولا تعود تراه. وأمِّي توقَّفتْ عن العيش هنا. ربَّما هكذا بدأ الخَرَف في رأسها، قرارًا متعمَّدًا، قبل دخولها المستشفى.

من الصعب أن أسترجع أمِّي في هذا المكان، أن أتخيَّل لها حياةً هنا. جاهدةً أخترع أو أتذكَّر جسمها، حتى أراه يتحرَّك بين هذه الصالة وغرفة النوم، أو في المطبخ وراء حوض المجلى. ولا أراها على هذه الكنبة تجلس متفكِّرة، أو تنظر إلى النافذة الوحيدة المشروخة الزجاج. وهي تحبُّ الشرفات كثيرًا، وتقضي وقتًا منشغلةً بين النباتات والأزهار، أو في التفرُّج على الشارع أو على مغيب الشمس وقت العصارى. لكن

هذا البلكون الضيِّق، بدرابزينه الأسود الصدئ، مربوطةً إليه بأسلاكٍ مقطَّعةٍ بقايا دوائر حديديَّةٍ كانت تسند قصع نباتٍ أو ما شابه، أشياء لا تساعدني في استحضار وقوف أمِّي عليه. يزيد من بؤسه حبالٌ بلاستيكيَّةٌ لنشر الغسيل لا تعلو عن مستوى رأسي، فتعيق التفرُّج على أيِّ شيء.

ويطلُّ هذا البلكون على سطح البناية المقابلة، ولا يبعد عنه سوى أمتارٍ قليلة. سطحٌ هو أشبه بكهف، لكنَّه كهفٌ مفتوحٌ على السماء والهواء، تتكوَّم فيه بقايا أغراضٍ وأشياء تحت قطعٍ مهشَّمةٍ ممَّا كان سقالةً من الأترنيت. ولا يمكن لأحدٍ تبيُّن هذه الأكوام، أو كيف تكدَّست هناك هكذا. بضع مِزَقٍ من قماشٍ مقلَّمٍ تبدو كالأعلام المرفوعة على أسياخٍ حديديَّة، كانت في ما مضى خيمةً كتلك التي أقامها الناس على السطوح في أيَّام الحَرِّ اللاهب للسهر أو النوم.

لا أرى أمِّي واقفةً على هذا البلكون تتنهَّد عند المغيب أو تغنِّي. وليس في دوائر أو مربَّعات الصدأ على البلاط، تلك الدوائر التي تتركها علب الحليب الكبيرة أو تنك البنزين، ما يدلُّ على اهتمام أمِّي بزرع أيَّة نبتةٍ هنا. فأمِّي لا تزرع إلَّا في أواني الفخَّار الجميلة التي تحفظ رطوبة التربة، كما كانت تقول. هناك فقط فخَّارةٌ كبيرةٌ في الزاوية، لا أثر لشروشٍ يبست فيها. غبارٌ أسود سميك، وأعقاب سجائر وملاقط غسيلٍ مفكَّكةٍ فقط. لكنِّي حين قمتُ بتنظيفها وجدتُ في طرفِها نبتةً هزيلةً خضراء، دلقتُ عليها ماء الكوب الذي كان في يدي، ثم نسيتُها.

لم تقف أمِّي هنا، ولم تتسلَّ على هذا البلكون. نوافذ البيت الذي سطحه يقابل بيتنا مغلقةٌ دائمًا، ودرفاتها الخشبيَّة مُخلَّعةٌ ومكسَّرة. هو إذن مهجورٌ ولم يحتلَّه أحد. برواز أحد الشبابيك أسود، ووراءه لا أثر

لزجاج. هذا يعني أنَّ حريقًا التهم جزءًا من هذه الشقَّة فجعلها غير قابلةٍ للسكن، أعني للاحتلال. فلماذا قد تقف أمِّي أمام هذا المنظر البشع، هي التي تحبُّ الأشياء الجميلة؟

لم تترك أمِّي أشياء هنا تدلُّني إليها.

في الخزانة التي صارت بلا درفاتٍ وجدتُ بعض الشراشف على رفٍّ عُلويّ، مطويَّةً بعد كيٍّ قديم، وعلى طرفها البادي لونٌ أصفر كأنَّه طِلاءٌ التصق بأبيضها. لا بدَّ أنَّ أمِّي كانت حملتها من بيتنا، كما هي فوق بعضها، ولم تستعملها هنا. ولم تستعملها العائلة الصغيرة التي أقامت هنا. حين أدخلتُ كفِّي بين طيَّات الشراشف وباعدتُ في ما بينها، تذكَّرتُ كتَّانها الذي يشعُّ بياضًا، والذي كانت أمِّي تشتكي من صعوبة كيِّه. ثم لمستْ أصابعي معدنًا باردًا.

أخرجتُ السلسلة الذهبيَّة، ثم كيسًا صغيرًا من الأورغنزا بداخله زهور الخزامى.

أصابني حزنٌ عميقٌ إذ وجدتُ أنَّ رائحة الخزامى ما زالت حاضرةً في شراشف أمِّي.

في وسط حلقات السلسلة الذهبيَّة أيقونةٌ اسمي محفورٌ على قفاها، وكذلك تاريخ مولدي. لا بدَّ أنَّها كانت هديَّةً للمناسبة.

نسيتْ أمِّي السلسلة وأيقونتها. نسيتني أمِّي.

لكنَّ أمِّي كانت نسيتني قبل ذلك بكثير. قبل انتقالها إلى هنا.

رغم حبِّها لي.

أو بسبب ذلك الحبّ.

أحبَّتني أمِّي كثيرًا. هذا مؤكَّد.

حين أُصِبتُ بالجدريِّ طار عقلها. خافت كثيرًا. تسهر الليالي الطوال إلى جانبي لا تنام. تصفُّ الأدوية والعقاقير على المنضدة بحسب مواقيتها، وكلَّما فتحتُ عينَيَّ وجدتُها تنظر إلى ساعة يدها.

لا تكفُّ عن سكب السبيرتو على كُريَّات القطن، وعلى الخِرَق الصغيرة المرطَّبة بالخلِّ والماء. السبيرتو كان بلسم أمِّي، تستعمله باستمرار، حتى لحرق الجراثيم في الهواء. وتضيفه إلى البخُّور لإشعاله، ولتطهير فضاء الغرفة.

تحتفظ أمِّي بقنينة سبيرتو صغيرةٍ في حقيبة يدها. لا تخرج من البيت من دون التأكُّد من محتوى القنينة، لأنَّ هذا السائل العظيم سريع التبخُّر. إن قبَّلني أحدٌ على وجنتي أو رأسي، دلقتْ أمِّي السبيرتو في باطن كفِّها ومسحت مكان القبلة من دون حرج، بل بشيءٍ من الغضب والتبرُّم، لا تراعي قريبًا أو حبيبًا. ونادرًا ما كانت تُقدِّم سببًا للعزيز صاحب القبل، فتقول إنَّ الجوَّ مُثقَلٌ بالرطوبة، ولا مثيل للسبيرتو في سحب الرطوبة من الجوّ. لكنَّها كانت تعتقد ذلك فعلًا، إذ كانت تدلق السبيرتو على أعلى رأسي قبل خروجي من الحمَّام الساخن

وقبل أن تنشف جلدة الرأس، قائلةً إنَّ الزكام والكريب يتأتَّيان من الرطوبة.

حين أصبتُ بالجدريِّ راحت أمِّي تمسح البثور وآثارها بالسبيرتو، ولو عن غير اقتناع. كانت تقول إنَّه قد لا ينفع، لكنَّه لن يضرَّ الجلد. فالنظافة ليس لها إلَّا الفوائد. لم تتوقَّف عن ذلك إلَّا حين أصاب عينَيّ احمرارٌ شديدٌ وتورَّمَ جفناي. لكنَّها ظلَّت حتى نهاية زيارة الطبيب تردِّد أنَّها لا تريد أن يترك الجدريُّ آثارًا على جلدي الحرير.

لا يعني ذلك أنَّ أمِّي كانت تحبُّني لجمالي، أو لجمالي فقط.

حبُّ الأمِّ حقيقةٌ راسخة، لا نقاش فيها. هو من أفعال الطبيعة، ومن الحقائق التي لا يعوزها برهان. والحقيقة هذه اسمها الأوسيتوسين. إنَّه هورمون التعلُّق، وهو في أصل وجود الخليقة. وهو ما يربط الوالدة بوليدها لا حبل الصرَّة. وهو ما تُفرزه الطبيعة فيها لبقاء النوع، كما عند الحيوانات التي تلد. وإلَّا ما الذي يمنع الأمَّ من الابتعاد عن الوليد، ومن انطلاقها خفيفةً في الهواء الحُرّ. هذا ما عرفتُه وتأكَّدتُ منه في عمر البالغين.

يبدأ إفراز الأوسيتوسين من لحظة طلق الولادة الأوَّل. يدخل في المشيمة وفي غدد حليب الثديَيْن، يسرِّع تقلُّصات الرَّحم لدفع الجنين إلى المهبل، يمحو من منطقة الجنس كلَّ ما له علاقةٌ بالرغبة. وهو نفسه، هذا الهورمون، ما يُطلِق كهرباء الألم حتى اللهيب، ثم يطفئه فورًا بعد الوضع. فورًا، مستبدلًا جعير البقرة بسعادة لحس العجل، الذي يتَّجه إلى حلمات الضرع المنتفخة بالنعمة. حالما وقعت عليك عيناي، تقول الأمَّهات السعيدات، وتقول أمِّي.

هناك بالطبع بعض الحالات الشاذَّة، نقصًا في الأوكسيتوسين، لكنَّه الشواذُّ الذي يؤكِّد صحَّة القاعدة.

والقاعدة ليست مجرَّد حكاية.

وأنا في بحثي الدائم بل المحموم عن أصول الحبِّ وأعراضه، خاصَّةً حبَّ الأم، أي حبَّ أمِّي لي، كنت أحفر في كامل كياني كلَّ معلومةٍ أقرأها أينما أجدها، فتجمع ذاكرتي الشذرات وتحتفظ بها، كما يفعل المغناطيس ببُرادة الحديد.

بدأ محرِّك الأنوثة/الرجولة الكبير في عصر الجوراسيك. حصل تعديلٌ جينيٌّ آنذاك في أصل وجود الثدييات. فالفأر جدُّنا جميعًا واسمه جوراماياً[1]، كان لا يبيض ولا يلد. لم يكن أنثى ولم يكن ذكرًا. كان التوالد العذريُّ في أصل تكاثره. كما عند حشرة المنِّ الأسود التي تأكل شُجيرة الورد بعد استعمارها، وتدمِّر أعصاب أمِّي. لم تجد أمِّي علاجًا طاردًا لهذه الآفة، إذ كيف تقاصص وتُقصي من لا جنس له. فقط، وبفعل فيروسٍ دخيلٍ هبط على عالم جورامايا وتسبَّب بما يُعتَقَد أنَّه نوعٌ من الالتهابات، أصبح لجدِّنا الفأر جنس. فالالتهابات تلك حوَّرت في تراكيب حمضه النوويِّ وعدَّلت جيناته فجعلت له بويضة، تنام آلاف السنين، ثم تستفيق وتنسج حول نفسها رحمًا، أو تعود إلى الحياة من دونه. هكذا. هكذا استفاق جدُّنا الأكبر ليجد أنَّه أصبح أنثى وذكرًا، كائنَيْن منفصلَيْن تمامًا، محكومَيْن بشهوة التزاوج. نومٌ طويلٌ بانتظار الغرام، كمثل ما تفعل بعض الكائنات حتى يومنا هذا، إذ تتجمَّد في ثلوج الصقيع من نفسها، تتوقَّف دقَّات القلب أو تكاد، ثم تعود إلى

---

(1) Juramaya.

الحركة والحياة حين تدبُّ في الخلايا أشعَّة شمس الربيع. ينطلق الدم، ينتفض الرحم، تتململ الرغبة فتفبرك الأنثى مشيمتها، وينصرف الذكر إلى صناعة خصيتَيْه وتطوير منيه. والاثنان تحدوهما سعادة البيت، أو العش، أو الجُحر، لحضانة الحبّ، وحصانته، أي لاستمرار النوع.

ياه.

أعرف أشياء كثيرةً لا أدري كيف أو من أين جمَّعها رأسي. أشياء كثيرةٌ متنافرةٌ شكلًا ومضمونًا، تشبه الكراكيب على سطح البناية المقابلة لشقَّة أمِّي. جمَّعها رأسي ليفهم الحبَّ وأصول الرغبات، ثم تبيَّن أنَّها في النهاية لا تُفيد بشيء، ولا تُفيدني أنا شخصيًّا بأيِّ شيء. فلا هورموناتي تَعِدُ بالإنجاب وقد تخرَّبت تمامًا، ولا ينفع ما أعرفه في حديثٍ اجتماعيٍّ أتفاخر به متفذلكةً على مسامع الآخرين، فأنا لا أتحدَّث مع أحد.

كلُّ ما أعرفه من صدفةٍ وتجميعٍ اعتباطيٍّ حول الحبِّ أجد الآن أنَّه قديمٌ وغير صالحٍ للاستعمال، ولا مكان له أو فائدة منه في حياتي. لزوم ما لا يلزم. فصاحة أُعطِيَت هديَّةً لأخرس.

لا حيث كنت في البلد الأخرى كان ما أعرف مفيدًا، ولا هنا حيث عدتُ لا أعرف لماذا. أعرف فقط أنِّي وجدتُ نفسي في المطار، وكان همِّي ألَّا تفوتني الطائرة وأنا أتحرَّك ببطءٍ على حواجز التفتيش والأمن الكثيرة، سائرةً بين الخطوط الطويلة والمماشي المتعرِّجة كما في سباق الأحصنة أو الحمير. وأنا لا أستطيع التسابق إلَّا مع ساقَيَّ المريضتَيْن.

أتذكَّر ذلك الوثائقيَّ عن سمك السلمون. الصوت المرافق لرحلة السمكة، وكأنَّه يتكلَّم من داخل رأسها، من ضميرها الكونيّ. الصوت

ذو النبرة التراجيديَّة وهو يصف ميتولوجيا الشوق الذي يدفع السمكة إلى مهالك السباحة عكس التيَّار، كلِّ التيَّارات، مستبسلةً خلال ارتطامها بالصخور المُسنَّنة في شلَّالات الأنهار ومجاري المياه، كاظمةً آلامها وناسيةً جراحها النازفة كبطلٍ خارق، من أجل مهمَّةٍ بطوليَّةٍ تتجاوز غريزة البقاء، عنوانها الوحيد العودة إلى مسقط الرأس. مسقط رأسها، حيث ستبيض في المكان نفسه الذي باضتها فيه أمُّها. ويسمَّى في لغتنا البشريَّة الوطن، يقول الصوت بتأثُّرٍ بالغ، مضيفًا أنَّه هكذا نُضحِّي لبناء المستقبل. مستقبل البشر. تقريبًا.

طيِّب. السمكة عادت لتبيض، من أجل بقاء النوع. لماذا عدتُ أنا إلى هنا؟ أتساءل وأنا أضحك لوحدي. أنا التي أعرف أنِّي لا بضتُ في الماضي كي أعود للاهتمام بذرِّيَّتي، ولن أبيض في المستقبل. أصلًا كيف لأيِّ ذكرٍ بشريٍّ وأنا في هيئتي هذه، هيئة المسخ، أن يُرسِل لي نداء الشبق الذي، كما عند الوعول، هو ما يستحثُّ الإناث على الإباضة. لا رسالة شبقٍ ستختلج في بطني. هذا مؤكَّد. لكن وفي الوقت نفسه لستُ متأكِّدةً من أنَّ كامل حكاية الحنين إلى مسقط الرأس فالصو.

أضحك من تشابيهي وأسلوبي الفريد في الرواية واستخلاص العبر. أضحك وأقول: خرا بالخلّ. خرا بالخلّ، كانت أمِّي تُعلِّق على ما لا يعجبها.

كان القطُّ ممدَّدًا على العتبة حين فتحتُ الباب لأخرج.

كنت سمعتُ طقطقة المصعد الكهربائيِّ فسارعتُ إلى ربط ركبتي المخلوعة بمزيدٍ من الخِرَق، فهي فرصتي لأنزل إلى الدكَّان إذ لم يَعُد عندي ما أقتات به سوى القليل.

لست، أو لم أعُد، ممَّن يشفقون على الحيوانات الجريحة. لا الحيوانات ولا غيرها من مخلوقات الربِّ الضعيفة. عجائز، أولاد، معوَّقين. هذه سُنَّة الحياة. سُنَّتها في السِّلم كما في الحروب. الحروب التي هي سُنَّتنا، الآن ومنذ الأزل وستبقى كذلك، ولولاها لانفجر الكوكب من حُبِّنا للحياة والتوالد.

وأنا، في القُرعة الكونيَّة، سحبتُ ورقةً خاسرة، وقعدتُ في الرُّكن المخصَّص لقسم الخسارة ولم أعترض. تكفيني شفقتي على نفسي، فلِمَ أنشغل بالإشفاق على غيري؟ شفقتي على نفسي تشغلني ليلًا نهارًا، فلا أسمع كمنجات الرابحين بالقُرعة تعزف للطيبة والمحبَّة والدفاع عن الدبِّ القطبيّ، وما شابه. لا عدالة على هذه الأرض. حتى أعتى القتلة يقول لك أن لا عدالة على هذه الأرض.

وهذا القطُّ المرميُّ هنا؟ قلت متأفِّفةً من حظِّي التعس في صباحي التعس. ماذا سأفعل بجيفته الثقيلة؟ ومن رماه هنا؟ وما هو القصد؟ ما هي الرسالة؟ هل هناك من أراد تخويفي لأُخلي الشقَّة كما في أفلام الغانغستر، خاصَّةً بعد أن رمَّمتُها ما جعلها صالحةً للسكن من جديد؟ أم إنَّها لعبةٌ قذرةٌ من ألعاب الأولاد الزهقانين عديمي التربية؟

قذفته بقدمي السليمة لأُبعده إلى فسحة السُّلَّم، فحرَّك أذنَيْه وأصدر حشرجةً تُشبه أصوات البشر. خفتُ منه. قلت سأتركه هنا ينفق لوحده. عدتُ إلى الداخل وأغلقتُ الباب. ذهب منظر هذا القطِّ بطاقتي القليلة وأضاع عليَّ وقتًا ثمينًا، إذ خشيتُ ألَّا تترك لي الكهرباء فرصة استعمال المصعد لدى عودتي من الدكَّان. فلا أحد يعرف توقيتًا للتيَّار، والناس تستعين بالموتورات في الحدِّ الأدنى، للإنارة وتشغيل البرَّادات ورفع الماء إلى الطوابق العليا. لكنَّ المصعد... في بناية فقراء كهذه...

خسارة! كان صباحًا خريفيًّا لطيفًا رائقًا، وقد كسر الهواءُ سُمَّ قيظ الصيف الذي خنق البشر.

ماذا أفعل الآن؟ أنتظر متبطِّلةً هكذا حتى ينفق، فيلُمَّه أحدٌ من أمام بابي؟

ثم جلستُ على الكنبة وراحت تراودني تلك الحكايات التي تُروى عن القطط، من أنَّها تموت ثم تعود للحياة مرارًا لأنَّ لها أرواحًا كثيرة، سبعًا أو تسعًا. سأنتظر إذًا طويلًا، حتى تنفق أرواحُ هذا القطِّ كلُّها. ثم إنَّ القطط قادرةٌ على الرؤية في الظلمة، بل هي ترى ما لا يراه البشر من أسرارٍ وأرواحٍ وأشباح. وقد يكون هذا القطُّ أمام بابي عارفًا بما يمرُّ في رأسي من أفكار. وقد يخطر له أن ينتقم، هو أو إحدى حيواته، منِّي.

نظرتُ من عين الباب الزجاجيَّة. كان ما زال هناك. جررتُه إلى الداخل وأغلقتُ الباب. قلت لي فيه ثواب. كان مبلولًا فوضعته على ممسحةٍ ناشفةٍ وغطَّيتُه بأوراق الجرائد كي لا أراه. فأنا أجمع الجرائد القديمة من الشوارع لتساعدني في إشعال الفحم في الموقد الذي صنعته من علبة حليب نيدو كبيرة، ثقبتُ جوانبها ورفعتُ قاعدتها على قطعة صفيحٍ ربطتها على حوافي بابور السبيرتو بسلكٍ معدنيّ. فتيلة البابور الصغير كافيةٌ لتجمير الفحم. هكذا أصبح عندي موقدٌ يكون مدفأةً في أيَّام البرد، وأستعمله للتسخين. فالغاز نادر الوجود في السوق، وهو غالي الثمن. ثم من سيحمله إليَّ في قارورةٍ تزن خمسة عشر كيلو، تقريبًا، على الذمَّة؟

هواجسي كثيرة. أحيانًا تسلِّيني، وغالبًا تُحدِث في رأسي قرقعةً غير مفيدة.

توقَّفتْ طقطقة المصعد. راحت الكهرباء.

جررتُ الممسحة بما عليها إلى جانب الموقد علَّه ينشف بسرعة، بما أنَّه ما زال فيه رمقٌ ولم يمت ميتاته الكثيرة. سطح الجرائد يتحرَّك ببطء. هذا يعني أنَّه يتنفَّس. أقلَّه بين وقتٍ وآخر. خطر لي أنَّ هذا القطَّ ربَّما كان يعيش هنا في هذه الشقَّة، مع أمِّي. لم تكن أمِّي تحبُّ القطط أو الكلاب، لكنَّها قد تكون تغيَّرت في غيابي. مؤكَّدٌ أنَّها تغيَّرت في حياتها هنا، في هذه الشقَّة البشعة والقذرة رغم كلِّ ما قمتُ به من تحسيناتٍ وتنظيف. ومن الصعب أن أخمِّن كيف كانت قبل أن تسكنها تلك العائلة الصغيرة التي لجأت إليها ثم تركتها على عَجَل، أي بعد أن تركتها أمِّي. كيف كانت هذه الشقَّة خلال إقامة أمِّي فيها؟

تقول الجارة إنَّ الوالدة كانت صعبةً اللّـه يرحمها، لا تفتح بابها لأحد، ولا حتى لمن أراد الاطمئنان عليها أو مساعدتها. أستغربُ كثيرًا. كيف تخلَّت أمِّي عن دماثتها الاجتماعيَّة وعن تهذيبها ولو مفتعلًا؟ كيف لا تفتح لمن يطرق بابها؟ هي التي كانت تستقبل شهود يهوه، وحين تضيق بهم تطردهم قائلةً إنَّها تحترم عقيدتهم التي تبشِّر بمكافأةٍ مزدوجةٍ في الآخرة لمن يتمُّ طرده منهم من البيوت، بشهادة ما ينفضونه عن أحذيتهم من غبار. لا تنسوا نفض أحذيتكم. مع السلامة.

أمِّي التي، ولو بهدلتْ محدِّثها، إنَّما تفعل بدبلوماسيَّةٍ وتهذيب، وفي نيَّتها أن تزيد بذلك من تحقيره، في توسيع الهوَّة بينهما. حتى خوري الرعيَّة الشديد الفخر والسطوة، قالت له علنًا، بالصوت المسموع وفي باحة الكنيسة المكتظَّة بعد قدَّاس الأحد: عيب يا أبونا. عيب هذه العظة. عيب علينا جميعًا. المسيح كان فلسطينيًّا. معتَّرًا وفقيرًا واضطُهِدَ حتى الصَّلب. تعالَ نصلبهم ثانية، جميعهم وعن بِكرة أبيهم، وننتهي من كلِّ مصائبنا دفعةً واحدة. عيب. يا لطيف. فوجئ الخوري وتلعثم. وفوجئ أكثر من أناقة أمِّي بفستانها الأزرق ذي الوردة البيضاء، يلامس كتفَيْها شال الحرير. قال لها مدام، ابنتي، سوف أزوركِ انشاللّـه ونتحدَّث مطوَّلًا وبهدوءٍ عن تاريخ بلدنا الحبيب وما يعانيه. عاجلته أمِّي رافعةً يدها في وجهه: لا لزوم أبونا. لا تُعذِّب نفسك. ثم انفتلت على كعبها العالي وأضافت: هذه ليست كنيسة، ليست بيت يسوع. الحقُّ عليَّ لأنِّي جئتُ إلى هذا المكان.

وإذ تقول الجارة عن أمِّي الصعبة «الوالدة» أو «الحَجَّة»، أفهم أنَّ أمَّ منصور مسلمة، ومن لهجتها أنَّها فلسطينيَّةٌ أو ربَّما سوريَّة. لكنِّي أستبعد تمامًا أن تكون أمِّي قد تحوَّلت خلال إقامتها هنا إلى كائنٍ متعصِّبٍ عنصريٍّ كارهٍ للغرباء لا يفتح لهم بابه. وأتمنَّى أن أجد طريقةً لأشرح لأمِّ

منصور أنَّ أمِّي ليست على ما قد تفسِّره الجارة من سلوكها الذي تصفه بالـ«صعب». خاصَّةً أنَّ أحدًا لا يكلِّمني أو يشفق عليَّ غيرها، رغم ما يُعرِّضها ذلك من تعنيف زوجها الصريح الذي لا يداري.

أمِّي تغيَّرت في غيابي. لا بدَّ. وقد تكون آوت هذا القطّ، وهو الآن يعود بعد أن مزَّقته الشوارع ليأوي تحت سقفٍ يعرفه. مثلي ربَّما. ومثلي يشعر باليُتم بعد موت أمِّي. قد تكون أمِّي استأنست به في كآبتها ووحشتها بعد أن تركت بيتها الجميل. الآن أعرف ممَّا تركتْه لي من مالٍ في البنك أنَّ مالك بيتنا القديم دفع لها تعويضًا ماليًّا لتترك مأجورًا صار مردوده أقلَّ من تكاليف صيانته، فباع البيت لمن بنى تلك البناية الفارهة الجديدة مكان بنايتنا.

الآن ماذا أفعل بهذا القطّ؟ لا أحد يدري متى تعود الكهرباء.

ربَّما، ربَّما صارت أمِّي قاسيةً ومنعزلةً ولئيمة. أنا أيضًا أصبح كذلك حين يشتدُّ عليَّ الألم. تصبح رؤية الناس أو سماع أصواتهم عذابًا خالصًا. أوجاع جسمي تخرِّب أفكاري وكلامي، وتبثُّ في أعصابي عنفًا وعدائيَّة. والآن، مع ركبتي التي انخلعت يوم العصف الفوسفوريِّ العظيم، تحوَّل نخاعي إلى مزيجٍ من سوائل الأسيد والأحماض المتنافرة، تخبط في دمي كأمواجٍ متلاطمةٍ أو كمعادن تفرقع بشراراتٍ حارقة، كما عند لحَّام الأوكسجين في كاراج الحدادة على رصيف بنايتنا.

لا أدري لماذا تكون أمِّي قد أغلقت بابها بوجه الناس، لتفتحه للحيوانات الشاردة.

قرَّبتُ من رأسه صحنًا فيه حليبٌ دافئٌ فلم يتحرَّك. رفعتُ عنه الجرائد لأرى إن مات. وجدتُ أنَّه يتنفَّس. ركَّزتُ نظاراتي على أنفي

فانتفضت أحشائي تقزُّزًا. كان ينزُّ دمًا لزجًا من فمه، وأيضًا ممًّا تبقَّى من قدمٍ مقطوعة. قلت إنَّ نهايته قريبة، ولا شيء أستطيعه له سوى انتظار أن ينفق. أردتُ إعادة تغطيته بأوراق الجرائد فانقلب على ظهره. عينُه اليمنى مفقوءةٌ ويغطِّي محجرَها جلطةُ دمٍ متخثِّر.

تقيَّأتُ ما في بطني في كرسيِّ الحمَّام وعدتُ إليه. أمسكتُ بطرف الممسحة لأجرَّه إلى سفرة السُّلَّم، فشخط فيَّ رافعًا رأسه في وجهي. هربتُ منه، دخلتُ غرفة النوم وأغلقتُ بابها.

هذا القطُّ المتوحِّش لا يبدو أليفًا ليعيشَ مع أمِّي. لعلَّه قطٌّ شرسٌ محارب، خاض معركةً ضاريةً وخسرها. تجمَّعت ضدَّه قططٌ أقوى منه، وكان وحيدًا فأخذته النخوة ولم يهرب. أو إنَّه أعدَّ العدَّة مع رفاقٍ له، لكنَّ ميزان القوى جعل رفاقه يتخلُّون عنه تاركين البطل في الساحة وحيدًا. هكذا هي قوانين المعارك. أو إنَّهم الأولاد، تفنَّنوا في تعذيبه كدورةٍ تأهيليَّةٍ لمستقبلهم كمقاتلين.

كان عليه أن يهرب. في كلِّ الأحوال كان عليه أن ينجو بجلده. إنَّه قطٌّ ساذج، والأرجح أنَّه غرِّير لا خبرة له... فهو، ولو كان إلهًا عند شعوبٍ قديمة، فالآلهة هي أيضًا تقع في سوء التقدير، كالقادة والشعوب المتحمِّسة. ثم تدفع الثمن. وهناك من يدفع الثمن، خاصَّةً من الشعوب، من دون أخطاء واضحة، إذ تدخل في برجه حسابات الأفلاك والكواكب، وصُدَفٌ وحظوظٌ وأقدارٌ وطوالع... شعوبٌ نجمها خفيفٌ ولا تنفع مع مصائبها الرقية... وهناك شعوبٌ قد لا تظهر نهائيًّا على الروزنامة، ولا حتى في نشرات الطقس فـ...

إلى متى أبقى أنا في الغرفة؟

لماذا شخط فيّ. عوى بالمقلوب كذئب. ربَّما خاف منِّي. من منظري وشكل وجهي. أم خاف منِّي لأنِّي شخصٌ غريبٌ ولست أمِّي؟

لم يمت القطّ، وتبيَّن أنَّها قطَّة. أمُّ منصور عرفتها، وقالت إنَّها كانت تلفي على أمِّي. تغيب ثم تعود. تختفي لأيَّامٍ أو حتى لأسابيع، ثم ترجع إلى عند الحاجَّة فتفتح لها حال أن تسمع مواءها وراء الباب. رحمها اللّـه.

بعد أقلَّ من شهرٍ راحت القطَّة، إذن، تتنطَّط في البيت، ناسيةً أنَّ قائمةً تنقصها كأن لا حاجة لها بها. حتى إنَّها لا تُحرِّك رأسها لتنظر إلى جهة عينها المطفأة، كما يفعل منطقيًّا مخلوقٌ أعور. كان يتهيَّأ لي أنَّها قطَّةٌ سعيدة، رغم نفورها منِّي وابتعادها المستمرِّ عن الركن الذي أشغله في الشقَّة. كانت تتوقَّع أن تجد أمِّي، لا هذا الكائن المسخوط الذي هو أنا. رغم ذلك اقتربت منِّي ذات يومٍ وهي تجرُّ سلسلةً كنت أدخلت نظَّارتي في طرفَيْها ألفُّها حول رقبتي، ثم أضعتُها. برافو، قلت لها، وفَّرتِ عليَّ ساعاتٍ من البحث المضني. لكنَّها لم تتركْ لي السلسلة، التي لم أستردَّها إلَّا حين ضجرت القطَّة من لعبتها تلك.

تتجاهلني القطَّة. أعتقد أنَّها لا تحبُّني، فهي لا تلتفت أبدًا ناحيتي حين أكلِّمها، ولا تظهر حين أناديها بصوتٍ أجعل له موسيقى حنونًا، وتبقى على جفائها. لكنَّها تقبل بإقامتي معها في بيتٍ واحد. لا تحبُّني لكن لها مصلحةٌ في سكناها معي، فأنا الكائن الذي يُطعمها. وأنا من يفتح لها باب البلكون لتشرب أو تتغوَّط في كرتونة الرمل الذي أغيِّره بانتظام. ربَّما ستحبُّني يومًا.

حتى جاء يومٌ صارت تبحُّ في وجهي بمواءٍ غريب. لم أفهم ماذا تريد، فهي لا تردّ. ثم صارت ترفض الأكل وتبتعد عن قصعتها، حتى

حين أملأها بكبدة الدجاج وهي وجبتها المفضَّلة. أقعتْ قرب الباب وهي لم تكن تفعل، وخوفًا كانت تبتعد إلى الداخل حين أهمُّ بالخروج. صارت تموء كأنَّها تعوي. طال بي الأمر قبل أن أفهم أنَّه عواء الشبق، تردُّ به على نداء الذكور في الشارع أو على مزابل البورة القريبة. رفضتُ أن أفتح لها الباب. قلتُ لا. لن تخرجي. لا نريد جراءً هنا. سيقتلونك هذه المرَّة وأنت عرجاء وعوراء. ثم من سيشتهيكِ أو يقربك من الذكور وأنت بهذه الخلقة البشعة، وأنتِ مثلي هكذا؟

لكن من قال إنِّي أعرف بأمور الذكور والجنس أكثر من هذه القطَّة؟ فلطالما تساءلتُ، مثلًا، كيف ينتصب عضو المقاتل حين يغتصب نساء العدوّ؟ لا يكفي قرار الانتقام. على آلة الرغبة أن ترفع الشهوة لتضخَّ الدم في العضو الذكريّ. أن تمحو الكراهية ولو للحظة. أن ترى ما هو شهيٌّ في قباحة امرأة العدوّ، القبيحة بالضرورة. من دون أن تشمَّ رائحتها الكريهة بالضرورة. من دون حتى أن تتأكَّد إن كانت جسدًا حيًّا أو جثَّة. أو لعلَّ الكراهية تكون الرافعة الأقوى للرغبة. من يدري؟

الشهوة سرٌّ عظيم. يعرف الذكور الميكانيكا الخاصَّة بعضوهم، والتي لا يعرفها سوى الحيوانات. بعض ذكور الحيوانات لا كلُّهم. الأقليَّة منهم، على ما أعتقد.

الشهوة سرٌّ عظيمٌ من أسرار الكون. ومقوِّمات التستوستيرون، كيمياء الخصيتَيْن وخُلاصة الذكورة، تعرفها القطَّة أكثر منِّي. وهي مستمرَّةٌ بالفحيح قرب الباب، تنظر إليَّ بشزر.

كانت أمِّي تعرف.

كانت أمِّي تعرف كلَّ شيء. وهي تستعمل نسيانها كما تستعمل خرفها.

كتبت أمِّي في أعلى صفحة الجريدة: خرا بالخلّ.

العنوان العريض يقول: أكروميغاليا، أو مرض التضخُّم والنموِّ السريع. وتحت العنوان صورٌ لأناس، لرجالٍ ونساء، متشابهين في سحناتهم وفي هيئات أجسادهم، ويشبهونني.

كانت أمِّي، حين لا يعجبها تشخيص الطبيب، تقول إنَّ الأطبَّاء يخطئون كثيرًا. فالطبُّ لا يستند برأيها إلى علمٍ نهائيٍّ وثابتٍ بالقطع كالحساب، بما أنَّه يرتبط بالاكتشافات المستمرَّة. ما يعني أنَّ معرفتهم مرحليَّة، وقد يغيِّرون علاجاتهم وأدويتهم بحيث يصبح دواء الأمس مُضِرًّا، إن لم يصبح سُمًّا. فكلُّ اكتشافٍ مخبريٍّ جديدٍ فعلًا يكذِّب ما سبقه، ويلغي ما كان أُشِيع عن فوائده.

فليكن. لكن لماذا احتفظت أمِّي بمزقة الجريدة هذه وقد طوتها بعناية؟ هل تكون نسيتها أو أضاعتها بين غيرها من الأوراق وتاهت عنها تمامًا؟

كانت تعرف كلَّ شيءٍ عن مرضي، منذ نفر لي ثديان صغيران وبدأت تظهر علامات بلوغي، ولم يَعُد ينفع تدليك ركبتَيَّ بزيت الزيتون الدافئ لتخفيف الألم. أخذتني إلى الطبيب، فطمأنها إلى أنَّ آلامًا كهذه تحدث لمن هم في مثل عمري ولو بنسبٍ متفاوتة، وهي آلامُ مرتبطةٌ بالنموّ. آلام النموّ، يُقال لها.

لكنَّ أمِّي لم تقل للطبيب كلَّ شيء. لم تقل ما كان يخيفها فعلًا. لم تقل إنِّي بدأتُ أحيض في عمري المبكِّر جدًّا، وإنَّ شكل حلمتَيْ ثديَيَّ كان متكوِّرًا وأزرق اللون كتينتَيْن عَجِرتَيْن، أو كدملتَيْن تنزَّان حليبًا. وأنَّ أطرافي تتضخَّم سريعًا، بحيث صار مقاس أحذيتي يقفز قفزًا، فنشتري حذاءً جديدًا كلَّ شهرَيْن تقريبًا. وليس باستطاعة الطبيب أن يرى أن يديَّ ضاعفتا من غلاظة أصابعي. لم تشكُ أمِّي من التواء وتقوُّس عظام ظهري بفقراته وضلوعه، ولم تقل له عن بداية عرجي الخفيف في مشيتي. وهو قال إنَّها آلام النموّ، فهزَّت أمِّي رأسها وابتسمت له وشكرته. ولم نَعُد لزيارة الطبيب مجدَّدًا.

رغم معرفتها، كانت أمِّي لا تتوقَّف عن صراخها بأن: جلِّسي ظهرك، سيري مستقيمة، كُفِّي عن مشية الدلع كبنات الشوارع. ارفعي ذراعَيْك إلى فوق رأسك ليخفَّ تورُّم أصابعك المخنزرة.

ثم بدأت عظام رأسي تكبر على غير اتِّساق. ذقني يبرز بقوَّةٍ وفكَّاي صارا كفكَّيْ رجلٍ تجاوز المراهقة، مباعِدًا ما بين أسناني. عظام الحاجبَيْن انتفخت كما عند القردة، وتكوَّرت جبهتي وتحزَّزت كطابةٍ مبعوجة، وفقد صوتي نعومة صوت البنات. تكثَّف وبر ذقني وشاربي، وصار شعرًا سميكًا كإبرٍ صغيرة.

حرامٌ أمِّي. حبيبتي. مسكينة. كان ذلك فوق طاقتها. كانت تتعذَّب أكثر منِّي من بلوتي. فأنا لا أرى نفسي في تغيُّرها بالقدر الذي تراه هي. فإن أنا قرَّرتُ ألَّا أنظر في المرآة فهي لا تستطيع أن تتوقَّف عن رؤيتي وأنا أمام عينَيْها ليلًا نهارًا، وقد توقَّفتُ عن الذهاب إلى المدرسة. أنا لا أغيب عن ناظرَيْها، ولو أنَّها باتت تخرج من البيت مُددًا أطول، وتنام في غرفتها بالساعات. تقفز من سريرها، تضيء النور ولو كنَّا في النهار، وتتفقَّدني. تبحلق فيَّ بعينَيْن مشدوهتَيْن كمَن يستيقظ من كابوس. ثم تغلق باب غرفتي وتختفي، ولا أعود أسمع خطاها في البيت.

لا أعتقد أنَّ أمِّي كانت سعيدةً بإنجابي. وهي كانت تقول ذلك علانيةً لتُبرهن للناس كيف أنَّ جمالي غيَّرها. كيف كنت، طفلة، أضيء غرفة الحاضنات بين عشرات المواليد، فيهرع الأطبَّاء والممرِّضات إلى غرفة أمِّي لتهنئتها، وللقول إنِّي أشبهها. وأمِّي التي لا تحبُّ التواضع الكاذب كانت تروي للمهنِّئين فزعها من الحمل ومن الولادة، وخاصَّةً من الرضاعة. كانت تقول إنَّ كلَّ هذا كان يقرِّبها من حالة البقرات، وإنَّه ليس في إنجاب الأولاد أيَّة ميزةٍ أو استحقاق، إذ إنَّ كلَّ الحيوانات تحمل وتلد. ثم تضيف أنَّها حالما رأتني أصبحت أمًّا. حالما رأتني بجمالي هذا.

لم تكن أمِّي تقول إنِّي لست وليدها الأوَّل.

قبل أن أصل إلى الحال التي أنا عليها الآن قرَّرت أمِّي ألَّا تراني.

مذ بدأت أمِّي ترى أنِّي لست هند، ابنتها البكر، قرَّرت ألَّا تراني وألَّا يراني أحد.

لم تنتظر حصول ما كانت تعرف أنَّه سيحصل. كان ذلك فوق طاقتها. لم تنتظر أن أشبه صور الجرائد تلك، ويصير رأسي وجسمي إلى ما صارت إليه تلك الصور من القباحة، من أشكالٍ متشابهةٍ تجعل

الناظر إليها يعتقد أنَّ هؤلاء البشر إخوة، بل هم توائم ومن بطنٍ واحدة. شبهُ يجعل التمييز بين النساء والرجال أمرًا عسيرًا.

رحتُ أبكي. أتسمَّر عند كلِّ درجةٍ متشبِّثةً بالعارضة، وأمِّي تصرخ فيَّ مقرِّبةً رأسها من رأسي. تحاول فكَّ أصابعي بالقوَّة، إصبعًا وراء إصبع، عن عارضتَيْ السُّلَّم الخشبيّ. تريدني أن أصعد إلى الكوَّة التي تُفضي إلى العليَّة. كانت تصرخ قائلةً إنَّ وباءً ضرب الكرة الأرضيَّة، وهي تريد أن تحفظني من العدوى. أطعتُها وصعدتُ من نفسي الدرجات الأخيرة حين صارت تبكي وتجهش بين الكلمات والصرخات. أريدها أن تتوقَّف. أريدها أن تكفَّ عن البكاء وعن تعذيب نفسها.

أحاول الآن أن أتذكَّر كم من الوقت بقيتُ هناك، كم من الوقت عشتُ في عليَّة مطبخ بيتنا، فلا أتذكَّر.

العليَّة واسعةٌ كغرفة نومٍ كبيرة، لكنَّها منخفضة السقف ككلِّ العليَّات في البيوت القديمة. جعلتْها أمِّي مكان إقامةٍ مريحًا. فراشٌ وثيرٌ ونظيف، وملاءاتٌ قطنيَّة، وشراشف ملوَّنةٌ وبطَّانيَّةٌ صوفيَّة. مناشف بعدَّة مقاسات، صابونٌ معطَّرٌ وشموعٌ ووسائد. أوعيةٌ معدنيَّةٌ تحفظ الماء الساخن، وأخرى بلاستيكيَّة خفيفة للشرب أو التبوُّل. ورق لعب، دفاتر وأقلام، وأيضًا بعض الكتب، المدرسيَّة خصوصًا.

كلُّ ما يلزمني وكلُّ ما أطلبه، لكن ممنوعٌ عليَّ النزول. فهي لم تنسَ يومًا إبعاد السُّلَّم عن باب العليَّة الصغير، وأنا لم أحاول.

لماذا قد أحاول النزول، أو الهرب؟ كنت مرتاحة، وإلى حدٍّ ما سعيدةً هانئةً في عليَّتي، حيث توقَّف تعذيبي لأمِّي وقلقها عليّ، أكان بسبب الوباء الذي كانت تتكلَّم عنه أو من دون الوباء. كانت العليَّة مكانًا

جميلًا وملائمًا، وصرت أراعي أمِّي بأن أبتعد عن الفتحة لأُجنِّبها رؤيتي وسوء حالي المستمرّ. أرجع إلى الداخل حين تصعد السُّلَّم وتحمل لي الأكل أو الأشياء التي أحتاجها أو أطلبها. وقد أطلب منها أحيانًا أغراضًا لا حاجة لي بها، أقول إنَّها تُسلِّيني لتشعر أمِّي بأنَّ لديَّ ما يُمتِع ويملأ الوقت، وأفرح حين تأتيني به بصوتٍ مسموع. كذلك أفعل حين تحمل إليَّ صينيَّة الأكل التي تحرص أمِّي على ترتيبها، وقد تضيف زهرةً جميلةً أو قطعة حلوى تعرف أنَّها من حلوياتي المفضَّلة. تنتظر في أسفل السُّلَّم الخشبيِّ لتسمعني أهلِّل للمتعة المقبلة عليَّ من تحت، وأتلمَّظ وأشكرها، ثم تخرج من المطبخ.

كنت من عليَّتي أسمع الراديو غير البعيد، الذي يعمل على البطَّاريَّات، أو التلفزيون حين تأتينا الكهرباء التي صارت غالبًا ما تكون مقطوعة. تُخفِض أمِّي الصوت حين تكون أخبار البلاد مقلقةً أو مخيفة. ورغم أنَّ زوَّارنا أصبحوا قليلين، ما زالت أمِّي تستقبل بعض الجيران. ولمن يسأل عنِّي، تقول أمِّي بفرحٍ ممزوجٍ ببعض الحسرة إنَّها أبعدتني عن بلد الشقاء والحروب، فأرسلتني إلى أختها في فرنسا، حيث سيتوفَّر لي التعليم الراقي الذي أستحقُّه، إلى جانب الأمان والحياة الرغيدة. أمَّا لأخيها الذي فوجئتُ جدًّا بزيارته، والذي يعرف أن لا أخت لها، لا في فرنسا ولا غيرها، فقالت إنَّ إحدى عمَّاتي أخذتني معها إلى قريتها البعيدة الآمنة في الجبل العالي الذي لا تطاله المعارك. ثم راحت تؤنِّبه لأنَّه لا يأتي للسؤال عن أحوالها.

ولمن يسأل عن أحوالي في فرنسا من الزوَّار المقرَّبين القلائل، كانت تقول: تكبر طبعًا، تتفتَّح كالوردة في الهواء النقيّ. أتأمَّل صورها ولا أصدِّق. تزداد جمالًا يومًا بعد يوم. لا لا إنَّها أجمل منِّي بكثير. اللّـه

يحقِّق أمنياتي، إذ ماذا تتمنَّى الأمُّ سوى أن تكون ابنتها أجمل منها؟ الجمال ليس لنا فضلٌ فيه. الجمال ليس كلَّ شيء.

ثم لم تَعُد أمِّي تفتح الباب لأحد، مهما قويت طرقات الأيدي أو علت أصوات السائلين. وحتى تُبعِد الشكَّاكين والحِشريِّين، كانت تردُّ من خلف الباب بأنَّها تستحمُّ وأنَّها بألف خيرٍ ولا تستطيع فتح الباب، ثم تعتذر بصوتٍ متعجِّل. وأنا صارت آلام جسمي أقوى من خجلي من أمِّي، أطلب المزيد من الأدوية ومهدِّئات الوجع بالصوت العالي المُشتكي واللجوج. وهي بدأت تتأفَّف، تقول إنَّ الأدوية مقطوعة، ثم راحت تغلق باب المطبخ حتى لا تسمعني.

ثم صرتُ أفضِّل أن تنساني، وأخاف كثيرًا أن تنساني فعلًا بعد أن باعدتْ ما بين أوقات تفقُّدها أحوالي. وصارت تمضي الساعات الطوال قبل أن أسمع حركتها في البيت، عدا عن نسيانها أدويتي.

وفي إحدى ليالي القصف والكهرباء مقطوعةٌ رحتُ أنصت بهلع، وأناديها، لكنَّ البيت بقي غارقًا في الصمت، عدا أصوات القذائف. خمَّنتُ أنَّها نزلت إلى غرفة عدَّادات الكهرباء في الطابق الأرضيّ، والتي نسمِّيها الملجأ. وحين لم ترجع في الصباح، ولا في الصباح التالي، قلت إنَّها ربَّما ماتت، أو إنَّها نسيتني. نجحتْ في نسياني والتخلُّص من همِّي. وصرت أبكي بحرقة. ثم صرت أشرق بدموعي بمزيجٍ من الرعب والفرح. ليس فرحًا، بل هو أملٌ بالانعتاق والخلاص. خلاصي منها وخلاصها منِّي.

فكَّرتُ بالقفز من العليَّة إلى أرض المطبخ. ولو تكسَّرت عظامي فسأزحف إلى الشارع حيث تمرُّ سيَّارات الإسعاف، أسمع صفَّاراتها

تختلط برنين أجراس الكنائس، فتلمُّني واحدةٌ منها أو أزحف إلى الكنيسة القريبة، المفتوحة على ما تعلنه الأجراس، ما يعني أنَّه، على الأرجح، يوم أحد. بعدها سأهرب ولن تجدني أمِّي. هذا إن هي بحثت عنِّي أصلًا. سأهرب، ولن أعطي اسمي الحقيقيَّ في طوارئ المستشفى التي سيحملونني إليها، ولا في الكنيسة. سأعطي الناس اسمًا مزيَّفًا، والأفضل أن يكون اسمًا لمسلمة. هكذا يسلِّمونني للصليب الأحمر، فيأخذني إلى منطقةٍ بعيدةٍ من مناطق المسلمين.

لكنَّ أمِّي عادت.

رمت إليَّ بكيسٍ من أرغفة الخبز وفيه لوح شوكولاتة بالبسكوت، وكيس صغير فيه فستقٌ سودانيّ، وعلبة محارم ورقيَّةٍ معطَّرةٍ وتنكة كوكاكولا. قالت إنَّ الصيدليَّ وعدها بالدواء الذي طلبتُه منها، وستحمله إليَّ قريبًا. وقالت: ناوليني خردل الخراء فالرائحة لا تُطاق.

فرحتُ بعودتها. دحرجتُ حدبتي إلى قرب الفتحة، ونسيتُ من فرحتي بها حلمي بالهرب. لم تنسني أمِّي. تذكَّرتْ كم أحبُّ الشوكولاتة التي رحت ألتهمها بشهيَّةٍ كبيرةٍ من جوعي، وقد ذهب عنِّي القلق.

توقَّفت اللقمة في زوري حين قالت أمِّي وهي تغادر المطبخ: صحتَيْن يا هند.

ثم، بعد أيَّامٍ من التفكير، بدأتُ أرى أنَّ أمِّي حكيمةٌ جدًّا، وأنَّها حين تخلط بيني وبين هند تنقلني معها إلى حيِّز الحنان والرأفة. هذا يعني أنَّها تقرِّبني من بنتها التي تحبُّ لا أن تبعدني عنها، كما كان يخطر لي. فإن هي أرادت أن ترى هند فيَّ توجَّب عليَّ أن أساعدها في ذلك، لا أن أحزن على نفسي. وإن هي تخيَّلت أنِّي من الممكن أن أكون هند،

فسأسعى ألَّا تراني أنا بالمرَّة، وألَّا تسمع صوتي يئنُّ ويشتكي ويطلب أشياء.

ستسعد أمِّي بغيابي تمامًا عن عينَيْها، وسأسعد أنا أيضًا إذ سأكون هند.

فأنا أحبُّ الاثنتَيْن كثيرًا. واحدةٌ أعرفها قليلًا، والثانية ماتت قبل ولادتي. والأجدى ألَّا أعرفهما أكثر ممَّا ينبغي للمحبِّ أن يعرف. سأقضي أوقاتًا سعيدة. وسأذهب بحماسٍ إلى المزيد من الكتب والمجلَّات، وأقرأ بشهيَّةٍ مستحقَّةٍ ممَّا أجده في الكراتين المكدَّسة هنا، والتي لا تريد أمِّي أن تراها.

والتي هي على الأرجح من تجميع أبي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تروي أمِّي حكاياتٍ عن حياتها كمن يروي سيرة خوارق عاديَّة، فهي دومًا بطلٌ وحيدٌ بلا شخصيَّاتٍ ثانويَّة، من البداية إلى النهاية. لكنَّها، للضرورة، قد تأتي على أخبار أبي ولو نادرًا. تتعثَّر بأبي كراقصة باليه رموا تحت قدمَيْها سجَّادة، وهي كالمغزل تدور في الفضاء بخُفَّي الساتان، فنزلت على ركبتَيْها. أو هو يدخل هواء سمفونيَّاتها المُتقنة كذبابةٍ كبيرةٍ تطنُّ في الهواء وتكسِّر الإيقاع.

بحسب ما تحتاجه، أو بحسب ما يفاجئها به جمهورها، تستدعي أمِّي صورةً لأبي، الصورة الملائمة لحكايتها، وقد تتنقَّل بين صورٍ عديدةٍ ومتناقضةٍ أمام المستمع نفسه. مثل ذبذبات إبرة المحطَّات في راديو الترانزيستور الذي لا يفارقها، لا يهمُّها كثيرًا أن يكون البثُّ متماسكًا تلتقطه الأذن، أو حتى واضحًا مفهومًا.

أحيانًا تقول إنَّه خانها وهرب، مع امرأةٍ تصفها بسرعةٍ بأنَّها «من صنفه من البشر». وأحيانًا أخرى تقول إنَّه استُشهِد دفاعًا عن إيمانه، إيماناته، في معركةٍ ضاريةٍ شريفة الأهداف. وتختصر كثيرًا في شرح تلك الأهداف، مهما أوحت بأنَّها أهدافٌ ساميةٌ تستحقُّ المعارك والاستشهاد من أجلها. تختصرها بعنوانٍ عريضٍ واحدٍ هو حبُّ الوطن والتضحية من أجل المبادئ...

لا تأتي أمِّي مطلقًا على سيرة أبي بالكلام حين لا تكون في أحد أدوارها، ولا تسمِّيه أبدًا. أخمِّن أنا أنَّها تقصده حين يستوي مزاجها، وتروح تغنِّي لحبيبٍ غائب. أو حين، في تعسُّر أيَّامها، تصير تشتم القدر وتسبُّ الربّ. وقد تُعرِّج على الملائكة والقدِّيسين، بخاصَّةٍ هؤلاء الذين توحي قصصهم بالقدرة على التدخُّل للشفاعة ولا يفعلون. ودائمًا تكون الشتيمة بحسب شدَّة الظرف العسير. لا بدَّ، مثلًا، أنَّها أتت كثيرًا على روح أبي حين أفتى طبيب الأسنان بوجوب قلع كلِّ ما في فكَّيْها لاستبداله بطقم أسنانٍ اصطناعيّ. كانت ما تزال شابَّةً وجميلة، لكنَّ الأولويَّة كانت لقلبها الذي صار يعاني من التهابات اللثَّة. لم ينجح الطبيب في معالجة الالتهاب، الذي قال إنَّه ذهب عميقًا في عظم الفكَّيْن حتى فتَّته. ظلَّت تبكي ليلًا نهارًا لفترةٍ طويلة. تشكو من الظلم، تشتم وتسبّ، ثم تعود إلى العويل. كان أبي في الخلفيَّة أيضًا حين صارت تعاني من آلام احتكاك الأسنان الاصطناعيَّة باللثَّة الملتهبة، وهي لا تريد نزعها حتى لا ترى فمها الجميل فارغًا، غائر الوجنتَيْن كأفواه العجائز. ثم اشتدَّت علينا ـ أنا وأبي ـ فصول المأساة قسوةً حين لم يَعُد باستطاعة أمِّي أن تُغنِّي، بسبب اهتزاز الطقم الاصطناعيِّ الذي، حالما شفيت الالتهابات وتوقُّف الألم، صار يهتزُّ على اللثَّة من فوق ومن تحت، فلا تأمن استقراره في فمها حين تشرع بالغناء. كان ذلك أفظع من أيَّام توقُّف حيضها، عليَّ وعلى «روح» أبي.

رغم نضالها العنيف والمستمرّ تقع أمِّي في حفرة أبي، لكنَّها سرعان ما تنتصب واقفة، نافضةً التراب عن أطراف ثوبها. انتصارًا وراء انتصار... هكذا أبقتني بعيدة، ولم أستطع تجميع أيٍّ من ملامحه. حتى شذرات ذاكرتي عن أبي بعثرتها حكاياتُها، وطمست غبار ذرَّاتها.

أين كان أبي؟ أين وقف، مشى، تحرَّك، نام، دخَّن، أو أخذته نوبة سعالٍ أو نوبة ضحك؟ أين أبي؟

كان توقُّف أمِّي عن الغناء محطَّةً سوداء في حياتها، وفي حياتي.

كان يُحزنني كثيرًا أن أسمعها تدندن كعصفورٍ جريح، ولا تقوى على فتح فمها وإطلاق صوتها بالأغاني. طقم الأسنان الاصطناعيّ فعل أكثر من توقُّف حيضها، على عكس ما توقَّعتْ وخشيتْ منه. حتى بدا لي أنَّها، بشيءٍ من القبول المريح، تخلَّصت من مصائب بقع الدم في أسفل قمصان نومها، ومن عودتها حانقةً من السوق، مسرعةً إلى الحمَّام لتغتسل وتغيِّر ملابسها الداخليَّة، ثم تعود راكضةً إلى إكمال مشترياتها. لا أتذكَّر أنَّ أمِّي كانت تعاني من آلام الحيض، ولا أتذكَّر أنَّها عانت من هبَّات انقطاعه الساخنة، تلك التي توصف بالرهيبة. ومع أنَّها كانت في الأربعينيَّات من عمرها، إلَّا أنَّها فرحت بعودة جسمها نظيفًا كجسم البنات الصغيرات. نظيفًا بقدر ما تشتهي له أن يكون. جديدًا.

كأنَّ انقطاع حيضها كان حدثًا سعيدًا، صحوًا وانقشاعًا مباركًا في عاصفة الأيَّام الصعبة المُثقلة بالغيوم السوداء والرياح حاملة الأذية والنبوءات اللعينة. هذا إن لم أكن مخطئة، وأنا غالبًا ما أكون مخطئة في ذكرياتي. لكنَّ سكوت أمِّي عن الغناء، أتذكَّر جيِّدًا شقاءها به. كان فقدها صعبًا، وكنت شديدة الحزن عليها. وغيَّرها ذلك الحداد.

فأمِّي كانت تحبُّ الأغاني العاطفيَّة، وخاصَّة العربيَّة. وغالبًا ما كانت تكتب الكلمات لتعود إليها إذا ما تعثَّرت في الأداء. تغنِّي مع الأغنية، وأيضًا لوحدها. لكنَّها لا تغنِّي أبدًا أمام الناس. أعتقد أنِّي كنت جمهورها الوحيد. لا خجلًا من الناس، لكن استبعادًا لنظرةٍ فاترةٍ من أحد السامعين. وهي، إن غنَّت مواويلًا أو أغاني عاطفيَّةً عن لوعةٍ وفراق، أو هجران وظلم حبيب، تنتهي بها الوصلة إلى البكاء أو الشتيمة، وهي لا تريد أن يراها أحدٌ في مثل تلك الأحوال، إن بكت أو شتمت. تريد أمِّي إنهاء أدائها كمصارعٍ سعيدٍ بأدائه، لا يهمُّ إن هو ربح أم خرج مضرَّجًا بدمائه. وحيدةً في الغرفة الخلفيَّة للحلبة ودوشتها، قبل المباراة أو بعدها. وحيدةً ومتفكِّرة. فأمِّي لا تنظر إلى نتيجة معاركها وجهًا لوجه، لأنَّها، ببساطة، لا تعترف بالقوانين التي تحكم النتيجة، أيَّ نتائج، إن لم تكن هي نفسها من وضع القانون، أو من عدَّل فيه.

وأمِّي امرأةٌ حُرَّةٌ إلى أبعد الحدود. ربَّما لأنَّها وحيدة، وحيدةٌ في رأسها التي لا يحكمها أيُّ نظامٍ من خارجها.

ترفع إصبعها غاضبة، وتعلن أن ما من أنثى في البشر أو الحيوان بحاجةٍ إلى ذكَر. فرغم إجلالها للعلم وإكبارها للعلماء، تستطيع أمِّي تطويع النظريات لتلائم أفكارها، أو حاجتها. وهي تتحمَّس كثيرًا لما تسمِّيه «التطوُّر»، فتستنكر، مثلًا، استمرار التخدير الكيميائيِّ في العمليَّات الجراحيَّة، بعد أن أثبت التنويم المغناطيسيُّ فعاليَّته في الظروف نفسها.

وأمِّي لا تحبُّ الاختصاصات ولا تحترمها، وتصفها بالمُقصِّرة عن شموليَّة الإنسان، وهي تعتمد على المعارف العامَّة التي توثِّقُها في أرشيف قصاصاتها. فمرض باركنسون، الذي أصاب أخاها أو هي قرَّرت

ذلك، يؤدِّي إلى ضعف الإيمان باللّـه حتى عند الرهبان المتعبِّدين. ونقص التغذية وقلّة البروتينات تؤثِّر على جنس الكائن، بل إنَّها، ومن أجل استمرار النوع، تجعل المخلوق أيًّا كان يتوالد من ذاته، فيكون أنثى وذكرًا معًا. وما كان في الأصل أنثى يتمتَّع بقابليَّةٍ أقوى للازدواج، وبالتالي لتكوين عضوٍ ذكريٍّ يُلقِّح بويضاتها أو يساعدها في فرز هورمونات لتكوين الرَّحم. وحين عرفت بصيغةٍ قاطعةٍ بأنَّ الإنسان هو من الثدييات، فرحتْ جدًّا واعتمدتِ الصيغة فورًا، وراحت تستلُّها من مخزن أفكارها كلَّما احتاجت التركيز على مسائل معقَّدةٍ مثل الذكورة والأنوثة، أو في اعتراضها على تعاليم الكنيسة ورجال الدين المتزمِّتين. وحين تقسو في نقدها وسخريتها تحيد عن النظرية قليلًا خشيةً من حساب الآخرة الذي قد يلاقيها بعد الموت، إذ لا أحد يعرف، فتضيف: «لكنَّ الإنسان فيه من روح اللّـه. هذا مؤكَّد...». ومع الوقت صارت أكثر ميلًا إلى المهادنة، وإلى التقريب بين المتناقضات السابقة، فتقول مثلًا إنَّ الطبيعة الحكيمة أعطت نماذج رائعةً عن اهتمام بعض ذكور الثدييات بحفظ البيض وحضنه حتى يفقس، وحتى برعاية الأولاد حين تترك الأنثى العشَّ إلى غير رجعة. إذ هذا يحدث أيضًا، ينبغي الاعتراف... وفي توفيقيَّتها تلك قرَّرت أن تحبَّ اللّـه وتكره الكنيسة. تذهب إلى «بيته» لكن في غير أوقات القداديس. أن تُقدِّر بطرس وأن تكره البابوات، الذين تقصَّت عن تاريخ فسادهم ففازت بصفحاتٍ مهولة. وأن تحبَّ يسوع كثيرًا بمعزلٍ عن الأناجيل التي كتبها البشر، منتقدةً «الفسحة الضيِّقة» التي أُعطِيَت لأمِّه...

لم تَدُم خيارات أمِّي الحكيمة والمهادنة حتى آخر الأيَّام التي عشتها بقربها، فبدت أقرب للفنِّ منها للعلم، أو ما اختارته من إنجازاته.

عادت تحاول الغناء، ربَّما بعد أن اعتادت تحريك طقم الأسنان في فمها، كأنَّها نسيته، إذ راحت تجرِّب أصعب الأغاني من دون أن يكدِّرها النشاز. أمُّ كلثوم نفسها لم تَعُد تحدِّيًا ذا شأنٍ حين تكرِّر طيلة اليوم مقاطع من أغنية الأطلال. الأطلال بشكلٍ خاصّ، ليس من أجل تجنُّب النشاز، بل من أجل صرخة «أطلق يدَيَّ... ما استبقيتُ شيًّا». تتوقَّف حين تتعب، ثم ما تلبث أن تعود: إنَّني أعطيتُ ما استبقيتُ شيًّا... وأنا، في عليَّة المطبخ، أتساءل إن كانت تقصد أبي، لأنِّي لا أعتقد أنَّ أمِّي أحبَّت رجلًا بعده. أعرف أن لا فائدة من الاستفسار عن الماضي، ماضيها أو ماضي أبي الذي هو أيضًا ماضيَّ أنا. ستقول ساخرة: نييردنتال...

في العليَّة كان لديَّ الوقت الطويل للتنصُّت على أمِّي، وللتفكير والتأمُّل، لكنَّه لم يكن وقتًا مفيدًا في شيء، لا في التدريب على الحياة العمليَّة، ولا في السَّيْر على طريق الحكمة والفلسفة. لم يكن وقتًا مفيدًا سوى في قراءة بعض الكتب التي كانت مكدَّسةً في صناديق كرتونيَّة في إحدى الزوايا، رفعتها أمِّي لتُخفيها هناك من بيتها، ما كان يوحي لي بأنَّها كانت لأبي. لكن ما الذي تفيد به الكتب؟ كتبٌ متفرِّقةٌ لا يجمع في ما بينها اختصاصٌ أو نسقٌ أو هواية. فيها من الأدب بقدر ما فيها من مدوّنات الزجل، أو من قصص حياة المشاهير والسحرة المنجِّمين، مثل أسطورة داهش ومغامراته التي أفضت إلى سجنه قرب بيروت، حيث أطعم رفاقه برتقالًا في عزِّ الصيف القائظ. لا خسارة. كان ذلك مسليًّا إن لم يكن مفيدًا... كان وقت سكني في العليَّة وقتًا مسالمًا، مديدًا رائقًا، وأعلِّم نفسي خلاله ما أريد وعلى مزاجي، من الراديو والتلفزيون والكتب، ومن أوهام أمِّي وأحلامها المجهَضة، كما من نقاشاتها وأيضًا مخاتلتها. من كذبها وغنائها وحرِّيَّتها البديعة.

لم أكن أخاف حتى أثناء أشرس المعارك. سقف العليَّة القريب من رأسي كان يُشعرني بالأمان. لم أخف يومًا من الحرب. كنت أخاف من الاحتلالات، من أن يدخل أعداءٌ منتصرون إلى بيتنا ويعثروا عليّ. أن تتركني أمِّي وتهرب من دوني. أن تنسى قبل هروبها إلقاء الصليب إليَّ من فتحة العليَّة. ذلك الصليب المعدنيُّ الصغير الذي كان الضامن الوحيد لسلامتنا، إذ في تجويفةٍ سرِّيَّةٍ جُعِلَت في وسطه عودٌ من خشب صليب المسيح، ذلك الأصليُّ الذي كان على الجلجلة. لا تقول من أعطانا تلك الذخيرة المقدَّسة أو كيف هي وصلت إلينا، وهي التي ولو خرق الرصاص قلب حاملها فهو لا يموت إلَّا متى أُلقِيَت الذخيرة بعيدًا عن جسده.

في هذه الشقَّة لم أجد ذلك الصليب، لا على الحائط خلف سريرها ولا في أيِّ مكانٍ آخر، وهي لم تكن لتفارقه. كانت تُنزِلُه عن الحائط، تنظِّفه بقطنة السبيرتو، تقبِّله وتضمُّه إلى صدرها، وقد تعاتبه أو تخبره بأشياء سرِّيَّةً بصوتٍ منخفض، ثم تُعيده إلى مكانه.

لم أجده هنا. قد تكون حملتْه معها إلى المستشفى. نسيتْه هناك أو إنَّه ضاع.

وجدتُ أشياء عادت بها من المستشفى، مثل ضماداتٍ متناثرةٍ من دون علبها، وبقايا ناشفة من سوائل المطهِّرات، ملتصقة في أسفل القناني الصغيرة والقوارير. بعض لفَّات القطن والربَّاطات الماغطة. لكنِّي لم أجد الصليب. لا أتصوَّر أن تكون تركته في بيتنا القديم عند انتقالها إلى هذه الشقَّة. أم تراها قرَّرت أن تتخلَّى عنه. أن تكفَّ عن إيمانها بأيِّ شيء. يصعب عليَّ أن أتخيَّل أمِّي وقد أصبحت كافرةً فيما هي تقترب من الموت. أو أنَّها أصبحت كذلك بسبب غيابي وتخلِّيَّ عنها.

لم أجد الصليب الصغير. لكنِّي حين عدتُ للبحث عنه في رفّ الخزانة العالي، وجدتُ بين الشراشف، حيث اصطدمتْ يدي بالأيقونة الصغيرة وباقة الخزامى، وجدتُ صورةً فوتوغرافيَّةً صغيرة. صورةٌ مفتَّتة الزوايا لطفلةٍ جميلةٍ تشبه صور الأطفال على علب الحليب البودرة.

لم أكن رأيت هذه الصورة من قبل، لكنِّي عرفتُ فورًا أنَّها صورة هند.

أعود إلى هنا، إلى حافَّة هذا النهر الذي ليس نهرًا.

حافَّة النهر لا ضفَّته، إذ باتت المساحة بين مصطبة الصفصافة والمجرى الباطونيّ أقلَّ عرضًا. فالعصف الربَّانيُّ الذي ضرب البشر والحجر في الصيف الماضي، مزج في لحظةٍ العناصر الأربعة وخبطها ببعضها من المرفأ البحريِّ حتى هذه المصطبة، كاشطًا منها أمتارًا كثيرة. لا يبين ممَّا تراكم هنا أيُّ نوعٍ من أنواع الطاقة قد شفط التراب والهواء والمعدن والحجر، حتى صهر هذا كلَّه بنارٍ فوسفوريَّةٍ حارقةٍ قبل أن يطفئه ملح البحر بموجةٍ واحدة.

كنت صحوتُ تحت رُكامٍ من التنك والحصى وفتات الصخر والأسياخ المعدنيَّة. نمتُ تحتها ربَّما ليلةً أو أكثر في العتمة الكالحة. كان جهدي لرفعها عنِّي مستحيلًا. لم أستطع أن أرى إن كان ليلًا أم نهارًا، فالصمت مُطبِقٌ ولا ينفع أن أستغيث. زحفي من تحت ما تراكم فوقي كان صعبًا للغاية، إذ أدركتُ سريعًا أنَّ ركبتي اليُمنى انفكَّت وانزلق مفصلها الغضروفيّ، فباتت ساقي معلَّقةً بالفخذ بقطعةٍ من لحمٍ وجلد. مزقةٌ رخوةٌ تتحرَّك بين العظمتَيْن، فلا تنفع محاولاتي المُضنية في جرِّ جسمي إلى حيث قد يراني الناس.

أُغمي عليَّ مرارًا، لا بدّ. من حسن حظّي أنّه أُغمي عليَّ من شدَّة الألم. وحين أفقتُ في باحة مبنى ضخمٍ كانت شمس الظهيرة تشوي الناس. أعطوني ماءً ثم أبعدوني إلى طرف الساحة، فيما كانت صفَّارات سيَّارات الإسعاف تلعلع. فهمتُ أنّي في باحة مستشفى، إذ قال أحدهم إنَّ حالي ليست خطرة، وإنَّهم يهتمُّون الآن بمن هم على حافَّة الموت. غسلوا وجهي ولم ينفروا منّي. اعتقدوا ربَّما أنَّ هيئتي هي من أثر الإصابات والجروح، ولم يلتفتوا إلى ركبتي. ثم أعطوني ماءً مرَّةً أخرى حين حضر أحدهم وراح يقول فوق رأسي: هذا يمكنه الانتظار. اعتقدوا أنّي رجل. ثم رأيتُ أنَّهم يفحصون الرؤوس والصدور، ويربطون الأطراف التي تنزف بشدَّة، وهذه لم تكن حالتي.

في بهو المستشفى، حيث أدخلوني على كرسيٍّ عاديّ، كان هناك آثار دمارٍ أيضًا. وضعي على ذلك الكرسيّ كان يضاعف من آلامي، لأنَّهم لم يرفعوا ساقي التي تتدلَّى بثقلها فتزيد من تمزُّق ركبتي. قلت لنفسي إنّي يجب أن أصرخ بالصوت العالي، أن أزعق وأولول كما يفعل الجميع هنا، وإلَّا فلن يلتفتوا إليّ. اقتربت امرأةٌ تحمل دفترًا، وقالت: اسمكَ الكامل. ثم بحلقت فيَّ وابتعدت. عادت برفقة رجلٍ شابّ. قال لها إنّي امرأة، وإنّي حالة أكروميغاليا، وإنَّه ينبغي وضعي على حمَّالةٍ أو سرير والاهتمام بساقي، بركبتي. ثم بحلق في وجهها وزعق: ما الأمر؟ استغربتُ أن تخاف منّي هذه المرأة وهي ترى حولها ما يشيب له شعر الرأس.

قال الطبيب إنَّ ركبتي تتحسَّن وهي تستقرُّ في مكانها، وإنَّهم حسنًا فعلوا بعدم بترها، إذ لحسن حظّي لم أتأخَّر في المجيء وبقيت الأعصاب حيَّة. ثم قال: برافو.

بعد أيَّامٍ عاد برفقة ممرِّضةٍ كانت تغيِّر ضماداتي. هنَّأني مجدِّدًا على تحسُّن ركبتي وعلى أمورٍ أخرى لم أسمعها. كان يُعلي الصوت وكأنِّي طرشاء، وقال إنَّه سيأمر بخروجي بعد مراقبةٍ سريعةٍ لدقَّات القلب والضغط الدمويّ، وإنَّهم سيزوِّدونني بالأدوية التي أحتاجها؛ مضادَّاتٍ حيويَّةٍ ومضادَّاتٍ للألم وضماداتٍ ومطهِّرات، وإنَّهم في حاجةٍ للأسرَّة. وشكر تفهُّمي.

الجميع هنا، في الصالة الكبيرة حيث جمعوا الأسرَّة، الجميع يكلِّمون بعضهم بالصوت العالي، الأطبَّاء والممرِّضون والمرضى والزوَّار، ذلك لأنَّهم يفترضون أنَّ الانفجار أطاح لا بدَّ بدواخل الآذان، ففرَّت منها الطبلة كما تفرُّ الفلِّينة من غطاء القناني الغازيَّة. أنا لم أفقد طبلة أذني، وكنت أسمعهم يردِّدون الانفجار. الانفجار. أنصت من تحت الشرشف أريد أن أسمع وأفهم. أسأل الممرِّضات، أو من أخمِّن أنَّ لديْه القليل من الوقت، فيُجيب باختصار: جهنَّم. غضب الربّ. لعنة السماء. ثم في القفلة السريعة تأتيني التهاني: حظِّي عظيم. اللّـه يحبُّني. كنتُ لا بدَّ فاعلة خيرٍ فأتتني المكافأة. ثم الحكمة: واجبي أن أحمد اللّـه على سلامتي. أن أصلِّي طيلة حياتي. أن أستمرَّ بفعل الخير.

أعود إلى تحت الشرشف، وهو أصبح الآن من قماشٍ بعد أن كان ورقيًّا أبيض، أو من مادَّةٍ تشبه الورق، ولا يُستعمَل إلَّا مرَّةً واحدة. الآن لون الشرشف أصفر، وعلى طرفه أقرأ أنَّه منحةٌ من هولندا. من هولندا، هذا يعني أنَّ انفجارنا ملأ الدنيا، بما أنَّه وصل إلى ذلك البلد البعيد، الذي لم يكن يأتينا منه سوى الحليب والزبدة والجبنة، الصفراء هي أيضًا.

تحت الشرشف الأصفر أنسى ما حولي، وأصمُّ أذنيَّ عن الضجيج الذي لا يهدأ. ضجيج الناس من المهنِّئين يرفعون أصواتهم بصلوات الشكر، ومنهم من اصطحب معه خوري الرعيَّة يرش المكان بالماء المصلَّى عليه، ويرتِّل بلغاتٍ عديدة. وأصوات المسلَّحين يهدِّدون الأطبَّاء، وأحيانًا تعلو رشقات الرصاص لحثِّهم على الاهتمام سريعًا بمصابين حملوهم إلى هنا، وأصوات مصوِّري التلفزيون ومذيعي الأخبار يصرخون بأوامر بالعربيَّة والأجنبيَّة. ضجيجٌ مستمرّ. لغطٌ غير مفهوم، وكشَّافات الضوء تعمي الأبصار لضرورة تصويرنا بوضوح. حتى إنَّه ذات يومٍ دخل شاعرٌ راح يصيح في الصالة العموميَّة فعلا التصفيق، وصارت الناس تشجِّعه على المزيد وعلى التكرار، إذ كان صوته متقطِّعًا بالشهقات وحشرجة البكاء.

وأنا، أغالب الوجع، أتابع حركة الممرِّضات علَّ إحداهنَّ تمرُّ قريبًا منِّي لأطلب المهدِّئات. المهدِّئات القويَّة. الألم ليس أولويَّة، لذا أعتقد أنَّهم ينسونني في فوضى يوم الحشر هذا. أيَّام الحشر. أحاول التركيز على خروجي القريب من المستشفى. كيف أعود إلى البيت؟ من سيحملني إلى هناك؟ ومن سيعينني في أمور حياتي وأنا في عاهةٍ جديدة؟ وأتمنَّى ألَّا يخرجوني من هنا الآن، ألَّا يحتاجوا سريري، أن يتركوني... قليلًا.

أيَّامٌ مضت لا أعرف عددها. خفَّت الحركة قليلًا في الصالة الكبيرة في الطابق الأرضيّ، ولم يطلب أحدٌ منّي مغادرة السرير. بل انتظم تفقُّدنا بالأدوية المضادَّة للألم. قالت الممرِّضة إنَّها كانت مقطوعةً وهي لم تنسني.

ما زلت أغطِّي رأسي كي ينصرفوا عنِّي ويتركوني أتعافى قليلًا. ما عادوا يغيِّرون ضماداتي بانتظام، لكنَّ الوجبات تصلني ساخنةً في ما يشبه العلب البلاستيكيَّة وعليها أسماء المتبرِّعين. آكل ثم أغطِّي رأسي، آملةً بالبقاء يومًا آخر.

الشرشف أصبح أبيض، والكتابة على طرف القماش تفيد بأنَّه فرنسيُّ المصدر. كنت أفضِّل الهولنديَّ الأصفر لأنِّي لا أحبُّ الضوء في عينيّ. لكنِّي الآن أكثر قدرةً على نسيان ما حولي، وعلى صمِّ أذنيَّ عن الضجيج، وأيضًا على الاستغراق في النوم وقد خفَّت آلامي.

في عليَّة مطبخنا كانت شراشفي دائمًا بيضاء والبطّانيَّات ملوَّنة. وكنت، حين أريد، أدفن رأسي في البياض، أو في الألوان، وأنسى حركة أمِّي العصبيَّة المتوتِّرة في البيت. أرتاح وأشعر بالروقان والأمان، وتنتظم دقَّات قلبي. وأتمكَّن حينها من السفر بخيالي، فأؤلِّف القصص الجميلة

وأرويها لنفسي، أو أعيد تركيب وتوليف ما أقرأه من هنا وهناك، مهما كان مختلف المصادر ومتنوِّع الاختصاص، كأن أجعل بطلة غادة الكاميليا تهوى الطبخ وتتفنَّن في تأليف الوصفات اللذيذة، وأعيد رواية بعض أحداث حياتي بحيث تلائمني النهايات وتكون سعيدة. بعدها أحبُّ أمِّي من جديد.

حبيبتي أمِّي. شراشفها البيضاء كانت دومًا مهفهفة.

يردُّني هذا الشرشف الفرنسيُّ الأبيض النظيف إلى ثوب مناولتي الأولى.

قالت الراهبة المسؤولة في اجتماع الأهالي بلهجةٍ حاسمةٍ لا تقبل النقاش: مش كلّ واحد على ذوقه. النظام هو راية مدرستنا وميزة كنيستنا. خيَّاط المدرسة حيث تشترون الكوستوم هو من أخاط ثوب البنات وطقم الصبيان وأجنحة الملائكة. الزيُّ موحَّد. الأثواب شديدة البساطة، والأسعار مدروسةٌ وتراعي الجيوب المتواضعة، بلا فانتازيّا. يسوع كان بسيطًا في ملبسه. يسوع كان فقيرًا.

والمطران أيضًا، قالت أمِّي. سمعها الجميع. وسمعتها الراهبة.

كان سهلًا على الراهبة أن تعرف أمَّ من هي تلك المرأة، فتعنِّفني بسببٍ ومن دون سببٍ على سخرية أمِّي، ثم تقول إنِّي لا دخل لي. ولم يشفع لي أو لأمِّي أنَّها نذرتني للقديسة ريتا وألبستني ثوبها سنةً كاملة، فليس للمسألة علاقةٌ بالإيمان. أمِّي تكره هذه الراهبة، وتقول إنَّ سطوتها هي من علاقة القربى التي تربطها بالمطران، ولا تتوانى عن الإشارة المبطَّنة إلى تلك «العلاقة»، قبل أن تضيف: ارحمنا يا يسوع. وحين ترى أمِّي الرعب في عينَيّ، كانت تقول، هي أيضًا، إنِّي لا دخل لي،

وإنَّ عليَّ أن أساير الراهبة وأكذب عليها حتى نحتفل بمناولتي الأولى، وبدخولي سرّ الاعتراف العظيم. وأنا أعرف أنَّ أمِّي كانت تتناول القربانة، جسد المسيح، من دون المرور بكرسيِّ الاعتراف، وهي خطيئةٌ مميتةٌ ترسلك مباشرةً إلى الجحيم. أخاف عليها من القصاص الفظيع، لكنَّها تحاول طمأنتي فتقول إنَّها وحدها المسؤولة عن علاقتها بيسوع. فكيف أُفهِمُها أنِّي خائفةٌ على مصيرها المحتَّم، وليس على نفسي؟

أمِّي لا تأبه ولا تردّ. وهكذا قرَّرت أن تعدِّل في ثوب مناولتي الأولى الذي اشتريناه معًا من عند خيَّاط المدرسة. راحت تضيف إلى أطراف القماش شريطًا من الدانتيل، وآخر من الساتان عند الخصر والرقبة. وحين رأتني أشرق بدموعي قالت لا تخافي من تلك الشريرة، لن يكون لديْها الوقت لإخراجكِ من الكنيسة، إذ لن تلاحظ هذه التحسينات الطفيفة إلَّا بعد فوات الأوان. توقَّفي عن الجعير. إنَّها فرحتك، عرسك. ثوبكِ سيكون الأحلى، وأنتِ أجمل من كلِّ البنات. ملاكٌ طاهرٌ نازلٌ من السماء. وحين جلسنا إلى مائدة الفطور التي أعدَّتها لنا الراهبات فرحاتٍ بنا، وجاء المصوِّر الذي سيبيعنا صور الذكرى الجميلة، استمهلته أمِّي ووضعت في يدي زنبقةً بيضاء. أنا دون سائر البنات كان في يدي زنبقةً بيضاء علامة طهارتي وجمالي المميَّز.

في الصورة، التي بقيت مشكوكةً في إطار مرآة الصالون مدَّةً طويلة، كان باديًا أنِّي أغالب البكاء محتضنةً زنبقةً بيضاء. لم أعثر على هذه الصورة في رُكام ما تركته أمِّي في الشقَّة. عثرتُ على صورةٍ أخرى، كنت فيها في دور الملاك. ففي السنة التالية وضعوا لنا، نحن البنات الحلوات كالملائكة، واللواتي أنجزن المناولة الأولى وقدَّسنا سرَّ الاعتراف، وضعوا على ظهورنا أجنحةً بيضاء نرتديها بحمَّالةٍ على

الكتفَيْن، ونرافق الولد أو البنت إلى المناولة، ثم نعيده إلى مقعده لنرافق آخر. انتبه الخوري وهو يقرِّب البرشامة من فم الولد الخاشع أمامه، والذي أهديه إلى المذبح الكنسيّ بكلِّ إخلاص، انتبه إلى أنَّه تمَّ تعديل ريش أجنحتي، فنظر شزرًا إلى أمِّي التي ابتسمت له بملء أسنانها.

أضحك الآن تحت الشرشف الفرنسيِّ الأبيض. كأنِّي هناك في عليَّة مطبخنا، بعد سنواتٍ مرَّت على دوري كملاكٍ مُعدَّل الأجنحة.

وجدتني أمُّ منصور في المستشفى.

كنت جالسةً في السرير. رأيتُها من بعيدٍ تدور بين الأسرَّة. اعتقدتُ أنَّ لها قريبًا مصابًا تبحث عنه، إذ كانت تقترب من وجوه الناس وكفُّها على فمها، ثم تتمتم بدعوات الشفاء، حتى وصلت إليّ. قالت ياه. الحمدلله.

فرحتُ برؤيتها كثيرًا. وراءها كان الممرِّض يقول خذوها رجاء. نحن في حاجةٍ للسرير. لم يسأل عنها أحد. وضعها الآن يسمح بخروجها. سنعطيها كلَّ ما يلزمها.

أعطوني كيسًا كبيرًا مليئًا بالضمادات والمطهِّرات، وأدويةً أشكال ألوان. ثم جاء الطبيب الشابُّ وهنَّأني بحظِّي الطيِّب، مردِّدًا أنَّهم حسنًا فعلوا بعدم البتر، وكان يكلِّم أمَّ منصور، مشيرًا بإصبعه إلى المكان الذي كانوا تردَّدوا في بتره فوق الركبة. صرتُ أتحرَّك في قعدتي على السرير لأُرِي الطبيب استعدادي للخروج. قال الطبيب يلّلا مع السلامة، فأشارت أمُّ منصور عليَّ بالانتظار. ضمَّت أصابع يدها وقالت انتظريني ولا تنزلي عن السرير.

مرَّت دقائق طويلة، ففكَّرتُ بأنَّها تركتني لحالي بعد أن رأت صعوبة وضعي. فكَّرتُ بأنَّها رأت أنّي لم أمت، واطمأنَّت بأنّي في مستشفى وأنَّ حظّي عظيم، فعادت إلى بيتها. ثم فكَّرتُ بأنَّها هنا للبحث عن قريبٍ لها، ووجدتني بالصدفة وأرادت أن تسلِّم عليّ.

لكنَّ أمَّ منصور عادت. عادت تجرُّ كرسيًّا بعجلات، ثم لحق بها زوجها. حملوني إلى الكرسيّ، ثم رفعوني إلى سيَّارة إسعافٍ وراحا، أمُّ منصور وزوجها، يشكران السائق ويترحَّمان على أهله، ويؤكِّدان أنَّ البيت قريبٌ وسننزل وهو في طريقه لتوصيل الآخرين. أخذت أمُّ منصور منّي كيس الأدوية، ونجحت في إيجاد مقعدٍ لها بقربي، وراحت تشكر الركَّاب من مصابين وأهالي وتدعو لهم بالشفاء العاجل. زوج أمِّ منصور لم يركب معنا سيَّارة الإسعاف.

كنت أبكي فرحًا وتأثُّرًا، فتشرح أمُّ منصور للناس في سيَّارة الإسعاف أنّي مسكينةٌ مريضةٌ ومقطوعةٌ من شجرة، وليس لي في هذه الدنيا أهلٌ أو معارف.

حين أنزلوني أمام البناية كان علينا أن نترك الكرسيَّ ذا العجلات ليعيدوه إلى المستشفى. أجلسوني على الرصيف. كانت الدنيا غير الدنيا، وقد وصل الدمار إلى شارعنا، وأمُّ منصور تقول إنَّ اللّه ستر، وإنَّا أفضل حالًا من غيرنا بكثير. ثم وصل زوج أمِّ منصور في سيَّارة أجرة، وراح يتساءل كيف نفعل والكهرباء مقطوعة. اقترب أحد شغّيلي الكاراج، وقال إنَّ المصعد معطَّلٌ ولا فائدة من انتظار عودة التيَّار. نضعها على كرسيٍّ ونحملها على الدرج، قال الشغّيل، لا حلَّ آخر. خجلتُ كثيرًا، لكن لم يلتفت إلى ارتباكي أحد.

بين الطوابق كانا، زوج أمِّ منصور وشغِّيل الكاراج، يستريحان قليلًا، فأرى في الزوايا بقايا من زجاجٍ وأخشابٍ وُضِعَت في صناديق. كان باب شقَّتي مفتوحًا، فخمَّنتُ أنَّ ذلك من فعل الانفجار. وضعوني على الكنبة. تمنَّى شغِّيل الكاراج لي الشفاء وخرج. وراح زوج أمِّ منصور إلى الشبَّاك ليُتابع ما كان بدأه قبل عودتي.

انتهى من إلصاق المعجون الأبيض حول مربَّعات الزجاج، وقال من دون أن يلتفت إليَّ إنَّ هذا المعجون يلزمه يومٌ كاملٌ حتى يجفَّ ويقسو. يجب ألَّا يلمسه أحد. وتابع يكلِّم زوجته بأنَّ علينا أن نضع ذلك في رأسنا جيِّدًا، إذ لا زجاج في المدينة، وأنَّ ما تمَّ قصُّه من واجهات المحالِّ التي سقطت في نهاية الشارع لن نجد مثله. تشكره أمُّ منصور بحرارةٍ وتدعو له بالصِّحَّة، كأنَّها شقَّتها لا شقَّتي. ثم قال وهو يفرك يدَيْه من بقايا المعجون: نحن، والحمدلله، في قلبنا شفقة. نشعر مع الناس ولا نتعالى على أحد. كأنَّه يؤنِّبني أنا. ثم خرج عابسًا.

حقيقةً لا أدري لماذا لا يحبُّني زوج أمِّ منصور! بل لماذا يكرهني، قليلًا.

لم يتغيَّر شيءٌ في الشقَّة خلال غيابي. عدا الزجاج في شبَّاك الصالون، بقي كلُّ شيءٍ في مكانه. وأنا خفَّت أوجاعي. أمُّ منصور تُغيِّر ضماداتي وتحمل لي الأكل من بيتها، وتذكِّرني بمواعيد الأدوية. لكنَّ زوجها عاد إلى سيرته معي. إمَّا يتجاهلني تمامًا أو يُسمِعُني كلامًا سريعًا غير ودودٍ من دون أن ينظر في وجهي. لا يطمئن على صحَّتي ولا يصبِّح أو يمسِّي. وأنا أعرف من فزعها أنَّ معاشرتي لا تروق له. واللّٰه لا أعرف لماذا. وأستحي أن أسألها.

تحسَّنت صحَّتي، ونشف تمامًا جرح ركبتي، وصرت أستطيع أن ألقي بثقل جسمي عليها، وحتى أن أمشي. لم أعُد في حاجةٍ إلى أمِّ منصور إلى جانبي دائمًا، واستحسن زوجها الأمر.

ثم بدأتُ أنزل إلى الشارع لشراء حاجياتي من الدكاكين القريبة. أمشي على مهل، وأجلس على حافَّة الرصيف حين أتعب. ولم تَعُد الناس، من بائعين وجيران وشغِّيلة الكاراجات في الطابق الأرضيّ، ينظرون إليَّ بخوفٍ أو توجُّس. والباعة المتجوِّلون، الذين لا يعرفوني، لم يعودوا ينقزون من هيئتي. ليس بسبب اعتياد الناس على هيئتي إذن، بل ربَّما لأنِّي أنا أصبحت لا أبالي كثيرًا.

صرتُ أتسلَّى في الشارع، سعيدةً بالوقت الذي أقضيه على الرصيف بانتظار المصعد. ولا يطول انتظاري كثيرًا، إذ إنَّ اشتراك بنايتنا الشهريِّ في خدمات الموتور زاد من ساعات تشغيل المصعد، فصرتُ أوزِّع أوقات خروجي بين كهرباء الدولة وكهرباء الموتور. سعادة! وحين مرَّت بنا سيِّدةٌ تسأل عن المتضرِّرين من الانفجار بغية دفع تعويضاتٍ لهم يُقدِّمها الجيش، أو ربَّما الأجانب، قلت لها شكرًا، أنا لم أتضرَّر.

ثم تحسَّنت حياتي أكثر فأكثر مع عودة القطَّة إلى الحياة وإلى البيت، وحين بدأتُ أعود إلى حافَّة النهر، ذلك الذي يسمُّونه نهرًا وهو ليس كذلك.

في هذا الخريف اللطيف يرقُّ النسيم في الصباح الباكر.

صرت أُكثِر من الخروج إلى البلكون. أستند إلى درابزين الحديد وأتفرَّج على الدنيا. على الدنيا التي تغيَّرت.

فالبنايات العالية التي كانت رافعات البناء العملاقة مثبَّتةً على سطوحها صارت صلعاء، كأنَّ ريحًا جبَّارةً اقتلعتها كلَّها في اللحظة نفسها. حتى سطح البناية المقابلة تغيَّر شكل الرُّكام الذي كان يعلوه، أصبح أقلَّ سماكة، ودخلت عليه، أو فوقه، موادُّ جديدةٌ غير متجانسة، كأنَّها طارت من أسطحٍ بعيدةٍ لتحطَّ هنا. وبدا أنَّ بعض هذه الأغراض ما زال صالحًا للاستعمال، مثل المكانس والمظلَّات الملوَّنة، والشراشف بل السجَّادات الصغيرة الجميلة، وأيضًا بعض الملابس التي تبدو كالجديدة، ما يعني أنَّ أحدًا لم يصعد إلى هذا السطح.

صرت أُكثِر من الخروج إلى الشرفة، فأُنظِّف البلاط وأرفع الغبار عن الدرابزين، وأفكِّر في إعادة طلائه ذات يوم. وأعدتُ ربط حبل الغسيل أنشر عليه ما أريد أن تُطهِّره الشمس. واكتشفتُ أنَّ الفخَّارة الكبيرة التي كانت مركونةً في الزاوية، وقد أنبتت عودًا صغيرًا بنِّيًّا، أصبحت تختال بوريقاتٍ خضراء صغيرةٍ نديَّة. أتساءل عمَّا أستطيع فعله

لرعايته، إن كان عليَّ أن أسقيه أو أتركه ينمو من نفسه. إن كان عليَّ أن أضع على تربته تفل القهوة أو قشر البيض كسمادٍ طبيعيّ، كما كانت تفعل أمِّي. لكنِّي لا أعرف نوع هذه النبتة لأفكِّر برعايتها، وليست أمِّي المرجع الصالح في تربية النبات. لذا قرَّرت ألَّا أفعل شيئًا بالمرَّة، حتى إذا يبس العود لا ألوم نفسي.

أروي حكاية هذه النبتة العصاميَّة للقطَّة كلَّما تبعتني إلى الشرفة، لأذكِّرها بالقصاص الذي ينتظرها إذا ما تبوَّلت عليها. خبطةٌ قويَّةٌ على رأسها المبعوج. فهي منذ تعافتْ أعطيتها اسمًا، وصرت أكلِّمها ونتسلَّى معًا. أسميتُها زكيَّة، وبدا لي أنَّها استحسنتْ اسمها، وفي أوقات السماح والرضا أدلِّلها وأناديها بزاكو. وهي صارت تفهم أنَّ زاكو يعني أنِّي أحمل لها خبرًا طيِّبًا كوجبةٍ دسمة، أو لعبةً تتلهَّى بها ككرة المطَّاط الصغيرة. وحين أصرخ زكيَّة، فهذا يعني أنَّ قبضتي ستنزل فورًا على نافوخها.

أتفرَّج على الدنيا. كأنَّ الدنيا كانت في نفق، وها نحن نرى نورًا صغيرًا في نهايته، لكن بعيْنٍ واحدة، برأسٍ عوراء مثل رأس زكيَّة. كأنَّنا، رغم فرحنا بهذا الضوء الصغير، قد فقدنا عينًا خلال عبور نفقنا، تركناها في عتمة النفق لنحتفي بالعيْن التي بقيت لنا من رحمة الربِّ ورأفته... نحن الشعوب المارقة التي لا تتَّعظ.

اشتريتُ قارورة غازٍ من شاحنةٍ صغيرةٍ كانت مارَّةً في شارعنا. يصيح السَّائق بمكبِّر الصوت، فيركض الناس إليه قبل نفاد الحمولة. ثمن القارورة مرتفعٌ وسعتها مغشوشة، لكنَّ الغاز مقطوعٌ وأنا لست أكثر حذاقةً من غيري.

جررتُ القارورة إلى رصيف البناية، وجلستُ بقربها سعيدة، أربِّت على استدارتها التي تشبه ورك امرأةٍ جميلة. ثم أتى وقت التفكير المُربِك. من سيعاونني في حملها إلى البيت؟ هل عندي الحلقة الجلديَّة لوصلها بالموقد؟ هل ما زال خرطوم الكاوتشوك القديم صالحًا؟ هل ما زالت ساعة العيار آمنة؟ جرُّها إلى الشقَّة ليس هو المشكلة، لكنَّ عمليَّة الإشعال تنطوي على مخاطر وأخطار قد تودي بي وبالبناية، كما يحصل كثيرًا هذه الأيَّام. لكنَّ العائلة الصغيرة التي احتلَّت بيت أمِّي كانت تستعمل الموقد، وطنجرة المحاشي المتعفِّنة التي وجدتُها في المطبخ طمأنتني بعض الشيء. اعتدل مزاجي، وتمنَّيتُ التوفيق لتلك العائلة، التي سمعتُ أنَّها سافرت بحرًا إلى اليونان. وقيل إنَّهم وصلوا من دون الطفل الذي وقع من المركب. الناس تتكلَّم كثيرًا. وهم يحبُّون الفواجع لكثرة ما يضجرون. ثم إنَّ فواجع من هذا النوع تعزِّيهم في كسلهم واستسلامهم للاستمرار في العيش في هذا البلد.

حظِّي كبيرٌ إذ صدف وجودي في الشارع مرور تلك الشاحنة. وحظِّي كبيرٌ لأنِّي أملك ثمن ذلك الشيء الجميل الذي سيغيِّر حياتي، وسيشجِّعني على الطبخ ويملأ البيت بالروائح الطَّيِّبة التي تُشعِرني بأنِّي في بيتٍ حقيقيّ.

حظِّي كبيرٌ لأنِّي أملك ثمن ما أحتاجه، ولو أنَّ المبلغ الذي تركته لي أمِّي ليس كبيرًا، وعليَّ الانتباه في المصروف أو حتى التقطير. لكن هل تركت لي أمِّي ذلك المال بقصدٍ ومعرفة، أم إنَّها نسيتْ وجوده أصلًا بعدما عادت من المستشفى فاقدةً عقلها؟

شغِّيل الكاراج اللطيف ساعدني في حمل قارورة الغاز وتركيبها. تأكَّد من سلامة الاشتعال بتقريب ولَّاعته من كافَّة الوصلات. وعدتُه بطبقٍ من أكلته المفضَّلة فشكرني بخجل، ولمَّا أصرَّيتُ قال: مجدّرة حمرا. فكَّرتُ بأنِّي أعرف المجدَّرة وأحبُّها، ولم أساله كيف تكون حمراء. وهو، واسمه نبيل، مَن أسرَّ لي بوجوب الذهاب إلى البنك الذي كانت تتردَّد عليه أمِّي يرافقها معلِّمه. قال إنَّ ذلك المصرف قريبٌ من شارعنا، وإنَّه سيصحبني إليه إن أردت.

اصطحبني نبيل إلى البنك، الذي لم أكن أعرف شيئًا عن وجود رصيدٍ لأمِّي فيه أو في غيره. أردتُ سحب كامل الإيداع، لكنَّ الموظَّف قال إنَّ ذلك مستحيل. لم أفهم كلمةً واحدةً ممَّا كان يحاول شرحه لي، وهو يضيق بعدم فهمي لأنِّي كنت خارج البلد ولا علم لي بما جرى ويجري حولي. يقول بلهجة التأنيب: «ولو مدام؟! شو وين عايشين؟؟»، كأنِّي ارتكبتُ خطأً ما، أو كأنَّه يضيق بقبحي وصوتي الرجاليّ، وكأنَّ بقائي على الكرسيِّ قُبالته أذيَّةٌ وقلَّة ذوق... فهمتُ

فقط أنَّه عليَّ المرور كلَّ شهرٍ لسحب مبلغٍ صغير. قال لي نبيل، بعدما خرجتُ من البنك مسطولةً وعرقانة، قال إنَّهم سرقوا مال الناس، أموال الناس كلَّها.

لم أستوضح نبيل في ما بدا لي معقَّدًا جدًّا ولن أستطيع فهمه، فالمبلغ الذي نزل عليَّ من السماء خيرٌ وبركةٌ غير متوقَّعة. ثم إنَّ ما قرَّروا إعطائي إيَّاه بالتقسيط يكفيني. يرافقني نبيل كلَّ شهرٍ لقبض ما صرتُ أسمِّيه المعاش. وأفرح قليلًا كأنِّي موظَّفة، بشكلٍ من الأشكال. نشتري أنا ونبيل بعض الأغراض في طريق العودة، ونأكل المناقيش في الفرن الأرمنيِّ الشهير. وأحيانًا أحمل أرغفة اللحم بعجين إلى البيت، أتقاسمها مع زكيَّة التي صارت أكثر لطفًا وأقلَّ توحُّشًا. تلحق بي إلى المطبخ، وتمرِّغ رأسها بساقي السليمة. ربَّما تتذكَّر القطة أنَّ اللهب الخارج من موقد الغاز يعد بالهناء، بالأكل الطيِّب والعيشة السعيدة، كما كان الحال أيَّام سكنى أمِّي هنا.

صرتُ أعود من حافَّة النهر مشيًا، ولو ببطءٍ واحترازٍ كبيرَيْن. أذهب إلى هناك مهما كانت أحوال الطقس، تقريبًا. لا أدري ما الذي يشدُّني إلى هذا المكان. فيه أسترسل بأفكاري، وأتذكَّر أشياء لا تأتيني إلَّا هناك، حيث أكون لوحدي تمامًا. كأنَّ كوَّةً تنفتح في رأسي، فتنقشع غيومٌ كانت ملبَّدةً فيه.

كأن أفكِّر بأنَّ أمِّي لم تكن فقيرةً مُعدمةً في سنوات عيشها الأخيرة، كما ظننتُ من وضع شقَّتها الكئيب. وصارت الصور التي أتخيَّلها لحياتها في الشقَّة أقلَّ تعذيبًا لي بكثير، وكذلك شعوري بالذنب لابتعادي عنها، بل نسياني إيَّاها في مرضها وشيخوختها.

صارت تخيُّلاتي عن آخر أيَّام أمِّي أقلَّ سوداويَّة... وقد يشطُّ بي الخيال إلى التساؤل بيني وبين نفسي، أحيانًا، إن لم تكن أمِّي لتُفضِّل ألَّا أكون معها، بقربها، وتراني في قبحي. قبحي الذي لم يكن ليساعدها في شيء، بالتأكيد، فقد كان مالها يُعينها في أمور حياتها بأكثر ممَّا أستطيعه، بل لعلَّها حمدت ربَّها على غيابي عن ناظريها. هكذا أتخيَّل أحيانًا، وأجد ذلك حسنًا، ولو لبعض الوقت...

وأمِّي على أيَّة حال صعبة. وهي كانت تبالغ كثيرًا. تبالغ في كلِّ شيءٍ ولا سبيلَ للكلام معها فهي لا تسمع. كنت، حتى أيَّام كنت ابنتها الجميلة، أنتظر أن تكون في مزاجٍ رائقٍ لأسألها عن أمورٍ كانت تؤرِّقني، فتتنهَّد وتقول: ماذا تبقَّى لنا من الماضي سوى أسوأ ما فيه؟ فعلام نسترجعه؟ هذا كلُّ ما أُحصِّله.

وكانت تبالغ في الحديث عن جمالي. ثم راحت تبالغ أكثر بكثيرٍ في تقدير بشاعتي الآتية، وفي نظرتها إلى التشوُّهات التي بدأت تُغيِّر هيئتي حتى عندما كانت ما تزال طفيفة. أزاحتني عن عينَيْها ليس لأنَّها رأت، بل لأنَّها تخيَّلت ما سأصير إليه ولو بعد سنين.

لم يكن ينفعني أو ينفعها وجودي بقربها في أيَّامها الأخيرة. في مِزَق الجرائد التي وجدتُها في الشقَّة صورٌ لرجالٍ ونساءٍ شديدي القبح، ويُثيرون الخوف والتقزُّز. من قال لها إنِّي في مرضي سأتحوَّل هكذا كالحالات القصوى؟ من فزعها كفَّت عن رؤيتي، لكنَّها أيضًا كفَّت عن تذكُّري. احتفظت بصورٍ مخيفةٍ لمرضى الأكروميغاليا، ولم تحتفظ بصورةٍ واحدةٍ لي، من أيَّام ما كنت أجمل بنتٍ في العالم.

لماذا أرادت أمِّي محوي من أيَّامي السعيدة بقربها؟ محو ذكرياتها الجميلة عنِّي؟ وإن هي قرَّرت نسياني، فلماذا احتفظت بما يذكِّرها بمرضي، وفي أبشع ما قد أصير إليه؟ مثل صورة ماري آن بيفان[1]، الممرِّضة الإنكليزيَّة الجميلة التي انتهت في السيرك على أنَّها أقبح امرأةٍ في العالم، ومثل صورة جوزيف ميريك[2]، الذي عُرِفَ بالرجل الفيل. لماذا وميريك هذا كان مصابًا بمرضٍ مختلف، اسمه متلازمة بروتيوس؟ ما دخل مرضي بمرض ميريك؟ لماذا ذهبت أمِّي إلى أقصى ما قد يحصل لي، ثم استعانت بأمراضٍ أخرى لتأمن ابتعادها عنِّي وتقوِّي نسيانها لي؟

لماذا احتفظت أمِّي بهذه الصور الفظيعة التي كانت تعذِّبها؟

حبيبتي أمِّي.

لقد خيَّبتُ أملها فيَّ إلى أبعد ممَّا تستطيع احتماله.

خيبة أمِّي، جرحها النازف، كانت لأنَّها بمرضي هذا لم تَعُد قادرةً نهائيًّا على استعادة هند. هند ابنتها.

---

(1) Mary Ann Bevan.

(2) Joseph Merrick.

عادت زكيَّة فجأةً إلى شراستها. أنهرها، وأهدِّدها بعكازي، فتفحُّ في وجهي. تتمترس عند الباب، وتُصدِر أصواتها الغريبة التي تشبه العواء المتقطِّع العميق، فأصوات الشبق تشبه كثيرًا أنين الألم الذي يُصدِره جرحى المعارك.

حين عادت ترفض الأكل، عدتُ أنا إلى إغلاق باب الغرفة من خوفي أن تهجم عليّ، وقد خدشتني مرَّةً بمخالبها الحادَّة. أرى في عينها المتبقِّية لها قسوة الحرمان، وأيضًا نيَّة الانتقام. ماذا جرى لك زاكو؟ أقول لها من وراء باب غرفتي. شدَّةٌ وتزول، دعينا ننام. فتزيد من موائها الغليظ.

لن أتركها تخرج إلَّا إذا أصبحت متوحِّشةً تمامًا كأسلافها من السنَّوريَّات قبل أن تألف البشر. نمِرةً صغيرةً مثلًا. وإن فتحتُ لها الباب أكون قد قرَّرتُ وداعها، إذ إنَّها لن تعود قطعًا. ذكور القطط أو السيَّارات أو الأولاد. عينٌ واحدةٌ وثلاث أقدام. وإن صدف ونفدت بجلدها من الشوارع فسيكون بطنها مليئًا بالجراء، وأنا لا أحبُّ قتل الجراء. لا تفطيسًا ولا خنقًا ولا رميًا في الأزقَّة. ثم أقول إنَّ الرغبة ستهدأ، وستذهب عنها من نفسها كما في المرَّات السابقة. أم إنَّه ينبغي لي أن أنتظر حتى تشيخ

هذه القطة؟ حتى ينشف رحمها وتجفَّ هورمونات الأمومة وبقاء النوع؟ يا للغريزة وجولاتها العاصفة!

كم عمرها زكيَّة؟ لا تدلُّ الهيئة دائمًا على الأعمار. أنا، يعتقد الناس أنِّي أكبر بكثيرٍ من عمري الحقيقيّ. أعرف ذلك ولا أصحِّح لأحد. ففي هيئتي ومشيتي أكون كهلة، أو رجلًا كهلًا للناظر إليَّ من مسافة. وثيابي واسعةٌ فضفاضةٌ قاتمةُ الألوان، تقول إنَّ لا جنسًا محدَّدًا لي، ولا أجد ما يناسبني بسهولة. لكنِّي من حسن حظِّي عثرتُ في شارعٍ موازٍ لشارعنا على مركزٍ لجمعيَّةٍ توزِّع أشياء كثيرةً على الناس، ومنها الثياب. هناك أتوجَّه مباشرةً إلى قسمٍ خصَّصوه للرجال، وأختار المقاس الكبير. وفي هذا المركز شبابٌ وصبايا في غاية اللطف، منهم استدلَّيتُ على مستوصفٍ للحيوانات يُديره أجانب متفهِّمون، لا يطلبون سوى مبلغٍ رمزيٍّ لقاء اهتمامهم بصحَّة كافَّة أنواع الحيوانات...

الهيئة لا تدلُّ على عدد سنوات العمر، خاصَّةً في حالتي.

وأنا لا أعرف عمري بالضبط، أعرفه فقط بشكلٍ تقريبيّ. أمورٌ كثيرةٌ تُخرِّب تعدادي للسنوات. كذلك لا أعرف عن أيِّ عمرٍ ماتت أمِّي، وحساباتي مُربَكةٌ كذكريات أمِّي، ونتيجتها غير مفيدة. أبدأ من أنَّ أمِّي لم تتزوَّج صغيرة. فهي تقول إنَّها طفشت من بيت أهلها حين تزوَّج أخوها خطيفةً وأتى بامرأته إلى البيت، ولم تنفع معه تهديدات أبيه بطردها، بل بطردهما معًا، فصار الجوُّ لا يُطاق. وكان نتيجة ذلك أن تزوَّجت أمِّي وهي لم تكن تريد الزواج أصلًا، ولم تكن مغرمةً بأحدٍ رغم غرام عشرات الشبَّان أولاد العائلات بها. إذا رجعتُ إلى أيَّام زواج خالي، سأقول إنَّ أمِّي كانت في حدود الثلاثين، أو في نهاية عشرينيَّاتها.

وإذن، حين وُلِدَتْ هند كانت في بداية الثلاثين. ثم أفكِّر بأنَّ خَرَفها الذي عادت به من المستشفى، بحسب أمِّ منصور، قد يكون باغتها وهي في... نهاية السبعين. أُعِيد الحساب فأفترض أنِّي في حوالى الأربعين، ولا ينفع أن أعود إلى تاريخ ميلادي على أوراقي الثبوتيَّة، إذ أُرجِّح أن يكون تاريخ ميلاد هند.

الحقيقة أنَّ هذا غير مهمّ.

الهيئة لا تدلُّ على العمر. والشيخوخة ليست بعدد السنوات. أعرف ذلك من نفسي وممَّا يحيط بي. هذه البناية، مثلًا، هي بالتأكيد حديثة البناء، نسبيًّا، ولكن، إن أمعنت النظر قليلًا في أيٍّ من مكوِّناتها أو موادِّها، يمكنك التنبؤ بأنَّها ستكون قصيرة العمر، أو حتى على حافَّة الانهيار، وهي في كلِّ أحوالها أكثر ترهُّلًا من بيتنا القديم، في البناية التي هدموها. لأنَّ البناية القديمة لم تكن عاليةً كثيرة البيوت، وربَّما كان أصابها صاروخٌ كبير، أو عدَّة صواريخ، إذ كانت واقعةً على مفترق طرق، حيث تكثر مواجهات الناس التي لا تطيق بعضها بعضًا، كيفما تبدَّل سكَّان تلك الشوارع على مدى الزمان.

الأمكنة هنا صارت تشيخ بسرعة. والناس تشيخ بحسب الأمكنة. هكذا، ربَّما، شاخت أمِّي بسرعةٍ في هذه الشقَّة.

وقعتْ الوالدة عن السُّلَّم الخشبيِّ وهي تُعِيد طلاء بعض زوايا السقف، بعد خروج الدَّهَّان الذي طردته إذ لم يعجبها شغله. انكسر حوضها وسمعتُ صراخها قبل أن يُغمى عليها، المسكينة. حملناها إلى المستشفى، ودفعنا ما في جيوبنا لإدخالها، لا تؤاخذيني. ولمَّا استفاقت من أثر التخدير في مكانٍ لا تعرفه طار عقلها.

تروي أمُّ منصور هذا الفصل من حياة أمِّي بالتفاصيل الصغيرة، على لسان الممرِّضين والممرِّضات. تقول إنَّهم اعتقدوا أنِّي ابنتها، ثم قريبتها، ثم قرَّروا أن يعتقدوا ذلك إذ لم يكن أحدٌ يزورها أو يسأل عنها. صاروا يصرخون في وجهي: دخيل اللَّـه خذيها من هنا. حوضها يلتئم ولا ضرورة لبقائها هنا فهي ترفض العلاج، ولا تكفُّ عن الزعيق وعن شتمنا بأقذع الكلام. تقذفنا بأطباق الأكل وتنزل عن السرير، وهذا سيجعلها تكسر وركها من جديد. يجب أن نربط يدَيْها ورجلَيْها لإعطائها حقنة المهدِّئ. هي لا تعي ما بها، ولا ينفع معها التهديد ولا الكلام اللطيف. تعتقد أنَّنا شياطين نسجنها هنا، فنضطر لتنويمها باستمرار، وهذا غير مُستحسَنٍ لمن هم في عمرها. خذوها من هنا، فهناك عياداتٌ متخصِّصةٌ لمرضى الألزهايمر.

أخذناها. أعدناها إلى بيتها. وهنا كان الوضع سيِّئًا جدًّا، اللَّـه شاهدٌ على ما أقول. حالما أنزلناها من سيَّارة الإسعاف راحت تصرخ بنا. نسيتْ من نكون، ونسيتْ أنَّه بيتها. إلى أين تأخذوني؟ وإلى ما هنالك من الشتائم. كان أبو منصور ساعدني في تنظيف الشقَّة بعد أن أكمل الطلاء، وغيَّرتُ لها شراشف السرير، ووضعتُ في الثلَّاجة ما تيسَّر. استمرَّتْ تصرخ وتقول إنَّه ليس بيتها، وإنَّ الإنسان لا يمكن أن يغلط في مكانه. حين تهدأ تقول يا بنتي هل يغلط أحدٌ في بيته؟ تروي أمُّ منصور عن أمِّي بحزن، وتُنهِي دائمًا بـ«اللَّـه يرحمها، يسامحها، ويعطينا خير الآخرة».

هكذا وقعتْ أمِّي في الشيخوخة. هكذا قفزتْ إليها وإلى نسيان عمرها كلِّه في وقتٍ قصير.

هكذا تخرَّبتْ وتعطَّلتْ وتوقَّفتْ دقَّاتُ الآلة بكاملها حين نقلوها من مكانها. ما تعتقد وما تتذكَّر وما تحبُّ أن يكون مكانها.

الآن نعرف كيف أنَّ حيواتنا تغرق في مياهٍ حملونا إليها، بالقوَّة أو بفعل الصدف، وهي غير مياهنا. كأنَّهم أخرجونا من الرَّحم مرَّةً أخرى وغير ضروريَّة، غير حيويَّة، أي أخرجونا لا للحياة من جديدٍ بل لموتٍ أوَّل. كيف تفسد الأرواح حين نفقد المكان الأوَّل وتتخثَّر الخُضرة؟ وكيف تهترئ الأطراف من ذلك الموت الأوَّل قبل تكفينها ودفنها في التراب السَّتَّار الرحيم؟

والحكاية نفسها تنظم عيش النبات والحيوان، وليس البشر فقط.

كلُّ أنواع النبات التي أعجبت الأوروبيِّين في مستعمراتهم فنقلوها إلى بلدانهم لم تعِش. حملوا التربة من البعيد فعاشت فترةً قصيرة، توقَّف نموُّها ثم مرضت وماتت. جعلوا لها خيمًا مقفلةً من الزجاج والبلاستيك، ضخُّوا فيها هواءً مصنَّعًا بحسب ما درسوه عن خصائص هوائها الأصيل فعاشت، لكنَّها لم تكن تشبه تلك التي كانت هناك وأحبُّوها. عدَّل نقلُها في جيناتها الأصليَّة من دون أن يفهموا كيف. بل إنَّهم فوجئوا أحيانًا بنتائج مخبريَّةٍ خرجت عن كلِّ التوقُّعات، وجاءت في شكل متحوِّلاتٍ كما في أفلام الرعب والخيال العلميّ. وفي ما خلُصت إليه الأبحاث المعمّقة، تبيَّن أنَّ حياة تلك النباتات مرتبطةٌ عضويًّا بكلِّ ما ينبت حولها ومعها. كان ذلك اكتشافًا شقيًّا، إذ كيف تنقل قارَّةً بأكملها إلى بستان العلماء أو الحدائق الإكزوتيكيَّة الجميلة، حيث يتعرَّف سكَّان المناطق الباردة على ما ينبت عند إخوتهم من سكَّان المناطق الدافئة أو الحارَّة؟...

توقَّف المستعمرون الأوربيُّون عن محاولاتهم. لكنَّ علماءهم حزنوا وندموا على ما أعاثوه في الأرض من فساد، أكان في بلدانهم أو في مستعمراتهم السابقة. فعادوا إلى الأرض البعيدة نادمين، وحملوا منها النبات الأصليّ، أو ما تبقَّى منه، مجمَّدًا في صقيعٍ غازيّ، في أكياسٍ للبذور، أو مغلَّفاتٍ لأجنَّة الأنواع. وبكلِّ إخلاصٍ وخشوعٍ بنوا لها معاشب ومختبراتٍ في القطب الشماليِّ تُحفَظ فيها إلى الأبد. الأبد بمعناه العلميّ، وفي دهاليز تقاوم الانفجارات النوويَّة، لتجنيبنا الخسارة الأخيرة وحفظ آثارنا حتى في حال سقط من السماء ما أباد البشريَّة، نيزكٌ أو كوكبٌ أو نجمٌ أو ما شابه. من أجل ذاكرة البشريَّة. وما لم يتمَّ تجميده هناك صار صورًا ورسوماتٍ في الكتب المختصَّة وفي فهارس النوع. فيما تعود اليوم شركات مختبرات الأدوية والعطور العالميَّة إلى تفحُّص كتب ابن سينا والرازي وابن بيطار الأندلسي وداوود الضرير الأنطاكيّ، فهذه الشركات العملاقة لا تحبُّ أفكار الاستعمار، وليس في قاموسها هنا وهناك، أو نحن وهم...

هكذا، على الأرجح، تخرَّبت أمِّي، أو صارت متحوِّلة. وقد يكون هذا ما حصل لي أيضًا. ربَّما قفزتُ عشرات السنين في عمري، أقلَّه في هيئتي، حين غادرتُ هذه البلاد. بلادي.

على أيِّ حال، حملتُ زكيَّة في كيس بلاستيك سميكٍ وكبيرٍ ربطتُه جيِّدًا، وأخذتُها إلى المستوصف الأجنبيِّ الذي يُطبِّب الحيوانات.

أعرف أنَّ اسمي جميل، أو من الأسماء الجميلة ولو أنَّه ليس أجملها، كما كانت أمِّي تدَّعي كعادتها ومن دون اقتناع.

على أيِّ حال، أنا أتجنَّب أن أقول اسمي إلَّا عند الضرورة، فهو لا يلائم شكلي بالمرَّة، وقد يُثير التهكُّم والسخرية، والتعليقات الجارحة في سياق المزاح البريء، وأنا بغنى طبعًا.

هنادي.

هنادي اسمٌ لطيفٌ خفيف، وأنا ثقيلةٌ ثخينة، وفوق ذلك أبدو متجهِّمةً مهما حاولتُ الابتسام. في التواء سحنتي، الذي استقرَّ على نصف وجهي، أبدو على وشك البكاء كلَّما حاولتُ الابتسام. فالابتسامة هي من قواعد السلوك الاجتماعيّ، وأنا يئستُ من أن أبدو على غير ما أريد، وعرفتُ نهائيًّا أنَّ الناس لن تجد الصلة بين تقاطيع وجهي وما أريد أن أقوله، أو أوحي به للناظر إليّ. صرتُ أُجهِد نفسي في تبليط سحنتي، في جعل وجهي حجرًا جامدًا لا يقول شيئًا. فالبلاطة أفضل من الحفرة. البرودة أضمن من سوء الفهم.

وهنادي اسم دلعٍ للبنات الفتيات الصغيرات الناهدات طريَّات العود، وأنا ما عاد عمري مناسبًا. بل صار اسمي يلفت النظر إلى ما

صار إليه جسمي من تناقض، فعودي حينئذٍ يصير أكثر غلاظةً في عين من يناديني باسمي، فيرى الفرق أكثر فداحةً بين خصري وليونة أغصان البان والرمَّان وكلِّ الأغصان التي تقارب الليونة. فأنا، من ثديي الكبيرَيْن إلى ما بين الفخذَيْن والوركَيْن، أشبَهُ بقطعةٍ مُبهمةٍ من رُكام ما بعد الانفجارات. وهندسة عظامي على مفاصلي أيضًا، بحيث أنَّ انتظامها صار أشبه بنهاية لعبة الميكادو، لعبة التوازن والمهارة التي تقضي بتركيبٍ يعلو كلَّما أضاف لاعبٌ عودًا خشبيًّا رفيعًا إلى البناء. والخاسر هو من يضيف العود الأخير الذي يُنهي اللعبة بانهيار العيدان كلِّها على قاعدتها. وأمِّي خسرت في لعبة الميكادو.

إنَّه أجمل اسمٍ في الدنيا، كانت أمِّي تقول لمن يلمِّح بأنَّ اسمي جميل. هنادي هو صيغة جمعٍ يُحبِّب الخلق باسم هند ويجعله مودرن. هنااااديييي. خفيف الوقع وموسيقيٌّ غنائيّ. وهو بإضافة الألف إلى هند، ومدِّها بدلال، ثم بتطويل نوطة الياء، يُرطِّب الأحرف في الحلق.

ثم ليس هنادي اسمًا هجينًا، تضيف أمِّي إذا ما أطربها كلامُها. إنَّه اسمٌ عربيٌّ في أصله القديم، لكن أُضِيف إليه عنصر الأنوثة، وأصبح لحسن الصدف ذا وقعٍ أجنبيٍّ جذَّاب. وهو إذ خفَّف من ثقل السكون صار يوحي باللطافة والبراءة، إلى جانب مرونته في حمل التنويع على أسماء التدليع التي تلبسه لبسًا: هنُّودة نودا نودي ديدي دودو نونا... وكلُّها جميلةٌ حلوةٌ وسهلة اللفظ على اللسان الأجنبيّ.

كأنَّ أمِّي كانت تحدس برحيلي عنها، أو ترسم لهجرتي، أو تتمنَّاها.

قلت للسيِّدة اللطيفة في مستوصف الحيوانات إنَّ اسمي هند.

ولأنَّ الأمر جدِّيٌّ كان عليها أن تُعِدّ استمارةً مفصَّلةً طويلةً عريضةً لي وللقطَّة. فمستوصف الحيوانات يُديره أجانب يصرفون عليه المال، ويرفعون التقارير إلى البلدان المانحة. ينبغي إذن أن يكون كلُّ شيءٍ على الأصول.

الشارع وسخ، وكلُّ ما فيه رثٌّ ومتعفِّن، لكنَّ المستوصف جميلٌ ومرتَّبٌ ونظيف، وجدرانه مزدانةٌ بصورٍ كبيرةٍ ملوَّنةٍ لجراء الحيوانات وصغارها، تلك البريَّة المتوحِّشة، وتلك الأليفة المدجَّنة التي تعيش في البيوت. إلى جانب بوسترات للطبيعة، وأخرى لإرشادات التعقيم وأهمِّيَّة اللقاحات. كلُّ العاملين في المستوصف يضعون الكمَّامة وينتعلون واقيًا من البلاستيك الأزرق، والزوَّار أيضًا، درءًا للجراثيم والميكروبات. وأنا أعطوني كمَّامة نويتُ حملها معي، إذ يمكنني استعمالها لأغراض أخرى.

ماذا جرى لهذه المسكينة؟ ياه! ماذا جرى لها؟ اسمها زكيَّة، تيمُّنًا باسم الوالدة؟ سألتِ الطبيبة. وجدتُ أنَّ من المناسب أن أهزَّ رأسي إيجابًا. ثم رحتُ أشرح ما جرى لزكيَّة، مُبعِدةً أيَّة مسؤوليَّةٍ عن نفسي. وطلبتُ من الطبيبة المتفهِّمة تعقيم القطَّة، إذ في وضعها هذا من الصعب أن تتزوَّج. فوافقت بسرعة، وراحت تشرح لي تفاصيل العمليَّة الجراحيَّة لاستئصال المبيض، وعدم وجوب إزالة الرَّحم إلَّا إذا وجدوا فيه مرضًا يؤثِّر على نوعيَّة حياتها.

ومن أجل ذلك يجب أن أوقِّع على وثيقةٍ تترك لهم حرِّيَّة أخذ القرار، في حال توجَّب ذلك على طاولة العمليَّات.

ندمتُ كثيرًا حين عدنا إلى البيت. أحسستُ فعلًا بالذنب. ربَّما كان من الممكن أن أبحث لها عن ذكرٍ لطيف، غير شرسٍ أو عدائيّ.

وربَّما لم تكن لتحمل بعد لقاءٍ واحدٍ وحيد. قد أكون حرمتُها من متعة اللذَّة الجنسيَّة ولو لمرَّةٍ واحدة. ولست متأكِّدةً أبدًا إن كانت ذاقت تلك اللذَّة قبل عودتها مضرَّجةً إلى بيت أمِّي. وهل أكون أمليتُ على سلوك زكيَّة ما اعتمدتُه أنا نفسي في أمور الجنس؟

كنت حزينةً ونادمة. كان الجرح في أسفل بطنها مغطًّى بلاصقٍ عريض، والجلد من حوله حليقًا ومصبوغًا بالمطهِّر الداكن.

وضعتُ كيس العلاج جانبًا، ورحت أسترجع وصايا الطبيبة للعناية بها. رفضتْ أن تأكل. كانت تترنَّح قليلًا في مشيتها كأنَّها سكرانة، هي العرجاء أصلًا.

بسيطة زاكو. الآن ارتحنا من مشاكل الرغبة الكثيرة. خلصنا بالمرَّة من العواء والعدائيَّة والعنف واللطش بالمخالب. وقد نخرج معًا ونتنزَّه بسلامٍ وننسى الذكور. نمشي بعَرَجنا الخفيف أنا وأنت مسالمتَيْن وسعيدتَيْن، هانئتَيْن بنظافتنا. نتمشَّى في الشارع ونشتري أغراضنا بمزاج. وقد أحملك معي إلى حافَّة النهر. ستحلو الحياة. سترين.

الآن وقد أصبحتِ زاكو تمامًا ونهائيًّا. يلّلا مبروك.

ساءت أحوالي كثيرًا في البلاد الأخرى، في البلاد التي انتقلتُ إليها.

لم أعُد أحتمل التردُّد على مراكز العلاجات المتعدِّدة، والتي لم تكن مُجديةً في التخفيف من آلامي. بل إنَّ أوجاعي كانت تزداد في كلِّ مرَّةٍ يغيِّرون طرق العلاج ووسائطه، أو يبدِّلون في الأدوية.

عدا رحلات الباص الطويلة، وساعات الانتظار المرهِقة في مختلف العيادات الطبيَّة والفيزيائيَّة، فإنَّ كمِّيَّات الأدوية، من هورمونات ومهدِّئات ومضادَّات الالتهابات، صارت تخلق لي مشاكل جديدةً وعذاباتٍ جديدة. كانوا يردُّون فشلهم إلى أنِّي تأخَّرتُ كثيرًا في الاستشارة وفي عرض حالتي على الاختصاصيِّين. لم يكن أحدٌ منهم ينصت لما كنت أقوله عن ظروف عيشي في بلاد الحروب، لذا يكرِّرون ما كانوا قالوه مرارًا، حتى توقَّفتُ عن الشرح واكتفيتُ بهزِّ رأسي بالتواضع المطلوب. لكن حين كنت لا أردُّ ولا أشرح، كان واحدهم يعتقد أنِّي لا أفهم لغته، لا أفهم الفرنسيَّة، فيروح يكرِّر من جديدٍ مُعليًا صوتَه ومُقطِّعًا جمله وألفاظه، كأنِّي معوَّقةٌ عقليًّا لا جسديًّا فقط.

وشيئًا فشيئًا تحوَّلت رحلة علاجي إلى ركض فأر المختبر في دهاليز الاختبارات التجريبيَّة ومتاهاتها. يقذفونني من سردابٍ إلى آخر، ومن معملٍ إلى آخر، حتى وصلنا، وصلوا، إلى الجراحة.

سوف نعبر من هذا الأنف الصغير إلى الغدَّة المشاكسة في الدماغ الأمّور، من دون أن نفتح الجمجمة. هذا وعد. رفضتُ بقوَّة، فقال الطبيب اللطيف: لن تدفعي سنتيمًا واحدًا. ولن تشعري بالألم. مخدِّرٌ عموميّ. هناك أمل. هناك أملٌ بنسبةٍ كبيرة. نسبةٌ مرتفعة. وإلَّا... وإلَّا فالأمور سوف تسوء بسرعة. تسوء على الأكيد. يجب اتِّخاذ قرار. انتظرتِ أكثر ممَّا ينبغي. يجب عمليَّة.

بعد ساعاتٍ في العناية المُركَّزة حملوني إلى الغرفة. صباحًا يمرُّ البروفسور برفقة طلَّابه المتدرِّبين. يكلِّمهم ويشرح لهم بكلماتٍ لا يملك قاموسها غيره. قبل أن يخرج يبتسم لي بفمٍ واسعٍ وأسنانٍ كثيرة، كلُّه تمام يقول، ثم يلحق به الشباب كفراخ البطّ.

لم تنجح العمليَّة. صحيحٌ أنَّ الغدَّة المخرَّبة صغيرة، وأنَّ تكاثر خلاياها ما زال غير سرطانيّ، لكنَّها، الشرِّيرة، مختبئةٌ جيِّدًا، قابعةٌ بعيدًا في تلافيف جزءٍ من الدماغ صعبُ الوصول إليه...

ثم، عليَّ أن أفهم أنَّه كان باستطاعتهم المخاطرة، لكنَّهم لم يفعلوا من حرصهم، فتجنَّبوا إلحاق الضرر بأجزاء ذات وظائف حيويَّة. هكذا يكون عليَّ أن أشكر ربِّي، وحظِّي الكبير.

لم يشرح لي أحدٌ سبب المضاعفات التي تلت العمليَّة. فقط قالوا مضاعفات. وممنوعٌ الخروج من المستشفى.

ثمَّ، وبعد أسابيع معدودة، أخذوني إلى فتح الجمجمة. كان إقناعي سهلًا وسريعًا. فليفعلوا ما يشاؤون. لن تكون حالي أسوأ ممَّا أنا فيه. أوقِّع على أوراقٍ فحواها أنِّي أُخلي عنهم كلَّ مسؤوليَّة. أعرف أنَّهم يُجرِّبون ويتمرَّنون بجسمي، فأنا زبونٌ مثاليٌّ ومن الواضح أنِّي فقيرةٌ ولا أسرة تسأل عنِّي. لا بأس. أقلَّه أكون ذات فائدةٍ لعلم الطبِّ ومستقبل البشريَّة، فمن المؤكَّد أنَّ نواياهم طيِّبة وأهدافهم سامية.

فكَّرتُ بالهرب، لكن لم تكن لديَّ الطاقة الكافية لتنفيذ عمليَّة الهرب المعقَّدة: لا عافيةً جسديَّةً ولا ذكاءً متَّقدًا.

فشلتْ عمليَّة فتح الجمجمة. جاء البروفسور بعد أيَّام، أو إنِّي كنت نائمةً في المخدِّر عدَّة أيَّام. أدَّى الشروحات اللازمة لصيصان البطِّ المتحلِّقين حول فمه. لم يلتفت ناحيتي. لم يبتسم بأسنانه الكثيرة، ولم يقُل كلّه تمام. اعتقدَ ربَّما أنِّي لا أرى ولا أسمع، إذ كانت رأسي مدفونةً في صندوقٍ صلبٍ من الربَّاطات والأقفال المعدنيَّة الرفيعة، ومثبَّتةً حتى أعلى الخصر في ما يشبه قالبًا من الجبس.

لا أدري كم مرَّ من الوقت قبل أن يزورني الطبيب الشابُّ اللطيف، الشديد اللطافة، حاملًا قطعةً من حلوى المقروض المغاربيَّة، مفترِضًا أنَّها حلوى عربيَّة، يعني إجمالًا. توجَّستُ شرًّا.

قال بابتسامةٍ عريضةٍ كمَن يُقدِّم لنكتة: حسنًا. ليس الأمر بهذا السوء. الخزعة الصغتورة وجدنا فيها خلايا صغتورة ممكن أن تتحوَّل بشكلٍ شرِّيرٍ لتصبح سرطانيَّة. لكن نحن حرَّاسٌ أقوياء، ويجب أن نهذِّب هذه الخلايا الطائشة بالأسلحة المناسبة، أسلحتنا القويَّة المدمِّرة الشبيهة بتلك التي تشاهدينها في أفلام الأبطال الخارقين. سنرسل

أشعَّتنا لمحاصرة تلك الخلايا المتمرِّدة وتدميرها و... ما رأيك؟ على أيِّ حالٍ ليس أمامنا من خيار. ما رأيك؟ وإلَّا.

بدأوا بعلاج الأشعَّة.

ثم جرَّبوا أشعَّةً جديدةً اسمها «سكِّين غاما»، قالوا إنَّها تعمل بالقصِّ كسكِّين الجرَّاح. وأنا صرتُ أتسلَّى بالمنجزات العلميَّة، واتَّسعت معارفي في هذا المجال الأخَّاذ.

وذات يوم، وبهدف إظهار الاهتمام والمشاركة في الحديث، سألتُ الطبيب الشابَّ الشديد اللطافة: بصراحة، كم من الوقت يدوم علاج الأشعَّة الرائع هذا؟ قال بحماس: آه، يدوم طويلًا، لأنَّه من الأبطال الذين لا يستسلمون بسهولة. عظيم، قلتُ، كام يعني؟ فردَّ بخفَّة: له أن يدوم قدر ما يريد. بالنا طويل، وسنصبر حتى ترفع تلك الخلايا الفاسقة راية الاستسلام البيضاء. إنَّها معركة. ببلاش. ومن دون ألم. وبإمكانك الخروج والعودة.

كام يعني؟

يعني. حوالى عشر سنين. ماكسيموم. علاج ومراقبة. ماكسيموم.

هربتُ.

هربتُ، قلت لأمِّ منصور، التي كانت تسألني إن كنتُ أفدتُ من العلاج في أفضل مشافي العالم خلال إقامتي في «الخارج».

هربتُ، قلت لها، وحين عدتُ إلى غرفتي هناك وجدتُ أنَّهم، لطول غيابي، أعطوها لامرأةٍ أخرى.

قالت المسؤولة عن المأوى، وهي تسلِّمني كيسًا كبيرًا أزرق جمعوا فيه أغراضي، إنَّ غيابي كان طويلًا جدًّا، وهم لم يسمعوا عنِّي

أو منّي خبرًا، أو اتّصالًا واحدًا. آسفة، قالت، النازحون والمشرَّدون كُثُر، ومن غير المعقول أن نترك غرفتك فارغةً في مثل هذه الظروف. أرجو أن تتفهَّمي ذلك. عودي إلينا إن لم تجدي حلًّا، بعد أيَّام، أو أسابيع. حظًّا طيِّبًا.

رميتُ ما في الكيس الأزرق في أقرب حاوية. احتفظتُ فقط بالمعطف. انتحيتُ جانبًا، لبستُ المعطف وفتحتُ المظروف الذي أعطتني إيَّاه المسؤولة. وجدتُ بداخله رسالةً قصيرةً بخطِّ اليد من خوري رعيَّتنا، أرسلها عن طريق جمعيَّةٍ خيريَّةٍ تعمل بين البلدَيْن. الرسالة تُعزِّيني بموت أمّي.

استعدتُ الكيس من الحاوية، وجعلتُه غطاءً على رأسي كالمظلَّة إذ راحت تمطر بغزارة، والسماء سوداء، والنهار يقترب من المغيب.

خرجتُ من غرفة فرانسوا قبل الفجر، ومن دون أن أوقظ رامبو العجوز.

كان الظلام ما زال دامسًا، ورغم البرد القارص وجدتُ من سبقني إلى باب السفارة.

في الشارع الخالي كانت خبطات أقدام المنتظرين تُسمَع بوضوح، يحاولون إيقاظ الدم في الأطراف المخدَّرة بفعل الصقيع. واحدٌ من هؤلاء راح يتأفَّف قائلًا إنَّهم، أي موظَّفي السفارة، يستطيعون فتح البوَّابة الخارجيَّة الكبيرة وترك الثانية مقفلة، أقلَّه شفقةً على الناس من البرد والمطر في هذا الفصل. لا أحد يعلِّق. ثم يقول واحدٌ إلى الأقرب إليه إنَّنا شعبٌ يحبُّ النقّ... إذ كيف يمكن الطلب من موظَّفٍ الحضور إلى هنا قبل دوامه لفتح البوَّابة لمن جاء قبل الموعد بهدف الفوز بدورٍ قبل غيره؟ فيُجيب الرجل الذي كان يطالب بالشفقة، موليًا وجهه إلى جهةٍ مجهولة، إنَّ هناك حارسًا ليليًّا لمبنى السفارة، وباستطاعته أن يقوم بفتح البوَّابة الكبيرة بضغط زرٍّ واحد، لو كان هناك في الداخل من يهتمُّ بحال الناس. موظَّفٌ عنده ضمير. لكن هذا شعب... يلّلا.

أنا، أروح أحتسب عدد المنتظرين مجدَّدًا، وأفترض أنَّهم سيتوزَّعون على عدَّة مكاتب، كلٌّ بحسب طلبه، ولن يكون الانتظار طويلًا. يبقى أنَّنا سننتظر مجدَّدًا عند مكتب الاستقبال المواجه للمدخل من أجل تفتيش الأمن، ثم سنقف بالصفِّ لعرض الأوراق التي بحوزتنا ليتمَّ إرشادنا إلى المكتب المختصّ، هذا إن كانت الملفَّات مكتملة.

يخبطون أقدامهم في الأرض أيضًا من نفاذ صبرهم. يعاودون ترتيب الأوراق في حقائبهم وفي الملفَّات البلاستيكيَّة. وحين تمرُّ شاحنات لمِّ الزبالة يخفُّ التوتُّر، ونفكِّر بأنَّنا، في كلِّ الأحوال، أكثر حظًّا من عمَّال النظافة النشيطين، ولو أنَّهم يبدون في مزاجٍ مرحٍ وأقرب إلى ممارسة رياضةٍ مفيدةٍ ومحبَّبة. أو إنَّنا نُضفي ذلك المرح من عندنا، حيث نعرف جميعًا أنَّ الزبالة التي تتراكم في بلدنا لا أحد يلمُّها، وأنَّ المكبَّات والمطامر فاضت هناك على البلد والناس بمحتوياتها كتسونامي، على ما تصف الصحافة، المحليَّة وأيضًا الدوليَّة، وعلى ما نرى من الصور والمشاهد على التلفزيون.

أحاول استدرار شفقة الموظَّفة، وإقناعها بأنَّ ما أقوله لها هو الحقيقة الخالصة من دون زيادةٍ أو نقصان، أو أيَّة مبالغة. وأحاول أن أخمِّن من لهجتها من أيَّة منطقةٍ هي، ما هو دينها أو مذهبها، لأُشِيد ولو من بعيدٍ وبتلميحٍ ذكيّ بالزعيم الذي عيَّنها في السفارة هنا، لا بدَّ.

تبدو لي من أصولٍ ريفيَّةٍ لإكثارها من الماكياج، ومبالغتها في تصفيف شعرها وإلصاق الخصلات، الشقراء، ببعضها بعضًا. لا تتحرَّك حين تُحرِّك رأسها، كأنَّ تسريحتها خوذةٌ معدنيَّة. وهي، لو قلَّلت من مبالغاتها تلك، لبَدَتْ بنتًا أو سيِّدةً جميلة، وبان عمرُها الحقيقيّ. لكنَّها

تعتقد، على الأرجح، أنَّه هكذا ينبغي أن تكون عليه أمور الأناقة والترتيب في بلاد الأجانب، وأنَّ عليها أن تُبدي اهتمامًا بشكلها بحيث تكون مستحِقَّةً الوظيفة عن جدارة، وليس فقط بالواسطة. إذن هي جديدةٌ في وظيفتها، وإلَّا لَمَا استفاقت باكرًا هكذا، وأجهدت نفسها في إبعاد شُبهةٍ يشترك فيها زملاؤها جميعًا، وبالكفاءات نفسها.

عليَّ أن أكتشف بسرعةٍ مشارب الموظَّفة من لهجتها، لكنَّها لا تتكلَّم كثيرًا وتقول إنَّها كلُّها آذانٌ صاغية. كلماتٌ قليلةٌ شجَّعتني فيها على الكلام، كانت أقرب إلى الفصحى. ربَّما هي تعليمات السفارة. ثم انتقلت إلى فرنسيَّةٍ تقريبيَّة، شابتها عدَّة محطَّاتٍ بالإنكليزيَّة، وراحت تبتسم، علامةً على قرب نفاد صبرها.

قدَّمتُ لها التقارير الطبِّيَّة وكلَّ ما معي من أوراق، وبدأتُ بالاعتذار سلفًا لأنَّ طلبي معقَّد، وليس سهل التحقيق، ولكنِّي لا خيار أمامي سوى تفهُّمها وكرم أخلاقها. أمِّي ماتت بعيدًا عنكِ. أريد العودة إلى البلد، على الأقلِّ لدفنها. نعم، ماتت من فترة، أقلَّه أُصلِّي على قبرها. أريد أن أعود إلى وطني وليس معي ثمن بطاقة السفر، وأنا كما ترين مريضة، جدًّا، وأعيش مشرَّدةً في الشارع. هذا كيس الأدوية. خرجتُ لتوِّي من المستشفى كما تدلُّ أربطة رأسي. مقطوعةٌ من شجرة. ليس لي سوى اللّـه والسفارة. ليس للإنسان سوى وطنه. مسقط رأسه.

أقول وأزيد بنغمةٍ حزينةٍ كأنَّ كمانًا يصاحبني، وهي تنظر في الأوراق وتهزُّ رأسها أسفًا ولا تنظر إليّ. تتجنَّب النظر إلى شكلي الذي زادته الرباطات فداحة. يكاد يُغمى عليَّ من شدَّة التعب، لكنِّي أتابع. أريد أن أعرف ما يدلُّني على واسطتها أو ربِّها.

تقول بصوتٍ رفيعٍ يخرج من خوذتها بتقطُّع: مدام. تعرفين. صعوبة الوضع في البلد. مدام. صعبٌ جدًّا. لا أقرباء؟ مممم. لا تلفون؟ ممممم. سنحاول. مدام.

وقفتُ أشكرها. ليس لي غير اللّـه وأنتِ. ليس لي غيركِ. أنتِ وضميركِ. أعرف أنَّ عندكِ ضمير. هذا بادٍ في عينَيْكِ الجميلتَيْن الحنونتَيْن، واللّـه سيعوِّضكِ في صحَّتكِ ويردُّ المصائب عن عائلتكِ.

خرجتُ من مبنى السفارة، وكانت الشمس قد أشرقت وأضاءت السماء. كنت راضيةً عن نفسي كمَن أدَّى واجبًا مُضنيًا. فعلتُ ما بوسعي، وقد نجحتُ في استعمال لغةٍ محايدة، بلا لهجاتٍ أو مراجع، وقريبةً مبدئيًّا من لغة الموظَّفة الريفيَّة، أقلَّه من ناحية الأسلوب.

اشتريتُ خبزًا ساخنًا لي ولفرانسوا. سأصل قبل أن يصحو ويبدأ بالشرب. ثم تذكَّرتُ رامبو فعدتُ إلى المخبز وسألتُ البائعة عن شيءٍ بائت للكلب، فأعطتني كرواسان عتيقًا، وحمَّلتني السلام للكلب بعد أن سألتْ عن اسمه، فأعجبها رامبو وأعفتني من الثمن.

الناس هنا يحبُّون الكلاب. كثيرًا.

كلُّ هذا رويته لأمِّ منصور، قبل أن تسافر وتترك البلد.

كانت تبكي بحرارةٍ وهي تعطيني أكياسًا كبيرةً وصناديق كرتونيَّة. خضارٌ وفاكهةٌ وأرزٌّ وسُكّرٌ ومعلَّبات. وأعطتني غطاءً صوفيًّا وسجَّادةً حمراء صغيرة، وقالت إنَّها باعت كلَّ ما كان في بيتها، كأنَّها تعتذر. كانت شقَّتها، التي لم أزُرها كثيرًا، أكثر بؤسًا في فراغها، وأكثر فقرًا.

لم تأتِ أمُّ منصور على ذِكر السفر قبل ذلك. انفطر قلبي من المفاجأة حزنًا وخوفًا. قلتُ هذه المرأة التي أحبَّتني وأشفقتْ عليَّ ستتركني لوحدي، لوحدي وحيدة. ولن أجد مثلها.

ما الذي حصل يا أمَّ منصور؟ لم أكن أعرف.

قالت وأنا كذلك. لم يكن عندنا كبير أملٍ بقبول أوراقنا. اللَّـه أشفق. لكنِّي مقهورةٌ وخائفة. أنا لا أعرف شيئًا عن ألمانيا. لا البلد لا الشوارع لا الناس ولا لغتهم. حتى أبو منصور كان يبكي ليلة أمس في فراشه. عملتُ أنِّي لا أسمع ولا أرى. الوضع صعبٌ هنا، وأنتم تحمَّلتم منَّا ما يكفي. بلدكم كلُّه تحمَّل ما يكفي. لا تؤاخذيني يا أختي. تعرفين أنَّه لم يَعُد عندنا بلدٌ نعود إليه. انتهى. فأيُّ أرضٍ في بلاد اللَّـه تقبل بنا نذهب إليها. ألمانيا أو غيرها، ما الفرق؟

وداعًا يا أختي، قالت أمُّ منصور وهي تضمُّني إليها. يا أختي، قالت أمُّ منصور مرَّتَيْن وهي تودِّعني. وأنا واقفةُ أمام بابي أغصُّ بالكلمات، ولا تصل الدموع إلى عينَيَّ وأنا أراها تلحق بزوجها على الدرج للمرَّة الأخيرة. وأعرف أنَّه لم يحصل في حياتي أن حزنتُ كلَّ هذا الحزن، أو شعرتُ بمثل هذه الوحشة بعد وداع أحد.

أنا امرأةٌ لم يكن يهمُّني أن أكون وحيدة. كنت مهيَّأةً لذلك تمامًا منذ سنين عمري الأولى. لم أشعر مرَّةً بغصَّةٍ لوداع أحد. لم أحنَّ يومًا لمن تركني. لم أشعر يومًا بخسارة من تركتُه. قلبي ينسى بسرعة، وجلدي لا يحتفظ ببصمات الناس كأنَّه من مادَّةٍ سائلة. فأنا امرأةٌ قديمةٌ لكن لا ذاكرة لي، لذا أملك قدرةً جبَّارةً على المحو، قدرةً مذهلةً تُحيِّرني أنا نفسي.

لكنَّ أمَّ منصور قالت يا أختي. وأنا التي لا أخوات لي رحتُ أفكِّر كم كان بودِّي أن يكون لي أخت. كم كانت حياتي لتختلف لو أنَّ لي أختًا غير تلك التي ماتت قبل ولادتي، وحملتُ وسوف أحمل ما حييتُ جثَّتها الصغيرة على ذراعَيَّ وأتعثَّر. صباحًا حين تصحو في مهدها، ومساءً عند رندوحة النوم. وأراها في المرآة لشدَّة ما أشبهها، حيث هي مكثت جميلةً كالملاك في تصاوير الكنيسة، وأنا أكبر في العمر وفي القبح. تُبعِدني صورتُها التي احتفظتْ بها أمِّي إلى بلاد الخوف والوحشة، والمرض والموت، وهي تبقى كما هي في المرآة. لا تكبر ولا تشيخ ولا تموت. فقط هناك، وتنظر إليّ.

ليس لي مزاجُ بالخروج. أتغطَّى بحرام أمِّ منصور الصوفيِّ من دون أن أشعر فعلًا بالبرد. والقطَّة تنام قبالتي على السجَّادة الحمراء،

هانئةً في سُمنتها الجديدة. تنظر إليَّ بطرف عيْنها الحنون، فألاطفها وأقول لها: كلُّ شيءٍ على ما يرام زاكو. أنا هنا.

عجيب، أفكِّر الآن، عجيبٌ كيف لم يخطر لي يومًا أن أسأل أمَّ منصور عن منصور.

عجيبٌ كيف لم يخطر لي أن أسأل أمَّ منصور عمَّا تقصد حين تقول بلادي. أهي سوريَّة أو فلسطينيَّة؟

تأخَّرتُ عن السؤال، وهي مشت في أرض اللَّـه الواسعة.

أحدِّق في صورة هند حتى يغشى نظري. لا أدري كيف عادت الصورة إلى أمِّي ومتى.

صرختُ في الخوري. وَلْوَلْتُ ورحتُ أدفعه بالقوَّة عن الباب. صار يقول إنَّ الطفلة سوف تبقى عالقةً في المطهر، وسيكون هذا ذنبي إلى الأبد. رحتُ أبصق عليه وأدفعه من جديد، روت أمِّي. مرَّةً واحدةً لم تَعُد إليها، هي التي تحبّ تكرار حكاياتها.

لكنَّه عاد برفقة عمَّاتك. كنَّ باكياتٍ نائحاتٍ متَّشحاتٍ بالسواد. والجارات الشلكَّات الشراميط تكاثرن حولي. ربطوني وأبعدوني، جرُّوني بعيدًا عن سريرها. أخذوها. أخذوا كلَّ شيءٍ بسرعة البرق. هنَّ عمَّاتك الثلاث، ومعهنَّ الخوري وناسٌ وجيرانٌ رجال. حملوا سريرها بما فيه، وثيابها وأغراض الحمَّام. حتى القطن والحفَّاضات والصابون وزيت التدليك والبودرة. كلُّ شيء. والصورة، صورتها، نزعوها عن طرف المرآة وأخذوها. عمَّتكِ الكبيرة كانت تلفُّ ذراعَيْها حول رقبتي وكتفَيّ. سوف تموتين قهرًا، كانت تصيح. سنُعيد لك كلَّ شيءٍ بعد أن تهدأي. كنت أختنق. أخذوها إلى القبر، وأنا ألصقوا بصدري العاري صورة العذراء مريم لتساعدني، لأنَّها هي أيضًا فقدت ابنها. لم يتركوا حتى أثرًا لرائحتها. سلخوها سلخًا عن جلدي. سلخوني حيَّة.

مرَّةً واحدةً روت أمِّي عن موت هند. مرَّةً واحدةً وحيدة. بعدها لم تأتِ على سيرتها، لا ميتةً ولا حيَّة. وبقيت تكره عمَّاتي، وإن هي أتت على ذكرهنَّ لا تحكي سوى الروايات الطريفة والجميلة عن حنانهنَّ وحبِّهنَّ لي وأنا صغيرة.

مرضتْ هند ليلةً واحدة. عرفتُ ذلك في ما بعد. أصابها إسهالٌ حادٌّ وتقيُّؤ. سهرتْ أمِّي قربها طيلة الليل، تعالج حرارتها المرتفعة بلصقات من الخلِّ والماء البارد. كانت تنتظر نهاية القداديس لتأخذها إلى الطبيب في بيته، إذ كان يوم أحد. لم تفهم. طيلة حياتها لم تقدر أن تفهم، ولا أرادت ذلك.

اعتقدتْ أمِّي، لا بدَّ، أنَّ جهلها قتل هند، فقرَّرتْ أن لا تفهم ما شرحوه لها عن انخطاف طفلتها البكر في ليلةٍ واحدة، وكانت بكامل صحَّتها. لم يتقبَّل عقلها أنَّ بضع جرعاتٍ صغيرةٍ من الماء كانت كافية. غير معقول. غير ممكن. لأنَّها كانت تتقيَّأ باستمرار. لذا، ربَّما، كانت دائمة البحث عمَّا تسمِّيه العلم، ودائمة التشكيك بما يقول ذلك العلم. تجمع قصاصات الجرائد والمجلَّات، وتراكيب الأدوية على الروشتات، وتعلِّق على فشل التجارب بخطِّ يدها. تقول إنَّ هذه الكتابة تشبه كلام الخوارنة عن العجائب، مفضِّلةً العجائب، إذ يقول المؤمنون بها إنَّها ظواهر غير طبيعيَّة، ولا يدَّعون أنَّها حقائق مطلقة كما يفعل الأطبَّاء المنفوخون عجرفةً ووقاحة.

بعد موت هند بسنتَيْن أو أقلّ، أنجبتني أمِّي. وأنا كنت الأعجوبة، أعجوبتها، إذ كنت نسخةً طبق الأصل عن هند. طبق الأصل فعلًا، وقد رأيتُ ذلك بأمِّ عيني. يصعب تصديق مدى شبهي بهند. أتفرَّس في

الصورة التي وجدتُها هنا. أتفرَّس طويلًا في وجهها فأرى وجهي في العمر نفسه. فأنا أتذكَّر جيِّدًا صورةً لي أكبر حجمًا، كانت موضوعةً في إطارٍ فضِّيِّ اللون في غرفة أمِّي. لكنِّي لم أجدها هنا في هذه الشقَّة. ربَّما رمتها أمِّي بعد أن مرضتُ، أو هي ضاعت. أو إنَّ أمِّي استبدلتها بصورة هند لأنَّ هند لن تمرض. أو إنَّها اعتقدت أنِّي أنا في صورة هند. إنَّنا نحن الاثنتَيْن لنا صورةٌ واحدةٌ لأنَّنا الشخص نفسه، الطفلة ذاتها. لا يكفي الاعتقاد بأنَّ ذلك جاء نتيجة الخرف، أو أنَّ شدَّة الشبه بيننا سهَّل عليها أن نكون طفلةً واحدة، أقلَّه بعد عودتها من المستشفى.

أختان توأمُ أنا وهند، في زمنَيْن مختلفَيْن. زمنان مختلفان لكنَّهما اختلفا بلا معنى، في تفاصيل صغيرةٍ بلا معنى. الفارق هو ما يحيط بالوجهَيْن. ففي صورة هند لا نرى جسمها. عدسة الكاميرا قريبةٌ من وجهها، وفي الطرف جزءٌ من الذراع التي كانت تحمل هند، أو تلتفُّ حول كتفَيْها. وفي صورتي أنا، الطفلة مثبتةٌ على كرسيّ، وتظهر وراء ظهرها مساندُ صغيرة، مزدانةٌ بالكشاكش على أطرافها، وفي وسطها ورودٌ مطرَّزة. أنا لا تحملني أو تلفُّ كتفَيَّ ذراع، بل هي الزينة، زينة الكرسيِّ ومساندها، تحيط بي وتسندني.

حتى أنا، يشكُلُ عليَّ الأمر أحيانًا حين أطيل التحديق، حدَّ التساؤل إن كانت الصورة الصغيرة التي بين يدَيَّ هي صورة هند أم صورتي أنا. أنا هنادي.

ثم... أين أبي؟ أين أبي في الحكاية؟

هل كان هناك، مع الناس الذين أخذوا هند إلى القبر؟ ألهذا كرهته أمِّي حتى محته؟

أفكِّر كثيرًا بأمِّي بعد رحيل أمِّ منصور، لا أدري لماذا.

أروح أبحث بمزيدٍ من التركيز عن آثارٍ لها في هذه الشقَّة، قد تكون تركتها لي عن غير قصد. بالطبع عن غير قصد، فهي لم تكن تتوقَّع عودتي، أو أنَّها نسيتني، فلمَ قد تترك لي أيَّ شيء؟

مع هذا أفكِّر بأنِّي حين دخلتُ هذه الشقَّة للمرَّة الأولى كنت منشغلةً بأمورٍ كثيرةٍ أخذت منِّي طاقةً ووقتًا، أهمُّها التنظيف واستبدال ما لم يَعُد صالحًا للاستعمال، وأشياء من هذا القبيل. ثم إنِّي كنت أطلب من أمِّ منصور، التي عرفتْها، أن تحكي لي عنها، فلم أتقفَّ أثرها بما فيه الكفاية. فأنا، مثلًا، لم أفتح علبة الخياطة التي أعرفها جيِّدًا من زمان. وجدتُها كما هي، علبة البسكويت نفسها، لكن مع قليلٍ من الصدأ حول غطائها. وأنا لا أُحسِن الخياطة ولا أحبُّها، ولا تساعدني غلاظة أصابعي واعوجاجها في مغامراتٍ كهذه. لكنِّي قلتُ في نفسي إنَّ هذه العلبة قد تحوي مفاجأةً ما، أو سرًّا ما، وكأنِّي عدتُ تلك الطفلة المغرمة بالأسرار والعلب. وما زلت حتى الآن أحبُّ العلب، ولا أرمي تلك الفارغة، صغيرةً أو كبيرة، ومهما كان نوعها، كرتونيَّةً أو بلاستيكيَّةً أو خشبيَّةً أو معدنيَّة، حتى ولو لم تكن لها فائدةٌ متوقَّعةٌ أو وجهة استعمال.

لا أرميها إلَّا بصعوبةٍ بالغة، وحين يضيق بها المكان. ثم اكتشفتُ أنِّي لست فريدةً في هذا التعلُّق، إذ يُحتفى باليوم العالميِّ لحبِّ العلب في أواخر الأيَّام من السنة.

عذَّبني الغطاء، وكان عليَّ تذليل آثار الصدأ بالزيت، فمن المؤكَّد أنَّ أمِّي أهملت هوايتها بالتزيين والابتكار لسنواتٍ طويلة. وجدتُ البرطمان إيَّاه، كأنِّي أغلقتُه بيدي. كان يحوي كافَّة أنواع الأزرار، الأزرار التي لم تستعملها أمِّي، وتلك التي نزعتها من ثوبٍ قديمٍ قبل رميه. الأزرار في برطمانها كانت لعبتي المفضَّلة على شرفة بيتنا، أقضي فيها الساعات الطوال وأنسى الدنيا. أحاول الآن أن أسترجع نوع اللهو الممكن لقضاء كلِّ هذا الوقت مع الأزرار. صحيحٌ أنَّها متنوِّعة الأحجام والألوان، لكنِّي لا أجد وأنا أتفحَّصها الآن سوى طريقةٍ واحدةٍ لقضاء الساعات السعيدة التي أتذكَّر طعمها بسهولة، وهو أن أصفَّها، بحسب الحجم، أو بحسب اللون، صفوفًا طويلة. ثم أُبعثرها من جديدٍ لأصفَّها مرَّةً أخرى، إمَّا بحسب اللَّون أو بحسب الحجم. وإلَّا ما الممكن اختراعه في لعبة الأزرار هذه؟ سوى أنِّي كنت طفلةً وحيدةً جدًّا، ولا أحد يلهو معي بأزراري، أو بلعبةٍ أخرى تستلزم أكثر من لاعبٍ واحد.

أحزن قليلًا، وأفكِّر بأنَّه لم يكن لديَّ ألعابٌ من النوع الذي يُشرى من الأسواق، أو الذي يتشارك فيه الأولاد، اثنان أو أكثر. أي أنَّه لم يكن عندي رفاقٌ ألعب معهم. هذا لا يعني أنِّي كنت طفلةً محرومة، لكن كلُّ ما كانت تشتريه لي أمِّي كان للزينة، زينتي. كانت تحمل لي هدايا كثيرة، كلُّها لكي أبدو أكثر جمالًا وتألُّقًا، وأكثر أناقة. ثيابٌ وأحذيةٌ وأساور وشرائط للشعر. وهي دائمًا تعدِّل فيها، تضيف أشياء أو

تبدِّل في استعمالاتها، كأنْ تنزع وردةً عن بكلة حذاءٍ لتجعلها دبُوسًا للشعر، أو إن تضيف نجمةً من زينة شجرة الميلاد إلى قبَّة سترتي الشتويَّة. لم أكن ولو لمرَّةٍ أشبه البنات الأخريات. وكلَّما فتحتْ أمِّي علبة الخياطة كنتُ أُصاب بالغثيان، خاصَّةً في المناسبات الكبيرة والأعياد، إذ أعرف أنَّها ستسوقني أمامها بكلِّ فخر، كطاووسٍ وسط أولاد الآخرين المتشابهين برأيها كفراخ الدجاج. كلُّهم في مجموعةٍ متناسقة، بفروقٍ صغيرة، وأنا لوحدي، على حدة، لا يتحرَّك فيَّ سوى قدمَيَّ لألحق بأمِّي، ولأحافظ على بهرجتي ممَّا أضافته خياطةً أو لصقًا، إذ أخاف أن تقع عنِّي. تلكزني أمِّي وتقول بصوتٍ خفيض: انظري كيف يحدِّق بك الأولاد. وأنا أمام عيونهم المندهشة كلُّ ما كنت أريده في حياتي تلك هو ألَّا يراني هؤلاء الأولاد. أن أمرَّ كشبحٍ خفيٍّ أمام عيون الأولاد القساة واللئيمين.

لا شيء كان يحيد بأمِّي عن اهتمامها بي. حتى الحروب، والمعارك الطاحنة التي كانت تشلُّنا عن الحركة، والتي حين تهدأ كان الناس يروحون إلى أمور التسوُّق والطبخ والبحث عن تصليح ما انكسر أو تهدَّم، فيما كانت أمِّي إمَّا تنصرف إلى نوبة تنظيفٍ محموم وعصابيٍّ لكلِّ ما تطاله يدها أو تقع عليه عيْنها في البيت، حتى في الزوايا النظيفة، أو تذهب إلى علبة الخياطة لتزيِّن حياتي. وأنا منصرفةٌ إلى أزراري، أصفُّها وأبعثرها من جديد.

في علبة الخياطة وجدتُ أيضًا بقايا شريط الدانتيلا الأبيض ملفوفًا على ورقٍ مقوّى، ذلك الشريط الذي أضافته أمِّي إلى أطراف ثوب مناولتي الأولى، ثم إلى أجنحتي...

ترددتُ قليلًا أمام مرطبان الأزرار. خطر لي أن أبقيه جانبًا لأعود إلى لعبتي المفضَّلة على شرفة هذه الشقَّة. ثم أغلقتُ علبة الخياطة ووضعتُها على رفِّ الخزانة حيث وجدتُها.

غضبٌ خفيفٌ وعتب. كنت أتمنَّى أن تكون أمِّي حاضرةً أمامي.

لماذا احتفظتِ بشريط الدانتيلا الأبيض ولم تحتفظي بأيِّ شيءٍ لي، أو يذكِّرك بي؟ كيف حصل ألَّا أجد صورتي هنا، تلك التي كنتُ فيها ما زلت جميلة؟ وها أنا أرى أنَّك كنت تخطِّطين لاستعمال تلك الدانتيلا ثانيةً بانتظار مناسبةٍ ما، ملفوفةً بعنايةٍ ومغطَّاةً بقماشٍ سميكٍ خوفًا من اتِّساخها.

أكلِّم أمِّي أحيانًا بالصوت المسموع فتجفل زكيَّة. أكلِّمها وأتابع بحثي عن أثرٍ لي هنا، في دائرةٍ مغلقةٍ من العبث الخالص، بلا هدفٍ أو معنى، مع شعورٍ مسبقٍ بالندم، وبمرارته المقبلة حتمًا.

أشغل وقتي التافه بأسئلتي التافهة، لكنَّها أسئلةٌ تطفو وتأخذ مكانها بالقوَّة كالطفح الجلديّ. لا إرادة لنا في الطفح الجلديّ، ولا ينفع الحكاك إلَّا في تهييجه وإدماء التهاباته بأظافر يحرِّكها العُصاب.

ما الذي أريده الآن من أمِّي التي نسيتْني، أنا التي نسيتُها تمامًا في البلاد الأخرى؟ لم أتذكَّرها إلَّا بعد أن لفظني العالم. لم أتذكَّر حتى موتها سوى بعد زمنٍ لم أعُد أتبيَّنه الآن.

تذكَّرتُ موتَها آملةً بأن أجد بيتها فارغًا منها لأتلطَّى تحت سقفه. لأجد شيئًا ما، أيَّ شيء، بعد أن قلبتُ كفَيَّ مرارًا نحو السماء ولم أجد عليهما سوى بُراز الطيور.

أمِّي التي لم يكن لها غيري في دنياها، وأحبَّتني بما استطاعت، وبما اخترعت وادَّعت ولفَّقت، كيف يعنُّ لي الآن أن أنتقم منها؟ أن أكون وضيعةً إلى هذا الحدّ، حدِّ خيانة ذكراها؟

لكنَّ ذكراها لا تتطابق مع ذكرياتي عنها. أكرِّر في رأسي أنَّها كذَّابة، أعني عن قصدٍ وتقصُّد، ولا أركن إلى اتِّهام نفسي بالخيانة. لا يتعلَّق الأمر بالأخلاق، بأخلاقي. ثم، من خان الآخر؟ هه؟ من؟

انتهى الأمر بأن اخترعتكِ اختراعًا لأتنفَّس، بأن صدَّقتُ بأنَّكِ تشفقين فعلًا، ولو أحيانًا، على كائنات الربّ. على الحيوانات، أو على العجائز، مثلًا، وبخاصَّةٍ البشعات القبيحات منهنّ، كتلك التي لقَّبتِها بالسنسكريتيَّة على مسمعٍ منها، تحبُّبًا ومزاحًا. كنت تطعمينها وتعطينها مالًا وثيابًا وحنانًا ورأفة، فيما أسمعك من عليَّة المطبخ تندبين حظَّك من آثار السنين على وجهك الجميل، وتغنِّين بحنينٍ جارحٍ لسنوات الصبا الذاهبة عن خصرك الذي كان ناحلًا.

أين أجدكِ في كلِّ هذا، وأنا أسحب وجبتي من الفتحة بعد أن تزيحي السلَّم الخشبيَّ بعيدًا، فأريحكِ من رؤيتي، وآكل ككلبٍ وحيد؟ شفقةً عليكِ أكتم ألم مفاصلي، وأنا أراقب أطرافي تتضخَّم أمام عينَيَّ وتطقطق في صمت الليل الطويل. ومن دون حاجةٍ لمرآةٍ أرى تحوُّلي السريع إلى ما يشبه المسخ، وأُبقيك بعيدةً عنِّي.

الآن، وأنا أطيل النظر إلى قصاصات جرائد ممَّا تركتِه هنا، فيها صورٌ لمجرمين مشهورين كانوا رائعي الجمال. قتلةٌ بالجملة شديدو الوسامة. مجرمون بالفطرة والسلوك. من الماضي حتى حاضر أيَّامك، ومن أنحاء العالم أجمع. طبَّاخو أعضاء، وآكلو أكبادٍ وأثداءٍ وأعضاء

جنسيَّة. عباقرة، ظواهر في الذكاء والمهارة وحنكة التخطيط. ووسامةٌ خارقة. هل احتفظتِ بصورهم دليلًا على أنَّ «الجمال ليس كلَّ شيء»؟ وهل كنت تعودين بانتظامٍ إلى تلك الصور كلَّما غزا رأسَك الشكُّ في صحَّة شعاركِ هذا؟ أم أنَّكِ قرَّرتِ النسيان، الخرف، حلًّا؟ وجدتِ أنَّ ذلك هو الحلُّ الذهبيّ، فقرَّرتِ أن تخرفي. لماذا لا أجد في أوراقك صورًا لبلادك كتلك التي كنت تلصقينها حتى على جدران المطبَخ؟ بلادك الأجمل على وجه الأرض، التي كنت تغنِّين لها وتبكين من فرط الحبّ. ألأنَّ الحروب شوَّهتها هي الأخرى؟ حسنًا، العذراء مريم بقيت جميلة، وستبقى كذلك إلى الأبد، فلماذا لم تحتفظي بصورتها التي ألصقتها عمَّاتي على صدرك العاري؟

وأنا؟ لماذا رميتِ صوري؟

والصليب المعدنيُّ الصغير؟ أين هو؟

لو كانت أمِّي هنا تسمعني لقالت: خرا بالخلّ. فهي، بهاتَيْن الكلمتَيْن، كانت تعلِّق على كلِّ ما لا يعجبها ولا تحبُّ الخوض فيه.

لو سمعتْ خطبتي العصماء هذه وأسئلتي الوجوديَّة الخطيرة، لردَّت عليّ: خرا بالخلّ...

أرجع إلى حافَّة النهر الذي ليس نهرًا حين يكون الطقس صحوًا وشمسًا. وأصطحب زاكو معي حين يحملني إلى هناك نبيل، في سيَّارةٍ من السيَّارات التي يقوم بتصليحها في الكاراج. يوصلني ويعود بسرعةٍ قبل أن ينتبه معلِّمه أو الزبون مالك السيَّارة. حين أخاف عليه من تبعات الخدمة التي يقدِّمها لي، وهي ثمينة، يقول لا عليكِ، حتى لو لاحظوا أو سألني المعلِّم عن غيابي سأجيب بأنِّي كنت أجرِّب السيَّارة. وحين يُنزلني نبيل حيث أريد، لا يعدني برجوعه مساء. لا تتَّكلي عليَّ يا حجَّة، فأنتِ تعرفين ظروفي. لا تنتظريني بعد الغياب، وإذا تعذَّر عليكِ أن تعودي مشيًا، أو إن أمطرت السماء، اركبي تاكسي. ويضيف ممازحًا: عمره ما حدا يورث.

يحبُّني نبيل، ولو قليلًا. وأفرح كثيرًا كلَّما رأيتُه.

بعد يومٍ عاصفٍ أو أيَّامٍ ممطرةٍ يتغيَّر المشهد. تسير في المجرى الواسع سوائل غامضةٌ بألوانٍ متداخلة، تتهادى كخيوطٍ مجدولةٍ أو كحبالٍ عريضة. سوائل لا تشبه المياه في شيء. كأنَّها خارجةٌ من مطابخ أو مصانع غامضة، من فبارك من عصورٍ غابرةٍ قبل اكتشاف الألوان المركَّبة. لزجةٌ ومخفوقةٌ ويعلوها الزبد رغم جريانها البطيء. كأنَّ هذه

السوائل تصل إلى المجرى من دون أن تشوبها ولو قطراتٌ من ثلوج الجبال البيضاء العالية. كأنَّ سواقي الثلج والينابيع العديدة تصبُّ في بلادٍ أخرى.

المجرى عريض، لكن لا عمق له يتناسب مع تسطيحه. كأنَّه حافَّة هاويةٍ لا تهوي على شيء، أو كأنَّ من هندسه وحفره لا يتوقَّع أن تجري فيه مياهٌ دافقة، ولا أن تنسكب من سمائه أمطارٌ غزيرة. هذا ما يزيد في غرابة هذه المدينة، إذ كلَّما أمطرت غرقت الشوارع كلُّها وباتت كبحيراتٍ متفرِّقة، ما يجعل خروجي من البيت مستحيلًا، ولا يمكن التخطيط لنزهاتي مسبقًا. لذلك حين يسألني نبيل عن مشاريع خروجي إلى النهر ليستعير سيَّارة، أبتسم له وأشير بإصبعي إلى السماء. ونبيل يعرف أنَّنا لا نستطيع الوثوق بسمائنا، التي قد تتحوَّل من مُشرقةٍ مشمسةٍ إلى غائمةٍ عاصفةٍ ممطرةٍ في دقائق. لكنِّي أحبُّ أن يستمرَّ اهتمام نبيل بي، وأفكِّر بأنَّه ولدٌ يعزُّ أهله ويكرمهم. وهذا في جيله أمرٌ نادر، على ما توحي الأجواء.

وزكيَّة أيضًا تحبُّني، ولم تحقد عليَّ بعد عمليَّة تعقيمها في المستوصف الأجنبيّ. وحين نكون معًا على حافَّة النهر لا تبتعد عنِّي سوى أمتارٍ قليلة. ومرَّةً حملتْ لي عصفورًا ميتًا، اصطادتْه ولم تأكله. وضعتْه قرب قدمي وراحت تنظر إليَّ كأنَّها تنتظر أن أشكرها على الهديَّة. احترتُ في ما ينبغي عليَّ فعله. هل أُربِّتُ على رأسها مبتسمة، أم أزعق فيها معترضةً على قتل العصافير الصغيرة؟ لكنَّها، حين حملت في فمها صرصورًا كبيرًا ميتًا، تركته أمامي على السجَّادة الحمراء، ضربتُها على رأسها. لم تزعل أو تحرن أو تُخرج مخالبها، ورحتُ أنا أعيد النظر في ردِّ فعلي. ربَّما كان عليَّ أن أشجِّعها على مساعدتي في تنظيف الشقَّة

من الحشرات... وهذا عيبٌ فيّ، فأنا كثيرة التردُّد والحيرة حتى إزاء القرارات التافهة، كأن أطيل التفكُّر في اختيار ماركة علبة اللَّبن، إن كان في ثلَّاجة الدُّكَّان أكثر من ماركةٍ واحدة. تكون المحتويات هي نفسها، وأبقى أتفرَّس في العلب وقتًا غير معقول. ربَّما لأنِّي دومًا لوحدي، لا أحد إلى جانبي أسأله أو أستشيره، أو هو يستحثُّني على الإسراع لأنَّ الأمر سيَّان ولا يستحقُّ التفكير الطويل.

أشعر بالندم، وأقول إنِّي لن أضرب زاكو على رأسها حين تأتيني بصرصورٍ آخر. فكونها غير حقودةٍ ووديعةٌ ولطيفةٌ معي لا يبرِّر سلوكي العنيف وغير المدروس. فأنا لا يحقُّ لي استغلال طيبتها، بل حبِّها، لأنَّ زكيَّة تحبُّني. والحبُّ هو ما دجَّنها لا استئصال الشبق من مبيضها، ولا هو حبُّ مصلحة، مصلحتها بجانبي، إذ أوفِّر لها المأكل والمبيت بعيدًا عن أخطار الشوارع. أنا مقتنعةٌ بذلك، والدليل هو رفضها أن تأكل العصفور الذي اصطادته من أجلي حتى حين هنَّأتها وأعدته إليها: نم نم زاكو. كليه. نم نم. رفضت.

الحبُّ يغيِّر الناس، والحيوانات أيضًا. ليس دائمًا نحو الأفضل، بل في أكثر الأحيان.

وفرانسوا أيضًا أحبَّني. فرانسوا أحبَّني كثيرًا. فرانسوا، أو رشيد، وهو اسمه الحقيقيُّ الذي لم يكن يسمح لغيري بأن يناديه به، وفقط حين نكون لوحدنا، أحبَّني فعلًا وبحسب ما يُروى عن حكايات الحبِّ الكاملة، بحبكتها الكاملة.

نسيتُ الوقت. غاب عنّي أنَّ الساعة تجاوزت التاسعة ليلًا ولن يفتحوا لي بوَّابة المأوى. غشَّني الطقس ونور بداية الربيع الذي يطيل من ساعات النهار. يتأخَّر مغيب الشمس يوميًّا مع بداية الربيع، ومن لم يولد ويكبر هنا لا يتعوَّد على نظام الضوء.

فكَّرتُ، وأنا ما زال رأسي ملفوفًا برباطات المستشفى، أن أذهب إلى أقبية المترو، لكنَّ التوقيت غير ملائمٍ للقعود هناك وسط الحركة التي ما زالت ناشطة. وأنا أخاف كثيرًا من المشرَّدين الآتين من أوروبا الشرقيَّة، الذين يتحرَّكون جماعاتٍ في الممرَّات والأرصفة، ويحملون السكاكين الحادَّة، ويغضبون بسرعة. حتى مقاعد العربات غير آمنة، فهم يتمدَّدون وينامون سكارى عليها، وقد طردوا العرب والأفارقة منها بعد معارك سريعة. أنا لست منافسةً لهم في شيء، لكنِّي أخاف حين يتضاربون في ما بينهم فتطير شظايا القناني في كلِّ اتِّجاه. وبحسب قوَّة العصابة العدوَّة فقد تلحقني بعض ضربات العصيّ، أو يدوسني أحد الراكضين في هجماته أو هروبه، أو يدفعني من دون قصدٍ إلى خندق السكَّة الحديد، فيهرسني أوَّل مترو أو تصعقني الكهرباء. وحتى لو رآني ناظر المحطَّة على شاشة المراقبة فهو لن يستطيع إنقاذي في الوقت المناسب، وسيتهيَّأ للإعلان، آسفًا ومعتذرًا، عن حادثٍ مباغتٍ يستدعي

وقف حركة المترو حتى يتمَّ تجميع أشلائي وإجلاء السكَّة، وسط نقمة المسافرين المكدَّسين على الرصيف ينتظرون الفرج. هكذا... ولكثرةِ الحوادث من هذا النوع، ومبيت المشرَّدين والسكارى ليلًا في أقبية المترو، قرَّر المسؤولون إقفال الأبواب الخارجيَّة لكافَّة المحطَّاتِ بدءًا من الواحدة. فلا يفتحون سوى بضع محطَّات في أيَّام البرد القارس، بتصريحٍ من البلديَّة وبإشراف الجمعيَّات والأخويَّات، يأوي إليها السكارى، أو يتمُّ دفعهم إلى داخلها بالقوَّة حتى لا يموتوا من البرد خلال نومهم في الشوارع، فتتضرَّر صورة مدينة الجمال والأنوار. لكن، يبدو لي أنَّ دفعهم بالقوَّة إلى دفء أقبية المترو يعني أنَّ المشرَّدين يفضِّلون موتهم بردًا على نظام المأوى، حيث عليهم مثلًا أن يستحمُّوا بعد رشِّهم بالمبيدات، فيذهب عنهم السُّكر الذي سعوا إليه طيلة يومهم. ثم عليهم أن يناموا، أقلَّه أن يتوقَّفوا عن الحركة أو إصدار الأصوات حالما تُطفأ الأنوار وتُغلق الأبواب وتوصد بالأقفال منعًا للهرب. ومن سَلِمَ من تحرُّشٍ أو اعتداءٍ ونام، عليه الاستيقاظ باكرًا جدًّا، وشرب السوائل الساخنة بسرعة، والخروج لـ... للبحث عن شغل. يدفعهم إلى برد الفجر رجالٌ أصحَّاء بعضلاتٍ مفتولة، متمنِّين لهم حظًّا طيِّبًا. لكنَّهم يتمهَّلون قليلًا مع النساء، إلَّا إذا بالغن بالاعتراض أو رحن يطالبن بالأغراض التي أُخِذَت منهنّ، وقد أصبحت في الحاويات الكبيرة ورفعتها الشاحنات الخضراء إلى المكبَّات البعيدة، حفاظًا على الصحَّة العامَّة.

في الخارج قد لا يكون البرد أقلَّ أذيَّة، لكنَّ عدد موتاه سيكون أقلّ. فعدا سيَّارات الطوارئ الصحِّيَّة التي تجوب الطرقات، تكثر في الساحات الصغيرة وباحات الكنائس والمقابر طناجر الحساء، وأوعية الحليب والشاي المسندة إلى مواقد كهربائيَّةٍ تحافظ على سخونتها طيلة

النهار. وفي مواعيد الوجبات يكثر عدد المتطوِّعين، ويحضر الخبز في أكياسٍ تشبه أكياس الترابة التي تستعمل في نقل الموادّ إلى ورشات البناء. وفي بعض الأيَّام توزَّع الثياب والبطَّانيَّات على من يريد...

في هذه التجمُّعات النهاريَّة قلَّما تحدث مشاكل أو صدامات. مزاج الناس يكون طيِّبًا، يتحادثون ويتبادلون العناوين والنصائح، خاصَّةً في مسائل الأوراق والمساعدات، مداخلها ومخارجها. ومن فضائل هذه التجمُّعات الهادئة لقاءات الناس من البلد الواحد، عائلاتٍ وأقارب، يتبادلون الأخبار ويطمئنُّون على من يُرجَّح أنَّه بقي هناك في البلاد. هذا إلى جانب منافع تبادل المعلومات والاستشارات في ما يخصُّ شؤون الهجرة، ربَّما إلى بلادٍ أخرى قد يتوفَّر فيها من شروط العيش والسكن ما هو أفضل.

وفي هذه الساحات الباردة يُخيِّم سلامٌ صغيرٌ يذكِّر بساحات القرى البعيدة في المناسبات المختلفة، أكانت سعيدةً كالأعراس أو حزينةً كالمأتم. ساحاتٌ أليفة، قبل أن تهدَّها الحروب، وتُسطِّحها وتُخليها من الشجر والبشر، وتسوِّيها بالتراب.

لن أذهب إلى طوارئ المشرَّدين، ولن أنتظر نهاية تجمُّع الحساء الشعبيِّ الذي لا أرجو منه فائدة. كذلك لن تنفع عودتي إلى بوَّابة مأوى الأخويَّة، ليس فقط بسبب فوات الوقت، بل ليأسي من استرداد غرفتي وضيقهم من تردُّدي عليهم، إذ قالوا انتظري أن نتَّصل نحن بك، وهم يعرفون أن ليس عندي عنوانٌ أو رقم تلفون.

توجَّهتُ إلى مطاعم الوجبات السريعة، حيث يوزِّعون الطلبات البائتة، أو تلك التي يرفضها الزبائن إذ تصلهم باردة. حين وصلتُ إلى

مطعم الماكدونالدز القريب من النهر، وجدتُ أمام بابه العريض رجالًا مجتمعين في حلقةٍ حول رجلٍ كهلٍ يوزِّع عليهم الوجبات الملفوفة بالورق من كيسٍ كبير. الرجل ليس من عمَّال المطعم، وهو بذراعٍ واحدة. رحتُ أتفرَّج عليهم من بعيد، والرجل يستبدُّ بالآخرين إذ وضع الكيس الكبير بين قدمَيْه وأقام عليه كلبًا يحرسه. أنتَ حصَّتك ساندويش واحد وعلبة بطاطا واحدة لأنَّك جشعٌ وفجعانٌ وأنانيّ، يقول. أمَّا أنت فسأعطيك حصَّتَيْن زائد علبة جوانح دجاج، لأنَّك أصفر وهزيل ولم تأتِ منذ أيَّام. وشَرطي أن تعطي لقمةً لامرأتك الهزيلة مثلك، إن كانت ما زالت بيننا ولم تودِّعك إلى دنيا الحقّ... والجميع يقهقهون في ما يشبه الزعيق. إنَّهم سكارى تعتعتهم البيرة. لن أقترب.

ثمَّ رآني الزعيم المستبدُّ ذو الذراع المقطوعة. اقترب، لا تخف. اقترب. آه هذه امرأة... اقتربي لا تخافي. ولمَّا لم أتحرَّك من مكاني نهاهم عن الضحك، وراح ينهرهم حتى سكتوا. ثم قال سوف تنتظرين من دون جدوى. مدير المطعم يسلِّمني مهمَّة التوزيع، ولم يتبقَّ في الداخل فتات رغيفٍ واحد. اقتربي.

هكذا تعرَّفتُ على فرانسوا وكلبه رامبو.

لم تكن بداية حبِّنا سهلة، بل هي كانت مرهِقةً منذ الليلة الأولى.

فهم فرانسوا بسرعةٍ أن ليس لي مكانٌ أبيتُ فيه. ولم يتطلَّب ذلك الفهم الكثير من الذكاء، إذ تأخَّر الوقت وأنا واقفةٌ غير بعيدٍ عن هذه الزمرة لا أفعل شيئًا ولا أغادر. وقد أضاف شكلي، الشبيه بجنديٍّ جريحٍ هاربٍ من المعركة، وضوحًا على وضوح. وعند حلول منتصف الليل دبَّ البرد في الأطراف الساكنة، ولم تَعُد البيرة أو غيرها كافيةً لإطالة أمد

ذلك الحفل البائس. الرجل الهزيل كان أوَّل من غادر، بحجَّة أنَّ عليه أن يحمل العشاء، أو ما بقي منه، لامرأته. شجَّعه زعيم القعدة وريِّسها، ولم يمضِ وقتٌ حتى بدأ الآخرون بالتململ بإيحاءٍ منه. كان، كلَّما مشى أحدهم، ينظر إليَّ من طرف عيْنه، وأنا لا ألتفت ناحيته ولا أتحرَّك.

ثم اقترب منِّي فرانسوا، وقال: وأنتِ؟ تفضَّلي معي. وبدأ يمشي من دون أن يلتفت ليرى إن كنت أتبعه أم لا، وصار يكلِّمني من بعيدٍ والمارَّة ينظرون إليه، فلحقتُ به لكنِّي حافظتُ على المسافة وهو يتابع كلامه:

أنا رجلٌ عسكريٌّ وذو مبادئ. أنا لا أقبل النقاش. أصطحبكِ إلى حيث تقضين ليلتكِ بعيدًا عن... برد الليل والكلاب الشاردة. أنا لا أترك النساء في الشارع. في الصباح أرسلكِ إلى قضاء ربِّك.

لم يعجبني كلامه. أبدًا. تسمَّرتُ في مكاني فرجع إليّ. قلتُ اللَّـه يسهِّل عليك يا حامي الضعفاء. أنا أعرف هدف أمثالك جيِّدًا. رفع حاجبَيْه وفتح فمه ليريني اندهاشه، ثم أخذ يقهقه ويسعل ويقول بين السعال والقهقهة: أنتِ؟ هههههه. هذه المخلوقة تعتقد أنَّها أنثى، امرأة، وتخاف على فرجها هههههه. أنتِ هل لكِ فرج أصلًا؟ أنتِ ترانس. لكن لا مشكلة، جميلٌ أن تخافي من الاغتصاب. هههههه. هذا يعطيكِ ثقةً بنفسك. هههههه. ثم راح يقول للمارَّة: انظروا هذه الحسناء. الخائفة على شرفها. منِّي.

ثم راح يجرُّني من كُمِّ معطفي الكبير بيده الوحيدة القويَّة، يسوقني ولا يترك معطفي. وأنا كنعجةٍ عرجاء أتعثَّر في كلِّ خطوة، فيرفعني ثم يدفعني ويقهقه. وحين توقَّف أحد المشرَّدين يسلِّم على فرانسوا، صار

الرجل يقول بلكنة السكارى: اسمعي الكلام، حظُّكِ في السماء. فرانسوا رجلٌ ولا كلُّ الرجال...

هكذا عرفتُ اسمه، فرانسوا. وحين سألني عن اسمي، وهو ما زال يجرُّني أو يدفعني: وأنتِ ما اسمكِ يا خرافة البني آدميين؟ إيزابيل، قلتُ وأنا ألمُّ ضمادات رأسي التي تفكَّكت. إيزابيل؟ إليزابث يا ملكة الكومنولث، أو إيزابيلا ملكة الكاثوليك الكلِّيَّة الطهارة؟ تعتقدين أنِّي سكران. هههههه.

وصلنا إلى كشكٍ لبيع الجرائد. أخرج مفتاحًا من صداري مخفيَّةٍ وفتح القفل، ثم رفع الباب الجرَّار بسهولة من اعتاد ذلك. دفعني إلى الداخل، وفَرَدَ فراشًا رقيقًا كان ملفوفًا كالعمود ومركونًا في الزاوية. وضع عليه أكداسًا من الجرائد القديمة، وقال بالأمر الصريح: نامي هنا، بسرعة. تمدَّدي على جنب واتركي لي الطرف السفليّ. رأس كعب. خذي الضمادات التي وقعت منك، غدًا أعيدها إلى رأسك. نامي بسرعةٍ لأنَّ صاحب المصلحة سيأتي باكرًا جدًّا. مقتضيات شغله. هذا الغطاء الرقيق تستعمله المستشفيات لأنَّه يوفِّر الدفء سريعًا.

ثم أنزل الباب الجرَّار. وفي العتمة الكالحة ما لبثتُ أن سمعتُ شخيره. نمتُ وأنا أتدفَّأ بساقَيْه. رأس كعب.

أتذكَّر فرانسوا ـ أو رشيد ـ بمناسبةٍ ومن دون مناسبة. تأتيني فواصل من حياتي معه على شكل صورٍ سريعةٍ مفاجئةٍ وغير متوقَّعة، ربَّما لأنِّي كنت قرَّرتُ أن أنساه تمامًا.

تُذكِّرني حافَّة هذا المجرى بضفَّة النهر العريض الواسعة هناك، في البلاد الأخرى. وكيف كنَّا نجلس بالساعات تحت الشمس الشاحبة، أو تحت أشجار الصفصاف المورقة. وكيف كنت أروِّح عن نفسي المثقلة بالهموم، وأنا أنظر إلى المياه، تجري بسلامٍ إلى بحرها.

لا حنين عندي إلى تلك البلاد، ولا إلى ذلك الرجل الأكتع الذي أحبَّني رغمًا عنِّي، ثم أحببتُه رغمًا عنه. اشتياقي للتحديق في جريان المياه، وحرماني منه هنا، هو السبب...

أنا لا أحبُّ الحنين ولا الذكريات، لا للأمكنة ولا للناس أو الأجواء أو المشاعر. أنا امرأةٌ قديمة، لا بسبب عمري بل لأنِّي كسولةٌ ولا يلائمني الركض. لا أحبُّ الأشياء الحديثة اللاهثة، ولا أريد اللحاق بها. لكنَّ هذا لا يأخذني مطلقًا إلى حبِّ الماضي. وأنا لا أفهم كيف يفرِّق الناس بين الأزمنة والأمكنة بشكلٍ قاطع، لأنَّها متداخلةٌ عندي. لا أعرف كيف يقارنون بينها كأنَّها قطعٌ منفصلةٌ بل متنافرة، وتأخذهم

المشاعر الجارفة، فيكون كلامهم عن أمسهم بعيدًا عنهم كأنَّه لأشخاصٍ آخرين. أنا لا أعرف.

أنا لا أحبُّ كلمة العودة بحدِّ ذاتها، ولا أستعملها إلَّا جزافًا، وبأقلِّ ما يُمكن وبحسب الحاجة والموضوع، وربَّما على عكس استعمالات الناس، الذين يجدون فيها معاني عميقةً ومراميًا ذات دلالاتٍ تتجاوز ذهني... حتى أنَّه، ولو أنَّ الصلة واهية، يخطر لي أحيانًا أن أغيِّر خطَّ سيْر عودتي إلى بيتي، حتى لا أمشي آليًّا فأضجر. أريد أن أتمشَّى لا أن أصل، لا أن أعود. أجرِّب مفرقًا إلى شارعٍ يكون قريبًا أو موازيًا، بحيث لا أجازف ولا أضيع، شرط أن يكون الطقس لطيفًا.

هكذا أوصلتني ذات يومٍ مغامراتي الصغيرة ووقتي المتعطِّل إلى أمام سينما، كنت أعتقد أنَّها مقفلةٌ ومهجورةٌ من زمان، نظرًا لمبناها المتهالك، وعلى واجهته المجدورة بثقوب الرصاص والقنابل نتفٌ من أفيشات أفلامٍ تعود إلى عقودٍ مضت. سينما هوليوود، ولم يبقَ عالقًا في الباطون سوى حروف هول... أمَّا يوود فمعلَّقةٌ ببقايا حبالٍ وأسلاكٍ كهربائيَّةٍ مقطَّعة.

أمام مدخل هذه السينما، أو ما تبقَّى منه، يوجد كشكٌ صغيرٌ لبيع الفلافل. الفلافل المقليَّة بزيتٍ أسود يشبه زيت محرِّكات السيَّارات عند إفراغها. وهناك أيضًا أرغفةٌ تحت صحنٍ من البيض المسلوق بجانبها حبَّات بندورة. لكنَّ لون كبيس اللفت كان يشدُّ النظر، كأنَّه مُشِعّ. فوشيا مغناطيسيٌّ كعلكة البابل. الساندويش رخيص الثمن، والفلفل الحارُّ ببلاش.

قال الرجل وهو يقدِّم لي الساندويش: انتبهي للطحينة، وزاد من الأوراق في أسفل الرغيف. قرَّب منِّي الفلفل الحارَّ وصار ينظر حوله

فخورًا بأنَّ بين زبائنه امرأة. ولكي أشكره على اهتمامه رحتُ أسأله متى سيهدُّون هذه السينما، لأنَّ عمارةً طويلةً عريضةً ستقوم مكانها بلا شكّ. ناولني الرجل المزيد من تلك الأوراق الرقيقة، وقال: أبدًا. السينما شغَّالةٌ ومالكها يستفيد، وأنا أيضًا. إيجار الكشك ببلاش تقريبًا. هو أنعم اللّـه عليه ولا يحتاج المال، مال من هم مثلي، وقد أصبح من المحسنين المعروفين. السينما لا يغشُّكِ منظرها، هي شغَّالةٌ ليلًا نهارًا وطالما توفَّر الفيول للموتور. فيلم بطيز الآخر. عفوًا باردون. يدخل الزبون ساعة يريد، ويبقى قدر ما يريد بدخوليَّةٍ واحدة. نعم يدفع مرَّةً واحدة.

ثم انشغل الرجل بالزبائن الذين التفُّوا حوله. وأنا دلفتُ إلى ما رأيتُ أنَّه المدخل، فوجدتُ شابًا طويل الجسم يشبه الملاكمين، ووراءه ستارةٌ غليظة. بدا أنَّه فوجئ بي، فسألني: نعم؟ قلتُ أريد دخول السينما. أين الصندوق؟ أريد أن أدفع. قال: إن صحَّ ظنِّي أنت سيِّدة، امرأة. وهنا ممنوعٌ دخول السيِّدات، إلَّا إذا كنتِ هيك هيك يكون على مسؤوليَّتك. مكتبة سُر مَن قرأ

لم أفهم. كان يتكلَّم بخفَّة من يريد المزاح. أعطيتُه المبلغ الذي طلبه، فأنار لي العتبة ببطَّاريَّةٍ صغيرة. ثم أطفأها فدخلت. دخلتُ كمن وقع في حفرة. حفرةٌ تشبه ما يُحكى عن هوَّة الجحيم.

الدرج، أو الحجارة المشقوعة على أنَّها درج، غارقةٌ في عتمةٍ حالكةٍ لا يضيئها سوى ما يأتي على دفعاتٍ من الشاشة المشطورة من طرفها الأعلى. رحتُ أتلمَّس طريقي إلى أحد المقاعد القريبة من درجات المدخل. كانت مشغولة. احتاج الأمر عدَّة دقائق لتعتاد عيناي الظلمة، ولكي أتوقَّف عن تلمُّس أطراف المقاعد بيدي... ياه. رجالٌ

فوق بعضهم، وأعضاء في الهواء، أو في الأيدي الكثيرة، أو في الأفواه أو الأطياز العارية. ورجالٌ يدخِّنون النارجيلة، أو يأكلون ويهمهمون من اللذَّة وهم يمارسون تلك العادة القبيحة. وعلى الشاشة تمرُّ المشاهد التي تشبه ما يجري في الحفرة، أو في الصالة، ما عدا أنَّ الأبطال، أبطال الفيلم، فيهم نساءٌ جميلات، ولو أنَّ المخرج لا يُرينا وجوههنَّ إلَّا بلمحاتٍ سريعة.

فهمتُ الموضوع. وخفتُ أن يُساء فهمي فتسحبني يد أحدهم إلى حضنه.

وقعتُ أرضًا عدَّة مرَّاتٍ وأنا أحاول الخروج. الهروب والعودة إلى الأرض السويَّة. أضعتُ رغيف الفلافل. وحين وصلتُ إلى الضوء كانت الطحينة تسيل على طول ذراعي، وتنقِّط من أطراف أصابعي.

لم ينتبه بائع الفلافل، لم يعرف أنِّي كنت في الداخل. ابتسم ابتسامةً عريضةً وقال نبَّهتكِ من الطحينة. أردتُ أن أُكرِمَكِ فأكثرتُ منها. ياه.

أعطاني البائع المزيد من الورق الرقيق، ثم راح يعزم عليَّ بسيجارةٍ سحبها من جيب قميصه، شارحًا أنَّها صالحةٌ ولو أنَّها ملتوية. أخذتُها منه شاكرةً مع أنِّي لا أُدخِّن.

صراحة، لم يَعُد بمقدوري شراء علبة دخَّانٍ كاملة. واللّـه يا ستّ الكلّ. أشتريها بالحبَّة. بالمفرَّق.

تفضَّلي على هذا الكرسي. هذا صنفٌ جيِّدٌ لماذا تسعلين هكذا؟ يمكن مغشوش أو تهريب. اللَّـه يلعن هذه الأيَّام. سندويشٌ آخر يا ستّ الكلّ. واللّـه بعدهم سخنين.

أعجبني التدخين رغم نوبة السعال، وأعجبني أن يناديني بائع الفلافل بستِّ الكلّ. رجلٌ جنتلمان.

أعجبتني مغامرتي ولم أندم.

قلت في نفسي إنِّي لا أعرف هذه المدينة. حتى قبل هجرتي إلى فرنسا. حتى قبل أن ترفعني أمِّي إلى عليَّة مطبخنا. ما كنتُ رأيتُه منها كان أجزاءً صغيرةً مفكَّكة، وما سمعتُه عنها كان يصلني فتاتًا، أو مرويًّا على لسان أمِّي، أو من الراديو وما يقوله زوَّار أمِّي... وأيضًا كان ما قرأتُه من نُتَفٍ متفرِّقةٍ أشبه بحكايات الأطفال أو خرافاتهم، التي كانت بأيِّ حالٍ تحكي عن أشياء قديمةٍ فات وقتها.

لم يأخذ أحدُ بيدي ليُعرِّفني على بيروت، وزادت المعارك وخطوط التماس تشويشًا على تشويش. وها أنا في مغامرة اليوم أتعثَّر بأبواب المدينة، وأكون مرجع نفسي، لا أحد يجرُّني غصبًا عنِّي. وغدًا قد أفتح بابًا آخر مختلفًا وجديدًا وباهرًا بعظمته وجلاله وجماله. من يدري؟

كنت متشوِّقةً لأن أُخبِرَ زاكو بما جرى معي في هذا المشوار الفريد والمُسلِّي. أن أحدِّثها بمراحل القصَّة، وأُحزِّرها بمآل المجريات والمفاجآت.

وجدتْ زاكو أنِّي متحمِّسةٌ زيادةً عن اللزوم، وراحت تنظر بعيْنها الوحيدة إلى حقيبة يدي بإلحاح. نسيتُ وأخذني الحديث، فهي جوعانةٌ ولن تستمع إلى الحكاية إلَّا بعد أن تأكل.

شعرتُ بالذنب. ولكي أُطرِّي الجوَّ قلتُ لها إنَّ بائع الفلافل كان يناديني بستِّ الستَّات. ستُّ الستَّات زاكو. لم تلتفت.

قال فرانسوا غاضبًا إنِّي وقحةٌ وبلا تربيةٍ إذ لم يقم أيُّ رجلٍ بتربيتي. قال الأمُّ لا تكفي. الأمُّ لا شيء على مستوى التربية.

قلت له إنَّه لا يكفي أن أكون قبيحةً حتى أُغرَم برجلٍ قبيح، هذا في حال كنتَ تعتقد أنَّك بديع زمانك لأنَّكَ طويلٌ وقويّ. أنتَ أيضًا بشع، وأكتع، وإن ضربتني ثانيةً سأقتلك. أقتلكَ أو تدعني أذهب في حالي. ولن أعطيكَ فلسًا واحدًا، لأن ليس معي أموالٌ يا حمار. فتِّشني. فتِّش ثيابي وأغراضي. هل تعتقد أنِّي أذهب سرًّا إلى الجمعيَّة، أو إلى أيَّة جهةٍ أخرى؟ وإن كنتُ عالةً عليك، أو كثيرة الجلبة والزعيق، اتركني أذهب في حالي. إلى أين؟ إلى جهنَّم الحمراء. لا ترفع يدكَ عليّ.

قال أنا لم أطلب منكِ مالًا. وأنا لم أضربكِ لأنِّي لا أضرب امرأة، بخاصَّةٍ واحدةٍ مريضة. أنا دفعتكِ بعيدًا عن خلقتي علَّكِ تخرسين. أنتِ من نفسكِ بنفسكِ وقعتِ أرضًا. أنا لا أضرب النساء. لكنِّي سأضربكِ فعلًا إن أعدتِ القول إنِّي ضربتك. وإذ ذاك سترين الفرق.

كثيرًا ما كنَّا نتخانق، هكذا هي بدايات الحبِّ على ما أعتقد. لكنِّي كنتُ كذلك أحلم بقصَّةٍ كتلك التي يلتقي فيها الحبيبان عند المغيب وقرص الشمس بينهما. ليس تمامًا، إذ يُفترض أن يفترق الحبيبان، أو

يفرِّق بينهما عزولٌ أو ظروفٌ قاهرة ينتصر عليها الحبّ، بعدها يلتقيان. نحن لم نكن نفترق حتى نعود ونلتقي، ولا عزول أو ما شابه... نتخانق من دون أن يبتعد واحدنا عن الآخر.

يقول فرانسوا إنَّه لا يحبُّني، إنَّه ليس غرامًا ما هو بيننا، لكنَّه نوعٌ من التعلُّق، التعوُّد، أو الألفة، كما بينه وبين كلبه رامبو. ثم يضيف أنَّ كلبه أعزُّ على قلبه منِّي لأنَّه مفيدٌ ويدافع عنه. وهذا حقيقيّ.

لا يتركني حردانةً لوقتٍ طويل. يأخذ يدَيَّ في يده الكبيرة، ويروح ينفخ على أصابعي الباردة لتدفأ. وحين يقبّلني في فمي أُشفق على نفسي من الدوار الذي يضرب رأسي، لكنِّي أتماسك، فأهدِّده بدلالٍ إن هو عاد إلى الشرب والسُّكر بأن لا... فلا يدعني أُكمل. يقول فهمنا، لكن أنا لا يأمرني أحدٌ فانتبهي. أوافق بدلال، سعيدةً بدلالي لا بوعوده بالتوقُّف عن شرب الكحول. فأنا على ما يبدو ويظهر أنثى، امرأةٌ فعلًا، وبإمكاني حتى أن أتدلَّل. عندي رجلٌ يهتمُّ بي، وقد اصطفاني دون غيري من النساء، وهنَّ كثيراتٌ حوله، ومن بينهنَّ من هي في وضعٍ أفضل من وضعي. ومن دون أن تدفعني ثقتي بنفسي إلى الغرور، بدأتُ أفكِّر بأنِّي، في مكانٍ ما، على شيءٍ من الجمال.

ثم لم يَعُد يعجبني تكراره بأنَّه لا يحبُّني. وصرتُ أتساءل لماذا يعود إلى ذلك كثيرًا، كما لو أنِّي سأطالبه يومًا ما بالزواج، مثلًا. ثم، إن كنتُ أنا نفسي لم أقل له إنِّي مغرمةٌ به، فماذا يعني إصراره على التنصُّل وكأنِّي تُهمة؟ كما أنَّه من غير اللائق أن يذكِّرني بأنَّ الكلب أكثر فائدةً منِّي، بل أنَّه هو أكثر تعلُّقًا به. من غير اللائق، حتى لو كان حقيقيًّا.

وبما أنِّي وقعتُ في غواية أنَّ ذكرًا في هذا العالم يعتبرني أنثى، رحتُ أختبر مدى ما أتمتَّع به من مقوِّمات الأنوثة تلك. فصرت أسأل فرانسوا لماذا، بما أنَّك لا تحبُّني، لماذا تغار عليّ؟ هه؟ لماذا؟ فيسارع بالردِّ بأنَّه لا يغار بل هو يحافظ على شرفي، إذ هكذا هو عقله وهكذا هي تربيته، بل هذه هي عقيدته. فأقرِّر أن أسكت حفاظًا على كرامتي...

لم أفهم يومًا ماذا يعني ذلك الرجل بكلمة عقيدة، فهو يضعها في جملٍ كثيرةٍ ويستعملها في مواضع كثيرة، وأحيانًا كيفما اتَّفق. وحين أسأله عمَّا هي عقيدته تلك، يجيب بأنَّه حُرّ، وبأنَّه ينتقي من عقيدته ما يريد، وعلى الآخرين، كلُّ الآخرين، أن يفعلوا مثله. فأقول في نفسي إنَّ الرجل نفسه لا يعرف ما هي تلك العقيدة العتيدة، وإنَّ الأمر غير مهمّ.

لكنَّ فرانسوا يتابع الردّ، ناسيًا أو متناسيًا السؤال، ويسترسل لوحده. فيقول: أنا رجلٌ حُرّ. أنا لا يحكمني أحد. حتى في سلك العسكر لم أترك أحدًا يتحكَّم بي أو يحكمني. هكذا هو رأسي. لا أحد، لا هنا ولا هناك.

الكلام صعبٌ مع فرانسوا لأنَّه لا يحبُّ الدقَّة، أبدًا، لذا هو لا يطيق الأسئلة. فتمرُّ أيَّامٌ كثيرة، وربَّما أسابيع، نكون مع بعضنا باستمرارٍ ولا نتكلَّم. نمشي كثيرًا، ولولا آلام ظهري وركبتَيَّ لمشينا أكثر.

نمشي كثيرًا ونتنزَّه في الشوارع الجميلة كأنَّنا سيَّاح. نحن سيَّاح، أفكِّر، ومثلهم نستمتع بوقتنا بلا شغلٍ أو همومٍ يوميَّة. وحين يلتقي فرانسوا بأصحابٍ له أبقى بعيدةً قليلًا، لأنِّي أعرف أنَّه يريدني أن أبقى بعيدة، لكن على مقربةٍ في حال دعاني للتعرُّف إليهم. ويعود قراره لنوعيَّة من يلتقيهم، وأنا أحترم ذلك، خاصَّةً أنَّ اختلاطي ببعضهم دون غيرهم يعني أنَّه لا يخجل من شكلي، بعد أن التأمت جروح رأسي ولم تَعُد تلفُّها الرباطات.

نتنزَّه كثيرًا، ويأخذني إلى أزقَّةٍ وشوارع وساحاتٍ جمالُها خرافيّ، ولا يتخيَّل الإنسان أنَّها موجودةٌ فعلًا، إذ لا نرى مثلها إلَّا على بطاقات السياحة والإعلانات. ويسرق لي أشياء صار يعرف أنِّي أحبُّها، مثل الشوكولا الفاخرة المرتفعة الثمن. وحين ينوي السرقة يشير إليَّ كذلك أن أبتعد، حتى لا أتبهدل إن قبضوا عليه. وأقدِّر له عاليًا سلوكه هذا الذي يُشعرني بالأمان.

كثيرًا ما نذهب إلى ضفَّة النهر، نهر السين الجميل حيث التقينا. نجلس على مقاعد صغيرةٍ جعلوها للعشَّاق أو السيَّاح، أو على العشب تحت أشجار الصفصاف الخضراء دومًا. وفي ناحيةٍ معيَّنةٍ من هذه الضفَّة نقطع الطريق إلى قبالة مطعم الماكدونالدز الذي شهد شرارة الحبِّ الأولى. فإلى الجانب الرومنطيقيّ، نستطيع إن جعنا أن نأكل ببلاش بعد أوقات الاكتظاظ. وحين تمطر أو يكون البرد قارسًا يأخذني فرانسوا إلى مطاعم أو مقاهٍ يعرف أصحابها أو الطبَّاخين فيها أو الغرسونات. ولعلَّ هناك أقارب له، لأنَّهم يستقبلوننا ببشاشةٍ وترحاب، وهو يتحدَّث معهم بعفويَّةٍ وحماسة، لكن بلغةٍ لا أفهم منها سوى شذرات. بعض الكلمات عربيَّة، لكن حين يُسرعون في الكلام لا أعود أفهم شيئًا.

سألته مرَّة، وقد انتظرتُ أن يكون في مزاجٍ طيِّب: أنتَ عربيٌّ فرانسوا، فلماذا تلفظ اسمي كالأجانب؟ اسمي هنادي لا «أنادي». هاء. يجب أن تشرق الهواء إلى حلقك. تستطيع ذلك، سمعتكَ تلفظ الهاء والعين والحاء. المسلمون من غير العرب يقولون «اللَّا» لا اللَّـه. لا وجود لسحب الهاء في نهاية «اللَّـه». اللَّـه اللَّـه. أنت تطرب كالعرب. أنت عربيّ. أنت عربيٌّ فرانسوا؟ لم يردّ... وبعد أيَّام، وخارج السياق ومن دون أن أعود إلى السؤال، قال: على فكرة، أنا عربيٌّ على ذوقي، ومسلمٌ

على ذوقي وحين أريد وأقرّر. ومن دون أن أعلّق رفعتُ كفّي إلى رأسي، وضربتُ له سلامًا كما تفعل العساكر.

أحاول دائمًا أن أُجاري فرانسوا حتى لا أواجهه، إذ لا سبيل ولا فائدة. أحاول، ولو كان ذلك صعبًا في بعض الأوقات. ثم إنَّ لي مصلحةً في أن أجعله القائد صاحب القرار، فهو من يقرِّر أين ننام، مثلًا، ودائمًا يتدبَّر فراشًا وسقفًا. أحمل كيسي وأتبعه من دون نقاش، لأنَّه على اطِّلاعٍ واسعٍ بخريطة المكان، وانتشار مراكز القوى والنقاط الاستراتيجيَّة. وفي جيبه دائمًا قطع عملةٍ معدنيَّة، كبيرةٍ وصغيرة، نفتح بواسطتها أقفال أبواب الحمَّامات العموميَّة. هناك نغتسل ونغسل ثيابنا بالماء الدافئ، وفي آلات التنشيف بالهواء الساخن نضع الغسيل فتخرج الثياب جافةً تمامًا، ملساء وكأنَّها مكويَّة. أُمسِّدها بأصابعي ثم أطويها بعنايةٍ وأضعها في الحقيبة الصغيرة ذات العجلات، التي أجرُّها خلفي دائمًا.

صرنا كأنَّنا نعرف بعضنا بعضًا من سنين طويلة. نهاراتُنا في مجملها منظَّمةٌ رائقة. كلُّ أغراضنا رائحتها عطرة، ولا نتخلَّى عن المناديل المرطَّبة المطهِّرة، الضروريَّة جدًّا في حال لم تتوفَّر المياه في لحظة الحاجة. في البداية لم يكن هذا النظام يروق له كثيرًا، لكنَّه سرعان ما اقتنع بفوائده.

في أيَّام الأسبوع المخصَّصة للأسواق الشعبيَّة، بحسب المناطق، نذهب للتسوُّق. نصل قبل خراطيش مياه البلديَّة، بعد أن يترك الباعة ما لم يستطيعوا بيعه. فالخضار والفاكهة الناضجة تمامًا، أو المهترئة قليلًا، لن تحتمل النقل مجدَّدًا إلى الصناديق. يتركونها في مكانها قرب الحاويات لننتقي منها، نحن وغيرنا كثيرون، ما يعجبنا. نأكل النيء بعد تنقيته وتنظيفه، ونحمل ما لا بدَّ من طهوه إلى مطابخ أصحابنا، ونعزمهم على وجباتنا.

لا أشعر أبدًا بالغربة في هذه البلاد، ولا يساورني شعورٌ بالفقر أخجل منه. لا ينقصني شيءٌ أو أحد، وتسير أيَّامي كمياه النبع العذب الرقراق. رغم ذلك الهناء، يخطر لي أحيانًا أن أحرِّك الحدود الآمنة لحياتي، فأقول لفرانسوا: لا أنا أُحسِن الطبيخ ولا أنا حلوة، فلماذا تحبُّني؟ فيردُّ بما أتوقَّعه ولم يَعُد يحزنني: من قال إنِّي أحبُّك؟ فأقهقه سعيدةً لأنَّه لم يعلِّق على قولي إنِّي لست حلوة. «لست حلوةً» تعني أنِّي، تقريبًا، في منطقةٍ وسطى بين الحلاوة والبشاعة. «لست حلوةً» تعني أنِّي لست بشعة. أقهقه وأقول له بأسلوب الدلال المفتعَل لا بأس، لأنِّي أنا أحبُّك. لا يضحك، ثم يروح يذكِّرني بميْلي غير المستحَبِّ للثرثرة، وبضيقه الأكيد من كلام النساء الرغَّايات.

رغم كلِّ شواهد السعادة وتقنيَّاتها التي ألفتُها، تخطر في بالي وغصبًا عنِّي صور الحبِّ في الأفلام العاطفيَّة التي كنت شاهدتها فتيَّة. ترجع لي نتفًا من صور عبد الحليم حافظ وهو يغنِّي، قبالة فاتن حمامة أو شادية أو صباح، لا أتذكَّر البطلة. بلى، تمرُّ صورة زبيدة ثروت وهو يغنِّي لها. ينعصر قلبي وأشتاق لعبد الحليم. يا إلهي كم كنت أحبُّ عبد الحليم، وكم ما زلت أشتاقه.

لكنَّه لا يأخذني إلى السينما. لا أجنبيٌّ ولا عربيّ. وهو لا يحبُّ الأغاني، لا الإفرنجيُّ ولا العربيّ. ومن أجل مماحكتي يقول إنَّ الموسيقى تنفخ المشاعر وتفسدها حيث لا لزوم. الموسيقى غشَّاشة وهو متأكِّد.

أنسى تجاربي تلك لمصلحة ما هو أهمّ. فأنا كان لي جسمٌ مريض، والآن أصبح لي جسدٌ تنتفض في خلاياه اللذَّة. وعليَّ أن أُحسِن ترتيب أولويَّاتي...

رغم أنَّ فرانسوا قويُّ البنية، ويتصرَّف كأنَّ له ذراعَيْن، إلَّا أنَّه عاد ذات يومٍ من المخبز مضروبًا، وبلا خبزٍ في يده.

آثار الضرب كانت في رأسه وعلى وجهه بمجملها، لذا لم نتجوَّل كثيرًا لمدَّة أسبوع. حتى ونحن قاعدون في مكاننا، أو بعيدًا على ضفَّة النهر، كان فرانسوا يلفُّ رأسه بشالي السميك فلا يبين من وجهه سوى العينَيْن. يظلُّ صامتًا ولا يردُّ عليّ، ولا يدعني أقترب منه كثيرًا مخافة أن ألمسه وكأنّي أواسيه أو أخفِّف عنه، أو أشفق عليه، ربَّما. لا نزور أصحابه، ولا نسلِّم على أحد. وفي الليل، أو حتى عند المساء، نرجع إلى كشك الجرائد.

لم يكن يشكو من ألم، ولا يريدني أن أضمِّد الجراح المدمَّاة. لكنَّه كان لا ينام كعادته، وفي أرضيَّة الكشك الضيِّقة كنت أشعر بأرقه وهو يتقلَّب في مكانه ويتنهَّد بغضب.

كنَّا ننام ساعاتٍ قليلة، فصرت أشعر بالتعب وأتأخَّر مرارًا عن اللحاق به. وذات يومٍ توقَّفتُ أمام صيدليَّة لأشتري مضادًّا للألم، فأشار إليَّ بأن أتبعه، ثم صعدنا إلى الباص.

خرجنا من المدينة واستقلَّينا عدَّة باصات. تغيَّر كلُّ شيء، كأنَّنا سافرنا إلى بلادٍ أخرى. حتى سحنات ركَّاب الباص، والأبنية والطرقات

والجسور، والطبيعة نفسها. لم أسأله إلى أين، إذ كان واضحًا من تشنُّج عضلات فكَّيْه أنَّه لن يفتح فمه.

نزلنا في ساحةٍ صغيرةٍ بشعةٍ أمام مبنى بلديةٍ حديث البناء. توجَّه فرانسوا رأسًا إلى الداخل كأنَّه يعرف المكان جيِّدًا، وأنا أتبعه أجرُّ قدمَيَّ وعكَّازي والحقيبة ذات العجلات. انتظرنا قليلًا في ممرٍّ ضيِّق، ثم خرجت شابَّةٌ عرجاء سلَّمت على فرانسوا وأدخلتنا غرفة مكتبٍ صغيرة. جلسنا على كرسيَّيْن متقاربَيْن، وأنا رحتُ أتفرَّج على السماء الماطرة من خلف الزجاج فيما المرأة تقلِّب أوراقًا بين يدَيْها في ملفٍّ أحمر. ثم أعطاها فرانسوا بطاقَتيْن من دون كلام؛ واحدة كنتُ رأيتُها من قبل لثوانٍ قبل أن يخطفها من يدي، والثانية كان يخفيها في جيب صدريَّةٍ داخليَّةٍ ويحملها معه إلى الحمَّام حين يغتسل، أو حتى حين يغيِّر ملابسه.

قالت الشابَّة، التي عن قربٍ بدت في حوالى الخمسين، قالت لفرانسوا إنَّ الطلب القديم لم يَعُد نافعًا، وتمَّ إتلافه بعد الرفض المتكرِّر. لقد رفضتَ العرض ثلاث مرَّات، قالت بما يشبه الملامة. علينا الآن أن نعود إلى النقطة صفر. علَّق فرانسوا بحزمٍ وهو يشير ناحيَّتي: هذه أمامك، مريضةٌ كما ترين. معها كلُّ التقارير الطبِّيَّة وكلُّ أوراقها تمام. لن نبقى في الشارع. ثم راحا يملآن معًا استمارةً متعدِّدة الصفحات والألوان، ملأتُ صفحةً واحدةً منها ثم وقَّعتُ حيث أشارت السيِّدة. قالت بعد أن سلَّمت باليد علينا وهي ترافقنا إلى باب المكتب: نحن نعرف بعضنا بعضًا، وأظنُّكَ واثقًا من أنِّي سأفعل كلَّ ما في وسعي. نلتقي قريبًا، إنشاللا مسيو رشيد. اعتنِ بنفسك وبالمدام.

هكذا عرفتُ أنَّ فرانسوا اسمه رشيد. ولم يكن اسمه فقط هو ما أخفاه عنِّي.

جلسنا في مقهى بشعٍ في تلك الساحة أمام مبنى البلديَّة البشع. اشترى فرانسوا ـ رشيد طابعًا بريديًّا ألصقه على مغلَّفٍ كبير، وجلس مطرقًا في كاسة الشاي. بدا محرَجًا لا يعرف كيف يتصرَّف، ثم قال إنَّ تلك السيِّدة العرجاء امرأةٌ متفهِّمةٌ وقلبها طيِّب، فسارعتُ إلى الموافقة وإلى استحسان ما قام به، لأنَّ الشتاء على ما يقولون سيكون هذه السنة قاسيًا.

وبعد شهرَيْن أو أكثر بقليلٍ أعطونا غرفة، في طرفها مطبخٌ وحمَّامٌ فيه دشّ. كانت البناية ضخمةً وعاليةً تشبه السفينة. سفينةٌ متهادية، أو بالأحرى جانحةٌ على بحرٍ من الباطون الأقرع.

ومن يومها بدأ رشيد يكرهني.

أسأل زكيَّة ماذا نطبخ اليوم؟ أنتِ من يختار المنيو. ابتعدي عن الدهون، فسُمنتكِ باتت بائنة، ولن أكرِّر ما أسمعتكِ الطبيبة عن مساوئ ذلك على الصحَّة...

لكثرةِ ما أكلِّم نفسي بالصوت المسموع ما عادت القطَّة تلتفت ناحيتي. ألكزها لتصحو، فتفتح عينها نصف فتحةٍ ثم تعود إلى النوم. أتَّجه إلى الباب لأغريها بالخروج فتنقلب إلى جنبها الآخر، تتثاءب وتتمطَّط، تمسح رأسها منزعجةً وتعود للنوم.

منذ سفر أمِّ منصور وأنا أكلِّم نفسي، كأنِّي على مسرح. لا أكتفي بالقطَّة بل أُشرِك شخصيَّاتٍ كثيرة، حتى النبتة الغامضة على البلكون، والتي فبركت أوراقًا صغيرةً جديدةً وارتفعت سنتمتراتٍ عن سطح التراب. أسألها ماذا قرَّرت أن تكون، وإلى أيِّ فئةٍ أو نوعٍ تنوي أن تنتمي، حتى نقوم بالخدمة اللازمة من سمادٍ وماءٍ وما شابه.

لا أفعل ذلك من ضجري، فأنا أحبُّ أن أدعو إلى جلساتي من أريد، وأستحضر عدَّة أشخاصٍ في جلسةٍ واحدة. أناسٌ أعرفهم وآخرون أخترعهم من أجل أن يكون النقاش حيويًّا. لكن يحدث أن أُصاب بالصداع حين تكثر الآراء ويعلو الضجيج، فأعتذر من الجميع. أصرفهم

بتهذيبٍ وأعود إلى القطَّة، أو إلى النبتة، أو إلى نفسي. وآخر نقاشاتي مع نفسي كان حادًّا، إذ دار حول قضيَّةٍ حسَّاسةٍ ومعقَّدةٍ هي قضيَّة الأخلاق: قياساتها ونسبيَّتها ومآلاتها، وعلاقتها بسلَّم القيم في ظروفٍ محدَّدة. ظروفُ محدَّدةٌ تكون في الغالب قاهرة.

كان موضوع النقاش في الأخلاق عمومًا يخطر لي، مهما كان. وبعد التمحُّص والحيرة كنت أتركه، أدعه جانبًا على أن أعود إليه في حال الضرورة، أو إن أصبحتُ أكثر علمًا وحكمة. لكنِّي، بعد أن سرقتُ هاتفًا محمولًا وطنَّشتُ ساعات، قرَّرتُ أن أفكِّر جدِّيًّا بالمسألة. عدتُ إلى التفاصيل، فأنا لم أسرقه فعلًا، بل وجدتُه على الأرض أمام دكَّان البقالة، فحملتُه ودسستُه في جيبي وعدتُ به إلى البيت. وجدتُ شاشته مكسورة، أو بالأحرى مشروخة، لكنَّها تضيء على كامل مساحتها، فأطفأتُه بسرعة. لم أسرق التلفون، لكن كان باستطاعتي أن أودعه عند صاحب الدكَّان. ربَّما كان هو من أضاعه، أو أحد الزبائن الذي سيرجع للسؤال عنه، بما أنَّه سقط عند العتبة. لكن، لو أنَّ أحدًا غيري وجده هل كان سيُعيده؟ وهل أنا أرسلني اللّـه في مهمَّةٍ رسوليَّةٍ لأُقوِّم ما اعوجَّ من أخلاق الناس، هكذا لوحدي في بلدٍ كلُّها نهَّابون سارقون أو قتلة؟

أضأتُ التلفون من جديدٍ لعلَّ صاحبه يتَّصل ليسأل عنه، ثم أطفأته سريعًا. رحت أفكِّر إن كنتُ أنا بحاجةٍ فعلًا إلى تلفونٍ سيكلِّفني أن أشتري له رقمًا جديدًا، وأدفع اشتراكًا شهريًّا باهظًا. هذا إلى جانب المبلغ الضروريِّ لفتحه واستبدال أرقامه السرِّيَّة، ثم محو الذاكرة القديمة، مع ما يرافق ذلك من شكوكٍ من قبل الشاب الذي سيقوم بالمهمَّة في محلِّ التلفونات.

محو الذاكرة. هذه مسألةٌ جدِّيَّة. هذه سرقةٌ موصرفة.

كيف كانت أمُّ منصور ستساعدني؟ سألتُها في رأسي فأجابتني ببساطةٍ مذهلة. قالت هل عندكِ أشخاص، أرقام هواتف، آدميٌّ عزيزٌ تريدين الاتِّصال به؟

وضعتُ التلفون في جيبي، وقلت لزكيَّة إنِّي ذاهبةٌ إلى البقَّال، فهل تريد شيئًا من تحت؟ شكرتُ أمَّ منصور وأنا أنتظر وصول المصعد أمام بابها.

عدتُ بكيسٍ مليءٍ بالخيار البلديِّ هديَّة، مكافأةً على أمانتي، والأمانة نادرةٌ في هذه الأيَّام يا مدام. كان التلفون للبقال. كاد يبكي فرحًا، وقال إنَّ نصف عمره في ذاكرة التلفون وهي كادت تضيع إلى الأبد، وهو ما كان ليستطيع شراء مثله لأنَّه غالي الثمن، وقد أهداه إيَّاه أخوه الذي يشتغل في دبي.

لا أعتقد أنِّي أعدتُ التلفون بدافعٍ أخلاقيّ، بل لأنِّي خفتُ من الملاحقة، ولأنِّي لستُ بحاجةٍ إليه وإلى مصاريفه. مع ذلك كنت سعيدة، سعيدة بأنَّ البقَّال اعتقد أنِّي شريفةٌ ومحترمة، وهذا مهمّ. مهمٌّ لوضعي الاجتماعيِّ على كامل مساحة الشارع بتجَّاره وسكَّانه. فحكايةٌ كهذه نادرةٌ ومسلِّية، سوف تنتشر انتشار النار في الهشيم.

اشتريتُ فطيرتَيْن، واحدةً بالجبنة وأخرى بالسبانخ. يختار نبيل على ذوقه، فأنا أحبُّ طعم الفطيرتَيْن، وسيَّان عندي. وإن كان جائعًا جدًّا أعطيه الكيس بكلِّ ما فيه، وأشتري فرُّوجًا مشويًّا مع الكثير من الثوميَّة أدهنها على الجلد المقرمش، كما كانت تنصحني أمُّ منصور.

كان صاحب الكاراج يدخِّن أمام غطاء سيَّارةٍ مرفوع. سألته عن نبيل الذي لم أره منذ أيَّام، وعمَّا إذا كان مريضًا، فقال عابسًا إنَّ نبيل ذهب إلى ضيعته البعيدة لدفن أمِّه. أمُّه التي ارتاحت بعد عذابٍ طويل. ارتاحت وأراحت، قال، فهي كانت همًّا ثقيلًا على ابنها. مشاوير وإضاعة وقتٍ بلا فائدة، ومصاريف وليرات. حتى في المستشفى الحكوميِّ يطلبون أموالًا يقولون إنَّها لشراء الفيول وتشغيل الكهرباء. كذبٌ وسرقة، ويحتفظون بالمرضى بلا أمل، وبالجرحى أيضًا ليُجبروا الأهل على دفع ما يسمُّونه المستحقَّات. حتى الجثث يحجزونها في البرَّادات. من يوم الانفجار يشحذون الدولارات على قفا الناس. يللا، ارتاحت وأراحت. نبيل سيعود بعد يومَيْن أو ثلاثة. بلدتهم بعيدة. تفضَّلي.

أكل الرجل نهاري الذي كان مشرقًا وحوَّله خراء.

وجدتُ المصعد متوقِّفًا، ما بين مواقيت كهرباء الدولة ومواقيت تشغيل الموتور.

لم أندم على شيءٍ في حياتي.

لا أؤمن بالطالع أو القدر المكتوب أو القسمة والنصيب. كنت أتعثَّر وأقف، من دون أن أحظى بوقتٍ للتفكُّر أو التردُّد. كانت الموجات التي ترديني متلاحقة، فلم يتسنَّ لي أن أتعلَّم السباحة. قبلتُ بقانون البحور والشطآن، وقلتُ إنَّ دوري وواجبي هو أن أنهض من جديد، من دون أسئلةٍ كثيرةٍ ومن دون مساعدةٍ من أحد. هذه هي العِبرة، هذا سيكون قانون حياتي، لذا علام أندم؟

ربَّما أخطأتُ في التوقيت. قبل أن أنهض بقليل، بعد أن أنهض بقليل، بين موجةٍ وأخرى. ربَّما كان عليّ، مثلًا، أن أترك ذلك الرجل قبل اليوم الذي خرجتُ فيه وصفقتُ الباب. ربَّما قبل ذلك بكثير، في ذلك الفجر الذي استفقتُ فيه على رطوبةٍ في وسادتي، وعلى رائحة قيءٍ قويَّة، معتقدةً أنِّي في علِّيَّة مطبخ أمِّي. لا أدري ما العلاقة، لم أفهم سبب ذلك الخلط بين المكانَيْن، فالعلِّيَّة كانت دائمًا نظيفةً ورائحتها زكيَّة، إلَّا في ما ندر، حين كنت أصاب بالإسهال وأخجل من مناداة أمِّي كلَّما تغوَّطت. لا علاقة إذن بين الرائحتَيْن، فما الذي حملني إلى هناك ذلك الفجر البارد؟

نهضتُ بسرعةٍ لأغيِّر الأغطية وأفتح الشبَّاك الوحيد. قلبتُ رشيد إلى الجانب النظيف، ورحت أمسح وجهه ورأسه بالخرق المبلولة بالماء والكولونيا. لم يستيقظ. أغلقتُ الشبَّاك وأطفأتُ النور وعدت إلى النوم. لم أفكِّر كثيرًا، كنت متعبةً ونعسانة. ثم نسيتُ حكاية خلطي بين تلك الغرفة وعلِّيَّة أمِّي.

كانوا أعطونا تلك الغرفة في الأبنية الشعبيَّة في مدَّةٍ قصيرة، لأنَّنا أنا وهو معطوبان. هم صنَّفونا، ويسمُّوننا بذوي الاحتياجات الخاصَّة. هكذا قرَّروا مشكورين، وقرَّروا أن نسكن في الطابق الأوَّل للسبب نفسه. وهذا منطقيّ، إذ تبدو الطوابق العليا بعيدةً جدًّا عن الأرض، والأرجح أنَّها كانت خاليةً من السكان، رغم الحاجة وإلحاح الطلبات حتى في تلك الضواحي. فالمصعدان معطَّلان، ربَّما منذ سنين، وقد سيَّجوا الأبواب بالشريط الشائك والعوارض الخشبيَّة حتى لا تتكرَّر حوادث وقوع الأطفال في الحفرتَيْن الفاغرتَيْن، وأيضًا حتى يتوقَّف الناس عن رمي الزبالة هناك، في حفرتَي المصعدَيْن، وقد امتلأتا بالنفايات وغمرتهما المياه الآسنة، وبعد أن توقَّفت شركة رشِّ المبيدات وتسميم القوارض عن تلبية طلبات الجهات الصحِّيَّة.

كان لسكننا في الطابق الأوَّل حسناتٌ جمَّة، لكنَّ السيِّئات تجاوزتها وأكثر. فمع الوقت فهمنا أنَّ الضجيج ليس مسألةً عابرة. الضجيج بكافَّة أنواعه ومصادره، والضجيج طيلة ساعات اليوم، ليلًا نهارًا. لا يكنُّ ولا ينخفض ولا علاج له. فعدا الخبيط الذي لا تُعرَف مصادره، يتقاتل الناس هنا باستمرار، كبارًا وصغارًا، والأولاد يصرخون باستمرارٍ كأنَّ العقارب سارحةٌ بين الأرجل، ويبكون باستمرارٍ أيضًا...

الغرفة ضيِّقةٌ جدًّا، تتراكم فيها أشياؤنا على قلَّتها. كانوا أعطونا مفتاحًا قالوا إنَّه خاصٌّ بالقبو الذي يحمل رقم الغرفة، وهو في الطابق الأوَّل تحت الأرض. لكنَّهم نصحونا فورًا بالاستغناء عنه.

قلت له إنَّ مدخل هذه البناية خطير، فأنا أجد فيه باستمرار بقايا حرائق صغيرة، وأحيانًا بعض الحقن أو فضلاتها تطقُّ تحت حذائي. لم يردّ.

قلت له إنَّه من حظِّنا أنَّنا حصلنا على هذه الغرفة ـ الأستوديو ـ بالإيجار المدعوم، وإنَّ تلك السيِّدة العرجاء في مكتب البلديَّة امرأةٌ طيِّبةٌ فعلًا. لم يردّ.

ثم انتظرتُ أن يكلِّمني في أيِّ شيء، فلم يفعل. انتظرتُ أيَّامًا، ربَّما أسابيع، وقلت إنَّ موقع البناية لا بأس به. وإن مشيتَ قليلًا، حوالى نصف ساعةٍ أو ساعةٍ مثلًا، ستجد الاخضرار الجميل يحيط بالـ «المنطقة» من كلِّ جوانبها. وإنَّ هناك أيضًا بحيرةً صغيرةً يسبح فيها البطُّ أو الإوزُّ أو البجع. لكن في المقابل البناية بعيدةٌ عن كلِّ شيء، عن الدكاكين والمقاهي ومحطَّات النقل العامِّ من باصات و... فقال اخرسي.

ثم قرَّرتُ أن أبقَّ البحصة، فقلت بعد تفكير: صراحة، أنا لا أحبُّ هذه الغرفة ولا هذه البناية ولا هذه المنطقة. وصراحةً كنَّا في حالٍ أفضل قبل أن... فصرخ في وجهي: هذا بسببك. كلُّ هذا بسببك. فخفتُ وسكتُّ فورًا.

ظلَّ مقطِّبًا، حَرِنًا كبغلٍ عجوزٍ طيلة أسبوعَيْن. يحمحم لوحده ويصدر الأوامر باختصار ويأكل لوحده. يغسل أطباقه ويترك لعنايتي غسيله الوسخ فقط. ولكي أطرِّي الأجواء قلت بصوتٍ ناعم: ربَّما نحن

هنا بسببي، وأنا متفهِّمةٌ وشاكرة. لكن ولأنَّني أنا أيضًا غير سعيدةٍ هنا، فمن الأفضل أن نعود إلى... رماني بصحن الحساء على وجهي. مسحتُ وجهي وأعلى قميصي بمناديل ورقيَّةٍ كانت بقربي، وسحبتُ كيسًا كبيرًا كان تحت المجلى رحتُ أجمع فيه حوائجي. مزَّق الكيس بالسكِّين، وأيضًا كلَّ ما كان بداخله. أفرغ الشامبو في المجلى، وحتى الصابونة قطَّعها ثم طحنها بقبضته.

انتظرتُ قليلًا، ثم ذهبتُ إلى المرآة المثبَّتة فوق المغسلة في الحمَّام. لا أثر لحروقٍ على وجهي. فقط بعض الاحمرار، ووخزاتٌ خفيفةٌ حول عينَي. عدتُ إلى الغرفة وجلست على طرف الفراش. قلت: الحمدلله إنَّ جمالي لم يتأثَّر، فالحساء لم يكن شديد السخونة. ضحكتُ ثم وضعتُ يدي على صدري، والأخرى كوَّرتها حول أذني، ورحت أغنِّي كما يفعل المطربون بمزاجٍ رائق: لا مش أنا اللابكي ولا أنا اللاشكي لو جار ـ غار ـ عليَّ هواك، باللهجة المصريَّة المضبوطة. التفتَ ناحيتي متفحِّصًا، فأعدت: لا مش أنا الل. ما بكَ؟ هذا عبد الوهاب، رشيد. أنت تفهم العربيَّة. سهلٌ عبد الوهاب حتى للجزائريِّ البربريِّ أو العربيّ، أكان ثورجيًا أو حركيًا. أنا لا أفهم في هذا. اسمع، سأعفيك من التضحية الرجوليَّة من أجلي، والبقاء مرغمًا في قنِّ الدجاج هذا. أنت الرجل الحُرُّ كالهواء، والذي لا يحكمه أحد بحسب عقيدته. أنا بشعةٌ صحيح، لكنَّ عصفورك الصغير كان سعيدًا بالبربطة في مياهي الدافئة وتحت لساني. ما علينا. وأنا أيضًا. ما علينا. لكن لنعترف بأنَّها كانت لذَّة، لذَّةً خالصة. لا واقيًا ولا هَمَّ حملٍ ولا أمراضًا معديةً ساريةً أو غير سارية. ولا زواجًا أو أخًا أو قبيلةً تطالبك بتعويض الشرف المهدور، وقد فضضت عذريَّتي كعريسٍ في عزِّ حيويَّته وعنفوانه. لنعترف. الحبّ،

الجنس في أحلى حالاته، أبهى حلله. ثم، هذا كلُّه بالمجَّان، ببلاش، ببلاش. بلا ولا فلس.

ما علينا.

ما علينا رشيد. أنا الآن أريد أن أُعفيك منِّي وأخرج من هنا. وسأخرج من هنا سواء أَقَبِلْتَ أم غصبًا عنك. كن جنتلمان. أنت جنتلمان رشيد.

رشيد أنا قبيحة، مسخ، لكنِّي لستُ حمارة. أنا لستُ بلهاء. تُخفي بطاقاتٍ سرِّيَّة، وتأخذني إلى الموظَّفة العرجاء لأشكرها. أغمض عينَيَّ وأرافقك إلى ذلك الكنيس الإنجيليِّ حيث الخشوع المُطلق، وحيث يقيم الربُّ إقامةً شرعيَّةً دائمة. حيث يتجمَّع المجانين الخرفانون ينادون بعودة المسيح، فورًا، لنشر الحقِّ والعدل على أرض صهيون الجديدة القديمة. لا أعلِّق ولا أقول شيئًا، إذ ذلك آخر همِّي، قبل أن تبدأ اللبيط يا بغل. صهيون هنا أو صهيون هناك، أنا عرفتُ من أمثالكَ بعدد شعر رأسك.

تندم؟ تشعر بأنَّك تذلَّلت للمرأة العرجاء من أجل غرفةٍ نتنة؟ أنَّك خنت مبادئك ـ عقيدتك ـ كعربيٍّ أو كمسلم؟ شوف، أنا شخصيًّا امرأةٌ بلا مبادئ. بلا بلادٍ وبلا أهلٍ وبلا معتقدٍ ـ عقيدةٍ ـ لا مشارب ولا قبيلةً ولا أبًا ولا أمًّا ولا محتدًا أو مرجعًا، ولا منشأ ولا أصولًا ولا ينابيع، لا ثورةً لا استعمارًا، لا هنا لا هناك. لذا عليك أن تأمن جانبي لكن بنسبةٍ معقولة، لأنِّي لا يمكنني ولا يهمُّني أن أخون أحدًا. لا أنت ولا غيرك. أخون من؟ ماذا؟ لمصلحة من؟ ماذا؟ يجب أن تكون في طرفٍ ما لتخون الطرف الآخر...

ما علينا.

ما علينا رشيد.

أنا مريضة، لا أفكِّر بالناس، ولا حتى بكَ أنت، بما في ماضيك من حكايات. إن كنتَ مجاهدًا أو حركيًّا أو عسكريًّا أو مخابرات. هل سألتُكَ يومًا كيف فقدتَ ذراعك؟ أنا لست الشاهد على سقطاتك، مهما كانت. أنا أحببتك رشيد لأنَّكَ أشفقت عليَّ ثم أحببتني، ولو قليلًا، وربَّما لأنَّه لم يحبّني أحد.

هذا كلُّ ما في الحكاية، وهي حكايةٌ بسيطةٌ إن لم نقل تافهة.

ثم أغاني عبد الوهاب، ستكون محظوظًا لو سمعتَ منِّي واستمعتَ إليها، أقلَّه بين فترةٍ وأخرى. أو إذا استمعتَ لغيره. لويس أرمسترونغ إن كنتَ لا تحبُّ العربيّ. بين فترةٍ وأخرى. الموسيقى شيءٌ جيِّد.

ما علينا رشيد.

الآن السلام عليكم. بالسلامة.

ثم رأيتُه يبكي بصمت. عدتُ إلى طرف الفراش وجلستُ عليه. أدرتُ رأسي ناحية النافذة ورحت أتنفَّس بعمق.

ثم سألتُه: ماذا نأكل اليوم؟

قلتُ لنبيل إنَّ عليه أن يتكلَّم مع مالك الشقَّة التي كانت تشغلها أمُّ منصور. فالشقَّة ما تزال خالية، ولا أظنُّ أنَّ إيجارها مرتفع. قلتُ له إنَّ بيت أخيه، بحسب ما فهمت، يعجُّ بالأولاد، وهو بعيدٌ عن مكان شغله هنا في الكاراج... ثم إنَّه لا داعي لشكري على اهتمامي إذ إنِّي أفكِّر بأنانيَّة، فمقابل صحن طبيخٍ سأجد إلى جانبي من يساعدني في أمور حياتي الصعبة. كما أنَّنا سنسلِّي بعضنا البعض، فأكفَّ أنا عن التكلُّم مع نفسي لأنَّ ذلك خطرٌ على الصحَّة النفسيَّة.

بعد أيَّام، وكنت عائدةً مساءً من حافَّة النهر، رأيتُ نبيل مُسنِدًا ظهره إلى الحائط، وبجانبه معلِّمه يدخِّنان. خمَّنتُ أنَّهما انتهيا من أعمال النهار، إذ لم يكن هناك سيَّاراتٌ أمام الكاراج. قلتُ: سعيدة، كيف أحوال الشغل؟ فانطلق لسان الرجل كأنَّه كان بانتظاري. اسألي نبيل، قال، لم يَعُد أحدٌ يريد تصليح سيَّارته. سنكون في عطلةٍ طويلة، طويلةٍ جدًّا، فالأمور تسير من سيِّئٍ إلى أسوأ كما تعلمين. الدولار يحلِّق في السماء، والناس بالكاد تشتري خبزًا، فما بالك بتصليح السيَّارة؟ السيَّارات تسير على الطرقات بقدرة قادر. حتى القطع المستعملة لا قدرة لأحدٍ على شرائها. والناس مغشيٌّ عليها. نائمون، مخدَّرون،

وبلا كرامة. إي واللّـه، قلتُ وهززتُ رأسي بأسفٍ مصطنع، أردته بائنًا لأخلص من كلام الرجل المنهمر على دماغي. ونبيل يعرف أنّي لا أتأثّر كثيرًا بارتفاع الدولار لأنَّ سحوباتي الشهريَّة هي بالدولار، ثم أنا لا أملك سيَّارةً لأصلِّحها... سألتُ نبيل بإشارةٍ من رأسي إلى أعلى، وفهمتُ من نُتَفِ الكلام أنَّ مالك الشقَّة يريد بيعها كاش وبالدولار لأنَّه يريد أن يهاجر، فقلت لنبيل وأنا أتابع سيْري: اللّـه غالب، كما يقول إخوتنا الجزائريُّون. سيسافر في المشمش، كما يقول إخوتنا المصريُّون.

كانت الشقَّة مُعتمة، وكنتُ مبتئسةً وتعبانةً من صعود الدرج. يبدو أنَّ لا فيول في البلد، أو أنَّ سفينة الفيول لم تصل بعد، أو هي غرقت في البحر. فتَّشتُ عن زكيَّة ولم أجدها. تمدَّدتُ على الكنبة بانتظار أن تظهر من نفسها، ثم نزل الليل ولم يشغِّلوا الموتور. أضأتُ المصباح الكهربائيَّ الصغير ورحتُ أفتِّش عن القطَّة وأناديها بغضب، ثم بحنان. كان الباب مقفلًا، باب الشرفة أيضًا، فكيف يمكنها الهرب؟ ملأتُ قصعتها في الزاوية المعتادة، فهي شرهة، ولا بدَّ جوعانة.

انتصف الليل على ساعتي اليدويَّة، فقمتُ مفزوعةً من قيلولتي المتأخِّرة. كان نور الكهرباء مشعشعًا في الشقَّة بكاملها، حتى الشرفة التي لا أضيئها في العادة.

القصعة ما زالت على حالها، القطَّة لم تقربها. قلت إنَّها ماتت. ميتةً أم حيَّةً يجب أن أجدها. أطفأتُ المصباح الصغير حفاظًا على البطَّاريَّة، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا قبل أن أعود للتفتيش عن زكيَّة. سأجدها، إذ لا يمكن أن تختفي. ولم أجدها.

لم أفكِّر في إمكانيَّة استغلالي لكهرباء الدولة. كأنِّي معطَّلةٌ تمامًا. كأنَّ جسمي آلةٌ تعمل على طاقةٍ موصولةٍ بأعضائي وهناك من سحب الفيش. ماذا أفعل الآن؟

لساعةٍ تقريبًا لم أتوقَّف عن البكاء. أبكي، ثم أغضب من بكائي على قطَّةٍ ضائعة، ثم أبكي من جديد.

أحاول أن أتذكَّر إذا ما كنت قد بكيتُ قبلًا على فقدان أحد، فلا أجد. فارقتُ الناس ومشيت، وفارقني الناس ومشيت، وفعلًا لم ألتفت. أقلَّه لم أبكِ. هذه وحشةٌ من نوعٍ جديد، لا أفهمها ولا أقدر على هضمها، لا في رأسي ولا في قلبي.

حتى القطَّة؟ حتى القطَّة لا تريدني! لم نفترق على خلافٍ أو من ضجرٍ أو خلافه. كانت ألِفَتني بعد أن أعدتُها إلى الحياة. حتى القطَّة لا تريدني.

لعلَّ الخطأ حصل في البداية، في البداية التي جرَّت كلَّ ما تلاها من أخطاء. فأنا نسيتُ أنِّي في الأصل ما كان ينبغي أن أكون هنا. أو ما كان ينبغي أن أكون، لا هنا ولا في أيِّ مكانٍ آخر. أنا من كان ينبغي أن أموت لا هند. أنا الجسم المريض، الذي لم تحتمل الطبيعة غلطتها في فبركته لتُعيده إلى المصنع.

حاولت أمِّي استبدالي، وكنت ابنتها المطيعة. كنتُ أوافق معها على أنَّ ذلك هو الحلُّ الأمثل. كنتُ أسير بحسب تعليماتها، مؤكِّدةً لها أنِّي لن أموت، أنِّي أنا ابنتها هند.

فشلنا. فشلنا نحن الاثنتَيْن، من دون أن نرتكب خطأ أو نقع في خطيئة. هي قرَّرت أن تنسى ثم تخرِّف ثم تموت. وأنا؟ ماذا أفعل هنا؟ ماذا أفعل؟

عدتُ إلى الكنبة، وقرَّرتُ أن أنام في الصالة لا في سريري. فردتُ غطاء أمِّ منصور، رفعتُ المسند جهة الرأس، وجذبتُ الأرائك لأسوِّيها وسادةً لرأسي، فوجدتُها. زكيَّة. زكيَّة. لماذا لم تردِّي عليّ؟ وعدتُ إلى البكاء. زكيَّة. حملتُها فوافقتْ ولم تقفز من بين يدَيّ. رحتُ أمسِّد رأسها، وحملتُ لها أكلها إلى الكنبة، لكنَّها بقيت في حضني، تنظر إليَّ بعينْها الناعسة المتورِّمة قليلًا من طول نومها. كانت المرَّة الأولى التي تستقرُّ فيها بجانبي، أو مُلامسةً جسمي. حبيبتي زاكو. ستنامين بقربي هنا. وضعتُها بقرب رأسي على أريكة، فمدَّتْ قائمتها الأماميَّة ووضعتْها على كتفي.

كان يومًا عظيمًا من أيَّام حياتي، القليلة العظمة. من فرحتي لم أنم. زكيَّة كذلك. قلتُ لها هل تريدين النوم بقربي دائمًا؟ هل تريدين أن أحكي لكِ كلَّ يومٍ قصَّةً قبل النوم؟ نبدأ اليوم: صحيحٌ أنِّي تأخَّرتُ في العودة، ذلك أنَّ مشواري كان جميلًا مُفرحًا، ولو أنَّه انتهى على زعل. ما علينا.

كنت أريد العودة باكرًا من حافَّة النهر، لكنِّي غيَّرتُ رأيي. قطعتُ الشوارع العريضة باتِّجاه البحر، ورحتُ أتمشَّى بمحاذاة الشاطئ حتى بداية الكورنيش.

الكورنيش شيءٌ عظيم، زكيَّة. بائعو بالوناتٍ مضيئةٍ ملوَّنة، عربات ترمسٍ وذُرةٍ مسلوقةٍ أو مشويَّة، أكشاك قهوةٍ وشايٍ وكاتّو، طناجر مليئةٌ بحمُّص البليلة أو الفول المسلوق، نراجيل بكلِّ النكهات، كعكٌ بالسمَّاق أو الجبنة. يانصيب، لوتو متكّس، مظلَّات، عبوات مبيدات الحشرات والقوارض، علب ماكياج، كريماتٌ لتفتيح البشرة، شامبو

ولوازم تمليس الشعر، صابون ومانيكور، وأكثر وأكثر. والناس فرحانةٌ تأكل وتشتري، وتدخِّن وتلعب الورق، والأولاد على العجلات، نساءٌ محجَّباتٌ أو منقَّباتٌ ونساءٌ يتريَّضن بالشورت، وياه... عالم! ومن كثرة البشر لا ترين البحر إلَّا إذا وجدتِ لكِ شبرًا على الدرابزين، ومنه تُطلِّين على نوادي السباحة ومظلَّاتها الكبيرة الملوَّنة، لكن من بعيد. شيءٌ يشرح القلب زاكو. سآخذكِ يومًا إلى حيث البهجة والسعادة واللّـه.

ولصعوبة المشي انتقلتُ إلى الرصيف المقابل، حيث الفنادق الجبَّارة التي لم تتضرَّر كلُّها بفعل العصف الربَّاني، أو أنَّهم أصلحوا ما تضرَّر. سمعتُ موسيقى صاخبةً من فندقٍ عظيم، سقط زجاج واجهته لكنَّ حمَّام السباحة أو الحديقة المحيطة به لم تصل إليها الأضرار، على ما يبدو، إذ كان هناك عرسٌ أو حفلةٌ حاشدة. طبلٌ وزمامير، ثم زغاريد تلعلع في الهواء. اقتربتُ لأتفرَّج، لكنِّي لم أرَ شيئًا. فقط بعض الغرسونات باللباس الفولكلوريّ، بالزيِّ الوطنيِّ الكامل، بابوجٍ وشروالٍ وصدريَّةٍ مُذهَّبة، وبالطربوش الأحمر. الطربوش المصنوع من اللبَّاد الصوفيِّ هو ما كان يدفع الغرسونات إلى طرف حديقة البيسين لكي يتنفَّسوا وهم حرَّانون هكذا يا حرام. رحت أفكِّر، تحت هذه الشمس القويَّة التي لن تغيب قبل ساعةٍ على الأقلّ. أشفقتُ عليهم، وتساءلتُ لماذا أقاموا الحفلة قبل المساء، قبل المغيب؟ غريب! حتى الأضواء والأسهم الناريَّة التي أطلقوها لن يكون لها المفعول نفسه في سماءٍ لم تُظلم بعد. ثم فكَّرتُ بأنَّ العروسَيْن ربَّما يريدان السفر فورًا بعد الحفلة، وموعد الرحلة فرض التوقيت...

أرأيتِ زاكو؟ يكفي أن يقرِّر الإنسان أن يفرح. هناك أماكن للفرح يجب أن يقصدها الواحد بدل النقِّ والتشكِّي. وبلدنا مليءٌ بمثل هذه

الأماكن. يكفي أن نُعمِل إرادتنا، فنحن شعبٌ معروفٌ عنه حبُّه للحياة زاكو.

كانت نزهتي في غاية النجاح، مسلِّيةً ومُفرِحةً وجميلة، ونهاري رائقًا مفيدًا على كافَّة المستويات، سوى أن كدَّر نهايته نبيل. ليس نبيل، بل أمَّه التي ارتاحت وأراحت، بل مالك شقَّة أمِّ منصور الذي يريد بيعها كاش بالدولار.

بون نوي زاكو. أنا أيضًا أحبُّكِ.

كانت حكاية حبِّي لرشيد، فرانسوا ـ رشيد، كحكاية شوكة القدِّيسة ريتا شفيعتي، شفيعة الأمور المستعصية جدًّا، تلك التي لا حلَّ لها إلَّا بالمعجزات، بأكثر من معجزةٍ واحدة. وكشوكة ريتا بدأتْ تنزُّ قيحًا ودمًا في قلبي، وتُصدِر روائح الموت الكريهة، لا ينفع في الحدِّ من انتشارها الصلوات أو أفعال الإماتة والتضحية.

لم نترك تلك البناية التي تشبه سفينةً جانحة. ظلَّ يرفض باستمرارٍ وعِناد، خاصَّةً بعد أن صار يعاشر شباب المدخل. وكلَّما أتيتُ على سيرة العودة إلى المدينة نصحني بالعودة إلى بلادي.

قلتُ له مرَّةً كاقتراحٍ معقول: يجب أن تعاشر امرأةً غيري رشيد. أنا لن أغار، وسيكون لك في ذلك راحةً وفائدةً حقيقيَّة، ولي أيضًا. أعني أنِّي لا أُسدي إليك نصيحةً تعود بعدها إليَّ عارفًا قيمتي ومعترفًا بأفضالي. لا واللّـه. أنا أعتقد أنَّنا سنبقى مع بعضنا، لكن في علاقةٍ هادئةٍ جميلةٍ متوازنةٍ إن أنتَ عاشرتَ امرأةً أخرى، طبيعيَّة، متوسِّطة الجمال والذكاء والمواهب. متوسِّطةٌ في كلِّ شيءٍ ومسالمة، فأفضل الأمور الوسط.

الإخلاص في الحبِّ عِنادٌ سخيف، رشيد، وهو فكرةٌ غير مفيدة، وغير إيجابيَّةٍ عمومًا. أصلًا هي غير صحِّيَّة. ربَّما في البداية هي ضروريَّةٌ

بحكم الحاجة. بعد ذلك، أي مع الوقت، يصير الإخلاص شيئًا مُضِرًّا، علميًّا. فالإخلاص في الحبّ، أي في التزام الرابط الثنائيّ، يسيء للبشريَّة، أي لبقاء النوع. ولو كان جميع البشر مخلصين في المعاشرة لسرنا إلى فناءٍ مُحقَّق. الإخلاص في حياة الأزواج يشبه العنصريَّة، والتعصُّب. العنصريُّون الذين لا تحبُّهم، رشيد، ينغلقون على نوعهم، ويرفضون التزاوج مع كلٍّ من يجدونه مختلفًا، أو من خارج فئتهم، أو عنصرهم، مهما بلغت منهم الرغبة الجنسيَّة. ينشدون الطهارة ويتزاوجون في ما بينهم، من نوع المخلص مع المخلصة، على أنَّها قضيَّة أخلاق. يعني يصبح زواجهم كزواج الأقارب، كعلاقة سِفَاح القُربى. ثم شيئًا فشيئًا يُنجبون معوَّقين، أو تنطفئ في أجسامهم الرغبة والقدرة على الإنجاب. بعدها ستتوقَّف عجلة الإنتاج. عقمٌ شيخوخةٌ موت. زوال النوع. هذا علمٌ رشيد. أنا لا أخترع شيئًا.

اسمع رشيد، خذها على سبيل التسلية. نتسلَّى ودعكَ من العِبَر. صحيحٌ أنَّ قصص العلماء تزول صدقيَّتها وتتغيَّر نتائجها مع الوقت، ولا تبقى أبديَّةً وعلى حالها حقائق مطلقة. يكتشفون أشياء جديدةً تصحِّح القديمة أو تذهب إلى محوها بالكامل. طبعًا قصص العلم ليست كقصص الأنبياء، كلِّيَّة الحقيقة ونهائيَّة، لكنَّها مسلِّية، وقد تشغل الواحد عن الضجر، وعن الكآبة المستعصية. المستعصية حتى على العجائبيَّة السلام لاسمها ريتا.

وعلى سبيل القصّ العلميّ المُسلّي، تقول إحدى الدراسات، أيوه واللَّـه، تقول إنَّ عشرين في المئة من العصافير الأحاديَّة الزوج، التي تعيش طيلة حياتها مع شريكٍ واحدٍ وتموت بموته، ليست في الحقيقة ملتزمةً فعلًا بالمعاشرة الحصريَّة. كيف عرف واضعو الدراسة بسلوك تلك العصافير؟ درسوا الحمض النوويَّ للصيصان، الجلابيط،

صغار تلك الطيور. عشرون في المئة منهم تبيَّن في التحاليل أنَّهم إمَّا من أبٍ مختلفٍ أو من أمٍّ مختلفة. أي نتيجة ما نسمِّيه خيانة، معاشرةً سرِّيَّة. ولأنَّ أصحاب الاختصاص يبحثون دومًا عن السبب، ويحبُّون عقلنة النتائج أو الإفادة منها، فقد استنتجوا أنَّ الخيانة هذه إنَّما هي لصالح النوع والسلالة لأنَّها تعزِّز الاختلاط والتمازج، ورأوا أنَّ عِشرَة الفراخ من أبناء الخيانة مع أبناء الإخلاص تقوِّي بنية الاثنَيْن في العشِّ الواحد.

تصوَّر! هذا ما تقوله الدراسة، العلميَّة، لحدِّ الآن.

لا تُبحلق فيَّ هكذا. أنا أريد مصلحتك. وهذه معلوماتٌ قرأتُها في مكانٍ ما. ماذا تعتقد أنِّي أفعل بكلِّ وقتي المتبطِّل، قديمًا منذ تركتُ المدرسة وحتى اليوم؟ جسمي محدود النشاط، لكنَّ عينَيَّ شغَّالتان. أضع نظَّاراتي على أنفي وأقرأ كحمارٍ يحشُّ العشب الأخضر بلا تمييز. هل رأيتَ حمارًا يُنقِّي ويفرز ما في جرابه؟ أنا لم يُعلِّمني، يُدرِّسني، يُثقِّفني، يُربِّيني أحد. أرى الأخضر فأقرض وأمضغ وأبتلع، ككرٍّ بلا رسن، وبلا أمٍّ حمارةٍ تُرشده... عشبٌ أخضر لذيذ، أو أوراقٌ وورقٌ يشبه العشب. لا فرق كبيرًا رشيد.

المهمّ، امرأةٌ أخرى ستكون نعمةً لي ولك. ولن تجد صعوبةً رشيد. النساء، أعني الطبيعيَّات، منفتحاتٌ على التعارف وعلى العِشرَة. بسيطات. وأنتَ جذَّابٌ ما زلت، وهذا أعرفه من نفسي. رغم أنَّكَ بذراعٍ واحدة، أصلع وبكرشٍ يخرج عن الحزام، لكنَّ هذا لا يمنع. فأنتَ لن تروح إلى غواية شابَّةٍ صغيرةٍ أو عارضة أزياء، مثلًا.

هل في نيَّتي الخلاص منكَ والذهاب إلى غيرك؟ أبدًا. أنا سأبقى بقربك رشيد. لكن، صراحة، منذ أصبحتَ تعاشر أولاد المدخل... منذ

عدتَ إلى السُّكر والشرب، تضاءلت فرصي وضَعُفت وسائلي. صراحة. شوف، تعدُّد الزوجات، إن كان ما زال ساريًا في عصرنا في بلدانٍ وأصقاعٍ كثيرة، فهذا يعني، في مكانٍ ما، أنَّ له منافع أو فوائد، أو حتى ضرورات. لنكن واقعيِّين رشيد. أنت ومعاشرة شباب المدخل، ومشاركتهم تجارة الحشيش، لم تَعُد تسمعني بالمرَّة. لا حين أكلِّمكَ بهدوء، ولا حين أُجعِّر أو حتى حين أضربك. أنت، صراحة، تجبرني على تعنيفك. ولا شيء ينفع في منعكَ من النزول إليهم. قلتُ إنِّي سأبقى إلى جانبك، لكن للصبر حدود. و، صراحة، تجاوزتَ رشيد كلَّ الحدود.

إن بكيْتَ مجدَّدًا سأضربكَ رشيد. لا تبكِ رشيد.

كلَّ مرَّةٍ تعود إلى نغمة أنَّ الكحول والحشيش يساعدانك في ردم الهوَّة التي في رأسك، والمليئة بالمتفجِّرات الصغيرة المؤذية وشراراتها التي لا تنطفئ. أعرف. أفهم. لكنَّك ترى معي أنَّ ذلك لا ينفع. ستظلُّ تستفيق وتتذكَّر، ثم تستفيق لترى أنَّك صرت إلى أضعف. ونعود إلى حكاية إبريق الزيت حتى يفرغ الإبريق من زيته. ماذا يعني هذا؟ يعني أنَّك تسعى إلى موتك، وهذا حقٌّ لكَ إن كنت فعلًا تريده، لكن حينئذٍ يكون الانتحار الصريح أشرف لك. أشرف من التحلُّل البطيء. صراحة. لم يَعُد باستطاعتك فرد طولكَ رشيد. جسمكَ صار معوجًّا ملتويًا باستمرار، مثل جسمي. لم يَعُد باستطاعتي الاستناد إلى ذراعكَ حين نمشي. إن أنا سقطتُ أرضًا ليس بمقدوركَ رفعي عن الأرض. لم نَعُد نمشي رشيد. نحن نتحتَّر، نتعفَّن. طلعت رائحتنا.

لماذا مزَّقتَ البطاقات السرِّيَّة الصغيرة؟ هل مزَّقتها؟ البطاقتان، مزَّقتَهما حتى تمنعني من معرفة ما فيهما في ساعات إغشائكَ وفقدكَ

لوعيك. إذن أنتَ تخطِّط لغيابك في غيوم الكراك. تخطِّط مسبقًا. إذن أنتَ من يتركني. أنا لا يهمُّني ما في تلك البطاقات لأنِّي أعرف جوهر ما فيها، وهو أنَّكَ لستَ من هذا البلد، وأنَّكَ وُلِدْتَ هناك في المكان الآخر حيث أخطأتَ، ارتكبتَ خطايا مميتة، وحيث تمَّ إذلالك. ثم أعدتَ اختراع بلادك، واختراع ولادتك هنا، واختراع اسمك. وهنا أخطأتَ مجدَّدًا، ومجدَّدًا تمَّ إذلالك. هنا أو هناك. هنا وهناك. لست الأوَّل ولن تكون الأخير. هذا اسمه الغربة، أي أن تكون لك حياتان شقيَّتان، تسيران في خطَّيْن متوازيَّيْن أبدًا، وأن تقبل بنسيانهما معًا لكي تعيش معهما، أي برفقتهما، الحياتَيْن، كنمرَيْن مدجَّنَيْن صارا قطَّتَيْن تأكلان معك في الصحن، أو تأكلان ما في الصحن.

الغربة عَطَب. والغربة إعاقة. أنا معطوبةٌ وأنتَ معوَّق، معطوبان ومعاقان من زمان، فما الذي استجدّ؟

لا أعتقد أنَّه كان يسمعني، أو أنَّه ربَّما يسمع من بعيد، من مسافةٍ لا تصل منها إلَّا أصداء مفكَّكةٌ لا معنى لها. لم يَعُد رشيد في حاجةٍ للمعاني. يصحو، ينظر إليَّ مدهوشًا متفاجئًا بوجودي، ثم يُنزِل ذقنه إلى صدره المبلول والمبقَّع بلُعاب فمه ورغوته، ويعود إلى النوم. النوم أو الغشيان على الكرسيِّ نفسه، ليلًا نهارًا. لا يتركه إلَّا إلى مدخل البناية.

لم يَعُد رشيد يسمعني، وهو لم يَعُد يراني، وأنا لم أعُد أكلِّمه.

ولماذا أكلِّمه وماذا أقول له؟ لستُ أكثر فطنة ولا أكثر ذكاءً لأفترض أنَّ عندي ما أعظ به رشيد، أو أنَّ في رأسي حكمةً لو بشَّرتُ بها لنشرتُ الفائدة بين البشر، ومنهم هذا الرجل الذي ينزلق أمامي في بئرٍ بلا قرار. لقد أصبح في مكانٍ لن يرى منه يدي وهي تلوِّح له بالوداع.

حياة رشيد تشبه حياتي كثيرًا، ورفقتنا جعلتنا متشابهَيْن أكثر. لكن رغم ذلك ما زال فيَّ نبض قوّةٍ لا أعرف من أين تأتيني، ولا ماذا أفعل بها. قوّةٌ تجعلني في الطرف الذي يعي فيه الواحد تهافت شبيهه في الطرف الآخر، ويعي إذن أنَّه المُشَاهد لا البطل. القوَّة في وهم أنَّ من يشاهد التراجيديا بإمكانه مغادرة المأساة بمجرَّد إنزال الستارة والعودة إلى بيته. قوَّة أن تعرف أنَّك مُشَاهد، قوَّة المسافة التي تقول إنَّكَ خارج العرض، وإنَّكَ بالتَّأكيد، إن بكيت أو صفَّقت فرحًا، لست البطل، ولست في بالوعة خشبة المسرح مهما كنت متورِّطًا ضالعًا.

هناك، حيث انفصلتُ عن رشيد قبل أن أتركه في تلك البناية التي تشبه السفينة الجانحة، هناك صرت أكلِّم نفسي. وهناك، قبل أن أتركه، أدركتُ أنِّي كنت أتمنَّى أن أُخبره حكايات، ولو غير مفيدة، كانت ما زالت في جعبتي.

كتلك الحكاية الأصليَّة، التي تشبه دروس الراهبة عن الخطيئة الأصليَّة تحضيرًا للمناولة الأولى، من أنَّنا نحن أبناء هاجر، الجارية المصريَّة. وأبونا المبجَّل كان يحبُّ زوجته الشرعيَّة سارة حبًّا عظيمًا، فزعلت سارة حين رأته يمازح هاجر، ثم زعلت أكثر بكثيرٍ حين انتفخت بطن هاجر. وبلغ سيل الزعل الزبى حين رأت سارة الشيخ الجليل يلاعب إسماعيل على ركبتَيْه ويفرح به. وكان ذلك من الفعل الشواذ، بحيث أمر اللّـه إبراهيم أن يُبعد هاجر وابنها، ويُسكِنها أرض مكَّة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة. وتقول بعض نصوص الحكاية إنَّ ذلك «كان من رحمته تعالى ورأفته». ومن هاتيْن الرحمة والرأفة فجَّ النبع ماءً زُلالًا في رمال الصحراء، حتى لا تموت الجارية هي وابنها من العطش، ابنها إسماعيل الذي نحن من ذريَّته، التي بورك إبعادها كما بورك انتشارها في

الأرض... لكنَّ ذريَّتنا لن تبقى وحيدةً إلى جانب ذريَّة إسحاق. بعض الرواة كتبوا أنَّه بعد موت سارة تزوَّج أبونا إبراهيم امرأةً من كنعان، اسمها قطُّورة الكنعانيَّة، وَلَدَتْ له ستَّة صبيان. وبعد قطُّورة تزوَّج حجُّون، التي ولدت له خمسة، صبيان أيضًا.

أحد عشر ابنًا لا أحد يعرف عنهم سوى أنَّ الأب طردهم جميعًا، منعًا لتقاسمهم الميراث مع ابنه المفضَّل إسحق. طردهم، بحسب الرواة المحترمين، إلى أرض المشرق. لا تحديد أو تعريف لهذا «المشرق». وأسمح لنفسي أن أخمِّن بأنَّه المشرق البعيد، حيث السكَّان الأصليُّون يتميَّزون بالسمرة الحادقة، في تلك الأراضي التي تضربها الفيضانات موسميًّا إلى جانب الأمراض المعدية السريعة الانتشار، تلك التي يأتون على سيرتها في الأخبار حين يفوق عدد الموتى، لأيٍّ سببٍ كان، عشرات الآلاف. كأنَّه نوعٌ من القصاص، إذ إنَّهم يتكاثرون بأسرع ممَّا قدَّر لهم مَن صرفَهم إلى أرض المشرق هذه. وهم، قبل تكاثرهم المبالَغ في سرعته الإنتاجيَّة، كانوا ورثوا عن أجدادهم المصروفين المُبعدَين ميلًا إلى عدم الواقعيَّة. فأجدادهم أبدوا غيرةً شديدةً بعد طردهم، وراحوا يطالبون بحصصهم من الميراث... فكانوا يتجمَّعون في قبائل ويُغِيرون على الإسرائيليِّين من ذريَّة أخيهم إسحق. ولمَّا اشتدَّت سواعدهم وبالغوا في الغزو والهجمات جاءتهم «الصيحة»، أي صاح بهم ملاك الربِّ جبريل صيحةً أخرجت أرواحهم من أجسادهم، على ما جاء في نصوص الرواة المحترمين.

وأسمح لنفسي بالظنِّ بأنَّ من نَفَذَ من الصيْحة وهرب ناجيًا، وصل إلى أرض المشرق تلك. لكنَّ الصيْحة ما زالت تطنُّ في آذان الذريَّة السمراء، على اختلاف درجة السمرة...

كما أنَّه ما زال هناك من المشاهدين من يريد التدخُّل لتقويم اعوجاج المقتاية، على اعتبار أنَّ المسرحيَّة تضرُّ بالضمير، أو أنَّ نصوص الرواة غير عادلةٍ وقد تبعث على اليأس، وبالتالي على الردود العنيفة المتطرِّفة المستهترة.

أمَّا عن الضمير وملحقاته من مؤسَّساتٍ عالميَّة، وخُطَبٍ وكتبٍ وأشعارٍ وأحزابٍ وجمعيَّاتٍ وأخويَّات، ودراساتٍ ومظاهراتٍ ونداءاتٍ وعرائض وأغانٍ، فهي حكاياتٌ مسليَّةٌ جدًّا وظريفة، إلَّا إذا بالغنا في استعمالها وتصديقها، إذ تصبح آنذاك مثل الكراك. الكراك الذي تعزُّه رشيد ويحمل لكَ العزاء، بشكلٍ من الأشكال...

وعلى فكرة رشيد، يمكن تقويم المقتاية حين نبالغ في رشِّ الأسمدة. ففي حقلٍ من حقول إحدى المدن الساحليَّة الرائعة الجمال في بلادي، تمَّ العثور على مقتايةٍ وزنها سبعة كيلوغرامات، وبلغ طولها حوالى المتر، وفي صور الجرائد ظهرت مستقيمةً غير معوجَّة...

ما زال عندي أخبارٌ وحكاياتٌ كثيرةُ مسلِّية ولو أنَّها غير مفيدة، رشيد. ذلك أنِّي وحيدةٌ جدًّا ومستوحشةٌ الآن معكَ أكثر ممَّا كنت فيما مضى. ولو كنتَ تسمعني لعرفتَ أنَّ التسلية أهمُّ وأجدى، ورواية الحكايات، مهما توغَّلتْ في التخريف والهذيان، أعظم فائدةً لمكسوري القلب والبلدان. أقلَّه أنَّها تُنسِيك صيْحة الملاك، الذي سيصيح فيكَ عاجلًا أم آجلًا. الخرافة بلسمٌ والنسيان رحمةٌ رشيد.

هل كانت أمُّ منصور سوريَّةً أم فلسطينيَّة؟ لماذا لم أسألها؟ كيف حصل أنِّي لم أسألها؟

وداعًا رشيد.

جمَّعتُ كلَّ ما استطعتُ من وسائل الراحة والمتعة. سلَّةٌ مليئةٌ باللذائذ، بطَّانيَّاتٌ ومساند، بساطٌ نفرده للأكل وآخر نتمدَّد عليه، قناني مياهٍ وعصير.

فقد طلبتُ من نبيل أن يستأجر سيَّارةً على حسابي، يكون صندوقها الخلفيُّ واسعًا. سنذهب في نزهةٍ إلى الجبل ونأكل في الطبيعة، طبيعة بلادنا الجميلة، أنا وهو وزكيَّة التي صارت تحبُّه.

إنَّه يوم أحدٍ مشرقٌ من أيَّام طقسنا المعتدل الذي لا مثيل له على الكرة الأرضيَّة. وفي السلَّة الكبيرة سندويشات لحومٍ باردة، عدا لحم الخنزير، وخضارٌ وفاكهةٌ وحلويات. وبجانب العصائر على أنواعها ورق اللعب وعلبة الشطرنج. حاولتُ تعلُّم هذه اللعبة لكنِّي فشلت. حاولتُ أن أشرح لنبيل كم أنَّها تشعرني بالضجر، الضجر بدءًا من قوانينها المعقَّدة، لكنَّه أصرَّ على تعليمي الشطرنج فحملتُ العلبة معي. نبيل لا يعرف كم أنَّ قدرتي على التركيز ضعيفة، إلى جانب ذكائي المتوسِّط الذي لا يؤهِّلني لوضع الخطط، بخاصَّةٍ الطويلة الأمد، للإيقاع بمن هو قبالتي، وأنا لا أكنُّ له أيَّة ضغينة.

دفعتُ ثمن البنزين في السوق السوداء أضعاف السعر الرسميّ، وملأنا الخزّان. لا أتأثّر كثيرًا بارتفاع سعر صرف الدولار، إذ إنَّ إيجار شقّتي أدفعه بالليرة. ووكيل مالكها، وهو قريبه، صار نادرًا ما يمرُّ لقبض مستحقّاته، لأنَّ المبلغ لم يَعُد يساوي كلفة الانتقال إلى منطقتنا. وبما أنَّ المالك وفّقه اللّـه ونجح في ترك البلاد، فالأمر برمَّته لا يستحقُّ العناء. وهو كان لمَّح لي ذات مرَّةٍ بأنّي ينبغي أن أدفع له الإيجار بالدولار، فوافقت. ثم يئس سريعًا حين قام بتحويل المبلغ على هاتفه المحمول. نظر إليَّ مطوّلًا، وقال إنَّ هذا حرامٌ وإنَّ علينا أن نتحمَّل بعضنا بعضًا، فنزيد الإيجار أو نغيّر العقد. وافقت. قلتُ نغيّره حين تنتهي مدَّة العقد، غير المحدَّدة مدَّته. فهم قصدي. وقبل أن يخرج ودَّعني باحترام، وقال إنَّ الدولة ستُغيِّر قانون الإيجارات، لا بدَّ. قلتُ تمام، هذا ما سمعتُه أيضًا. ثم لم أرَ وجهه بعد ذلك.

وصل نبيل باكرًا عن موعدنا، وراح يرتّب أغراض النزهة في صندوق السيَّارة ويردِّد هذا كثيرٌ يا حجَّة. قلتُ لا عليك نبيل، السيَّارة معنا طيلة النهار، وسنُعِيد إلى البيت كلَّ ما يزيد عن حاجتنا. لا عليك، الطبيعة تفتح الشهيَّة.

كانت السيَّارة زرقاء اللون نيليَّةً وجديدة، حتى إنَّ مقاعدها ما زالت مغلّفةً بالنايلون السميك. النايلون غير عمليٍّ على المقاعد، لا في البرد ولا في الحرّ. لكنَّ مكتب إيجار السيَّارات يريد أن تبدو السيَّارة جديدةً لأطول مدَّةٍ ممكنة. مفهوم.

اقترحتُ على نبيل أن نسلك الطريق البحريَّة. كان يتثاءب باستمرارٍ كأنّه غير متحمّسٍ لنزهتنا... الأولاد يستيقظون باكرًا، فاضطرُّ

لرفع فراشي من الصالة كي يتفرَّجوا على التلفزيون، قال نبيل، فأنا لا أنام جيِّدًا إلَّا حين أتعب من الشغل، وهذه الأيَّام الشغل قليل. وفي العطلة يستيقظ الأولاد باكرًا... هكذا. عادي.

تذكَّرتُ أنِّي أعطيتُ نبيل كيسًا من البسكوت المنتهي الصلاحيَّة لأولاد أخيه، ولم أشعر بالندم. تواريخ انتهاء الصلاحيَّة يضعها الأجانب لكي ترمي الناس الأشياء وتشتري غيرها.

الطريق مقطوعة، قال العسكريّ. كان متوتِّرًا وأشار علينا بالرجوع. لم نستطع التحرُّك إلى الخلف لوجود صفٍّ من السيَّارات توقَّفت في أرضها مثلنا. نزل العسكريُّ بقبضته على غطاء المحرِّك صارخًا فينا يلَّلا. مقطوع. مقطوع. بأمرك، قال نبيل، جامعًا أصابع يده طالبًا الصبر من العسكريّ، منتظرًا أن تتحرَّك السيَّارات التي خلفنا إلى الوراء.

اعتذرتُ على اقتراحي بسلوك الطريق البحريَّة. قال نبيل عادي. أنا أيضًا غلطان لأنِّي نسيتُ الموعد الشهريَّ لتجمُّع الأهالي. حمدًا لله أنَّ غطاء الموتور لم يتأثَّر بالضربة، وإلَّا كانت مصيبة.

كنت أريد أن أسأل عن تجمُّع الأهالي هذا، إذ أصبح هناك تجمُّعاتٌ كثيرةٌ لأهالٍ كُثُر، فهي انشقَّت إلى تسمياتٍ كثيرةٍ بحيث، بحسب اعتقادي، لم تَعُد أعداد متظاهريها كافيةً لقطع طريق عامَّة. أهالي الضحايا، سمعتُ هذا، ضحايا انفجار المرفأ أو ضحايا المخطوفين منذ بداية الحرب، أو ضحايا موديعي المصارف. سمعتُ هذا لكنِّي لم أسأل. لأنَّ نبيل، حين يروح يردِّد كلمة «عادي»، يكون مستاءً متكدِّر المزاج.

وجدتُ في تابلوه السيَّارة ما يُشبه الراديو، فرحت أكبس على الأزرار، لكن لم يخرج أيُّ صوتٍ أو أزيز. أتوقَّف، ثم أعيد الكرَّة فتتغيَّر

أضواء الشاشة الصغيرة، وتمرُّ أرقامُ كثيرةٌ بسرعةٍ ويبقى ذلك الراديو صامتًا. لم يلتفت نبيل، فتوقَّفتُ عن محاولاتي تغيير الجوّ، ورحتُ أكلِّم زكيَّة. كانت نائمةً ولم تفتح عيْنها.

خرجنا من الطرقات العريضة في صمتٍ ووجوم، وبدا لي أنَّنا نغادر المدينة. ثم انعطفت السيَّارة فجأةً وبقوَّة، وعدنا إلى الطرقات نفسها. هذا تجمُّعُ آخر، مختلفٌ ومعارِضٌ للأوَّل، قال نبيل، سنحاول النفاذ من المسالك الداخليَّة. عادي.

طبعًا لم أسأل. لم أسأل لماذا اختاروا أن يتجمَّعوا في اليوم نفسه، الأهالي الأوَّلون وهؤلاء الذين هم ضدَّهم. رحتُ أدندن لأطرِّي الجوّ. كنَّا كأنَّنا نتوقَّع حدثًا خطيرًا، أو نترقَّب مفاجأةً غير سارَّة. هكذا، بدون داعٍ. عدتُ إلى الدندنة ونحن نفرد الأغراض على الحصير، فيما يعلو مواء زكيَّة التي، لا بدَّ، شعرت بالجوع من طول الطريق، أو تراه العطش لاشتداد الحرِّ بداخل السيَّارة بسبب النايلون السَّميك على المقاعد.

مفاجأة! قال نبيل وهو يفتح ما يشبه الصندوق المعدنيَّ الصغير، والذي تبيَّن أنَّه منقل فحم، وأخرج من البلاستيك أسياخًا لشكِّ اللحمة التي كانت مقطَّعةً جاهزةً للشيّ. سأجهِّز النار، قال، فالقعدة لا تحلو من دون حفلة شواء. رحتُ أبالغ في الترحيب بمفاجأة نبيل، وأنا أفكِّر كيف سأعوِّض عليه ثمن اللحم المرتفع جدًّا، خاصَّةً ذلك الطريَّ الصالح للشواء.

الفسحة الخضراء التي اخترناها لم تكن بعيدةً عن الطريق. اكتفينا ببعض العشب تظلِّله شجرةٌ وحيدة، بدل الغابة التي كانت في خيالنا. أعتقد أنَّنا، من التعب والحرّ، جلُّ ما كنَّا نريده هو الخروج من السيَّارة.

وقبل أن يتحوَّل الفحم إلى جمر، وبينما كنتُ منهمكةً في شكِّ اللحمة في الأسياخ، وصل إلينا شابٌّ طويلٌ عريض، على خصره مسدَّسٌ بارزٌ من جيبٍ جلديّ. قال من أين حضرتكم؟ هذه ملكيَّةٌ خاصّةٌ تابعةٌ للحرم. ألم تروا اللوحة التحذيريَّة، ولا القبَّة التي يصل علوُّها إلى السماء؟ عميانٌ أنتم؟ حصل خير. سوءُ تقدير. غرباء عن المنطقة. الآن انصرفوا بأمان. مع السلامة. أطفئوا النار جيِّدًا ونظِّفوا المكان. احملوا نفاياتكم معكم. مع السلامة.

في طريق العودة كانت زكيَّة تعبِّر بقوَّةٍ عن سخطها.

قلتُ، وأنا أمسح يدَيَّ من دبق اللحمة النيئة بطرف فستاني، إنَّنا سنشوي اللحمة في البيت على البلكون.

ولمَّا بقي نبيل ساكتًا، رحتُ أثرثر بأيِّ كلامٍ يخطر في رأسي. أتعرف يا نبيل أنِّي قضيتُ سنواتٍ من عمري حبيسةً في عليَّة، في مطبخ أمِّي؟ كان بيتنا في تلك البناية التي هدُّوها في أوَّل الشارع. قبل أن أمرض وأصبح هكذا كما تراني اليوم، كنت بنتًا جميلة جدًّا. واللّـه حقيقيٌّ ما أقوله لك. لكنَّ أمِّي... قاطعني نبيل وكأنَّه لم يسمع: أنتِ يا حجَّة كنتِ في بلاد الغربة، فلماذا عدتِ إلى هنا؟ هنا سجن، كأنَّكِ أردتِ العودة إلى عليَّة مطبخ أمِّك. لا تؤاخذيني، لكلِّ مخلوقٍ ظروفه. لكن هنا نحن صرنا مثل الهنود الحمر قبل أن تبيدهم أمريكا.

«أمريكا» قال نبيل، لا أميركا.

ولمَّا رأيتُ أنَّه ينتظر منِّي جوابًا، تفكَّرتُ قليلًا ثم قلت: عادي.

لم يمرَّ ببال أمِّي أنَّ باستطاعتي الهرب من دون استعمال السلَّم الخشبيِّ الذي كانت تحرص على إبعاده عن فتحة العليَّة. فمرضي، أي تضخُّم أطرافي السريع، هو ما سهَّل عليَّ فكرة القفز. ولم تكن أمِّي لتلاحظ ذلك وتتوجَّس، إذ هي لم تكن تراني.

تعلَّقتُ بيدَيَّ بالحاجب الخشبيّ، وقلبتُ جسمي بكامله إلى خارج الفتحة. وجدتُ أنَّ قدمَيَّ لم تعودا بعيدتَيْن عن الأرض، وقفزت. فأنا أعرف الوقت الذي لا تكون فيه أمِّي في البيت، ولو أنِّي لم أكن أعلم إلى أين تذهب في تلك المواعيد الثابتة. تخيَّلتُ أنَّها ربَّما تواعد رجلًا، وتمنَّيتُ أن يكون ظنِّي حقيقةً فتتغيَّر حياتها وحياتنا. لكنَّ أمِّي لا تحبُّ الرجال ولا الحبّ. تسمِّيه الغرام، وتسخر من قصصه وأفلامه، معزِّزةً اعتقادها بما اختارت أن تستشهد به من خُلاصات الدراسات العلميَّة الخاصَّة بعالم الحيوان، من العصافير إلى القردة إلى الأسماك.

من حسن حظِّي أنَّها كانت تمطر. أخذتُ المظلَّة السوداء الكبيرة من المدخل، أسندتُها قرب الباب وتأكَّدتُ من سهولة فتحه. وجدتُ أوراقًا وقطعًا نقديَّةً في جارور خزانة المطبخ. حاولتُ ارتداء معطفٍ من معاطف أمِّي، لكنَّه كان ضيِّقًا جدًّا. أخذتُ الغطاء الصوفيَّ الذي تضعه

على ركبتَيْها، ووجدتُ أوراقي الثبوتيَّة في إحدى حقائب يدها. ودَّعتُ بيتنا بنظرةٍ دائريَّة. أخفيتُ رأسي وكتفَيَّ بالغطاء، فتحتُ المظلَّة وأنزلتها قريبًا من رأسي حتى لا يتعرَّف إليَّ أو يخاف من منظري أحد. وخرجت.

حين أتذكَّر الآن هربي من بيتنا أحزن كثيرًا لأنِّي لم أودِّع أمِّي، وتجري الدموع غزيرةً من عينَيَّ ندمًا أيضًا، إذ لو أنِّي فعلتُ لربَّما كانت ستحضنني وتتمنَّى لي التوفيق، وربَّما أعطتني وجبةً خفيفةً أحملها معي.

لكنِّي حين هربتُ كنت خائفة، ولم أشعر بالحزن أو بالندم.

قصدتُ بيت عمَّتي الصغرى بعد هربي من العليَّة في بيت أمِّي. عمَّتي الصغرى التي كانت أمِّي تسمِّيها الحنونة، رغم كرهها لكلِّ ما يمتُّ إلى عائلة أبي بصلة. وبهذه التسمية كانت أمِّي تبرِّر إطلاق الشتائم بحقّ الأخريَيْن، مدَّعيةً أنَّها موضوعيَّةٌ وتقول الحقّ. وهي كانت طردت الحنونة إيَّاها من وراء بابنا، وراحت تصرخ من دون أن تفتح لها: هذه ابنتي وليس لها أهلٌ أو عائلةٌ سواي، فكفِّي عن السؤال عن «البنت».

كانت جارة عمَّتي الصغرى تردُّ عليَّ من وراء بابها. لا بدَّ أنَّها خافت منِّي حين نظرت في العين الزجاجيَّة. قالت إنَّ عمَّتي تركت شقَّتها من زمان، بعد المعارك الأخيرة، ولا فائدة من الطرق العنيف على باب الناس الذي حلُّوا مكانها، وهم غير موجودين ولا يعرفون شيئًا عن عمَّتي. وباختصار عمَّتك، إن كانت هي عمَّتك، قد انتقلت للعيش في قرية زوجها.

يومان قضيْتهما في التحرِّي عن قرية زوج عمَّتي الصغرى. أتذكَّر اسم القرية، لكنِّي لا أجد من سمع بوجودها. أجلس في الطرقات نهارًا، وأعود ليلًا إلى مستوصفٍ صحِّيٍّ حيث أنتظر طلوع الفجر على كرسيّ. كان لا بدَّ من العودة إلى تلك الجارة، التي يبدو أنَّها صدَّقتني هذه

المرَّة، فدلَّتني، من وراء الباب، على كاراج النقل حيث يعرف السائقون قرية زوج عمَّتي الصغرى.

ثم يومان كاملان وليلة بكاءٍ وسهرٍ لأقنع عمَّتي بأنِّي أنا، ابنة أخيها، وبأنَّه مرضٌ أصابني في غدَّةٍ في دماغي، وبأنَّ أمِّي أخفتني وحبستني في عليَّة المطبخ، ولهذا طردتْها ولم تفتح لها حين زارتنا في المرَّة الأخيرة. وعمَّتي ملتاعة، وعمَّتي لا تصدِّق. وعمَّتي تحاول ثم تخاف منِّي. تطلب أن أعيد وتسأل في التفاصيل، وتشكُّ في صحَّة عقلي.

أخذتني عمَّتي الصغرى إلى مستشفى حكوميٍّ في بلدةٍ غير بعيدةٍ عن قريتها. لم يضف الطبيب شيئًا مهمًّا لما كنتُ أخبرتها به، فقط بعض التفاصيل، أهمُّها أن لا علاج لمرضي ولا دواء في بلدنا، وأنَّ وضعي سيتدهور سريعًا إلى الأسوأ.

كنت حزينةً جدًّا لحزنها، فقرَّرتُ أن أضاعف من نشاطي في مساعدتها في بيتها الصغير. كانت تعيش لوحدها، وأخبرتني بأنَّ زوجها سافر إلى البرازيل منذ مدَّة. ذهب إلى حيث اكتشف أنَّ له عائلة، أو أقارب بعيدين نَسِي أولادهم اللغة العربيَّة، وأنَّه أرسل لها رسالةً واحدةً يشرح فيها صعوبة الوضع، ويرجِّح فيها الانتقال إلى الأرجنتين قريبًا حيث الظروف تبدو أفضل... تقول عمَّتي إنَّها كانت تفضِّل لو أنَّه كلَّمها في التلفون، ثم تتأسَّف على وضع الخطوط المقطوعة. مقطوعةٌ على الأرض وفي السماء، تقول، قبل أن تضيف أنَّها لا تعرف ظروفه، وأنَّه حتمًا سوف يتَّصل في المدى القريب، أو تصلها أخباره بشكلٍ من الأشكال، عاجلًا أو آجلًا.

عمَّتي الصغرى تختلف كثيرًا عن أمِّي، فهي تبتسم باستمرار، وغالبًا ما تُنهي جملها بـ «حمدًا للَّـه». كأن تشكر اللَّـه الذي لم يعطها أولادًا، وهي كانت، قبل سفر زوجها، تتألَّم كثيرًا لعدم الإنجاب. اللَّـه يضرب بيدٍ ويتلقَّى بالأخرى، تقول، وهي تركِّب وتصفُّ خيوط الصوف على أسنان مشطٍ معدنيٍّ طويل. وأعتقد أنَّها تعني أنَّ اللَّـه يضرب الإنسان حين يرزقه بولدٍ مثلي، وهو يتلقَّى عنه الضربة مسبقًا بألَّا يرزقه أولادًا بالمرَّة.

عمَّتي تنسج الصوف على آلةٍ بعرض طاولة السفرة، فيها مكُّوكٌ يروح ويجيء لرصف القُطَب والغرزات في ما يشبه السطور. وهذه الآلة لا تحتاج للكهرباء، ويمكن إذن تشغيلها في أيِّ وقت. يجيء الزبائن إلى عمَّتي حتى من بلداتٍ أخرى، حاملين لفائف الصوف الملوَّنة وصفحاتٍ من المجلَّات لشرح ما يريدون من موديلات. تستقبلهم ببشاشةٍ وتَعِدهم بحسن التنفيذ. وبعد الاتِّفاق على الأجر تقدِّم لهم القهوة والبسكوت، أو الكاتو الكيك الذي نحضِّره في البيت. ثم تشتم حظَّها والدنيا والأيَّام والمصاري بعد أن يخرجوا، لكنَّها تعود تضحك وتقول «حمدًا لله».

نقضي أوقات العصر في الاستراحة على عتبة البيت، الذي أعادت عمَّتي بناء ما استطاعت بناءه منه، فتركت أكثر من نصفه مدمَّرًا، وقد هوت حجارته في البستان الصغير ونما عليها العشب الأخضر والخزّ. وأنا أساعدها في كلِّ أمور البيت، وألفُّ معها خيطان الصوف قبل تركيبها على المكنة. هذا ليس بقليلٍ لكنَّه لا يكفي. أحاول أن أسلِّيها بقدر ما أستطيع، إذ أخشى أن تضجر منِّي، وتتضايق ممَّا تصرفه عليَّ من مالها القليل في الأكل والملبس، ولو في الحدِّ الأدنى. وهناك أيضًا ثمن الأدوية المضادَّة للألم. تقول عمَّتي إنَّ ثمنها بخس، وإنَّها تشتريها لي بطيب خاطرٍ لأستمرَّ في مساعدتها.

تقضي عمَّتي الأوقات الطويلة وراء طاولة المكنة. لا تتكلَّم كثيرًا، إذ عليها التركيز جيِّدًا في عدِّ القُطَب والغرزات والسطور، وإدخال الألوان المتعدِّدة بحسب الموديل، خاصَّةً ذلك الذي تسمِّيه الجاكار وهو الأصعب. ساعات شغل الجاكار أبقى أنا صامتةً تمامًا، وقد لا نخرج إلى العتبة عند العصر، فأقوم بإضاءة قنديل الغاز اللوكس وأُقرِّبه من المكنة إذا كانت الكهرباء مقطوعة، ثم أُعِدُّ لها القهوة. فعمَّتي الصغرى تحبُّ القهوة حدَّ الهوس، وغالبًا ما تقول إنَّها تخاف من انقطاع البنِّ أكثر من خوفها من انقطاع الطحين أو الأرزّ. ماذا لو استيقظتُ يومًا ووجدتُ أنَّ العالم أصبح خاليًا من البنّ؟ كانت تردِّد ضاحكة.

ما يخرج من مكنة عمَّتي جميلٌ فعلًا، فهي تكافح ضدّ البضاعة الصينيَّة الرخيصة التي تُغرِق السوق، وليس في تلك الخيوط الاصطناعيَّة أيُّ وبرٍ من الصوف الذي يقي الناس البرد. فالصينيُّون يغشُّون البشر. وعندما يختبرهم الناس يعودون صاغرين إلى مكنة عمَّتي، فالصوف الحقيقيُّ لا تصنعه سوى الماركات الأجنبيَّة الشهيرة ذات الأثمان المرتفعة. واللفائف الصوفيَّة، مهما ارتفع ثمنها، تبقى أقلَّ كلفةً من الثياب الجاهزة التي تقلِّدها عمَّتي بمهارةٍ عالية.

لا تخجل عمَّتي من شكلي ولا تخفيني عن الزبائن أو الجيران. تقول إنَّ الناس تعتاد عليَّ ولو فوجئوا بمنظري في البداية، وإنَّ أمِّي مجنونةٌ خوتة، أعانها مار شربل في محنتها. وهي تقطع كلامي بإشارةٍ من يدها حين أحاول إيجاد الأعذار لأمِّي، فهي لا تحبُّ سيرتها، وقلَّما أتينا على ذكر حياتي معها.

وعمَّتي لا تحبُّ الماضي. تقول إنَّ على الإنسان أن يتفاءل ويحمد اللّـه على ماضي أيَّامه، بحلوها ومُرِّها، وانتهى الموضوع. لذا

أتردَّد كثيرًا قبل أن أسألها عن أبي، أبي الذي لا أتذكَّره ولا أعرف عنه إلَّا ما روته أمِّي، وهو أقرب إلى الهلوسة. حكاياتٌ غريبةٌ عجيبة، مختلفةٌ في كلِّ مرَّة. حتى إنِّي وأنا صغيرةٌ جدًّا اعتقدتُ أنَّه كائنٌ خرافيٌّ ككائنات قصص الأطفال، ولا وجود حقيقيًّا له. ولمَّا كبرتُ قليلًا صارت تأتيني عنه صورٌ اعتقدتُها ذكريات، أو إنِّي اخترعتُها لأنَّ على الإنسان أن يكون عنده أب. لكنِّي، في عليَّة مطبخنا، كنتُ في لمحاتٍ سريعةٍ وقليلةٍ من الوقت أشمُّ رائحته، فأقوم أبحث في علبٍ وصناديق مكدَّسةٍ في زوايا العليَّة عن ثيابٍ قد يكون تركها في البيت، وأخفتها أمِّي كآثارٍ غير مرغوبٍ فيها، ثم نسيتْها. لكن أنا لم أنسَ تلك الرائحة.

توقَّفتُ عن محاولاتي سؤال عمَّتي عن أبي. مرَّةً واحدة، وفي جملةٍ اعتراضيَّةٍ أتت في سياق الكلام، سألتُها عنه، فأجابت بسرعة: أبوكِ وفَّقه اللّـه حيث هو، حيًّا كان أم ميتًا. ثم قامت عن كرسيها وذهبت إلى المطبخ.

وعمَّتي، بخلاف أمِّي، تحبُّ اللّـه والكنيسة معًا. تحبُّ إيمانها ولا تناقش أحدًا فيه، لا الناس ولا الخوارنة. تصلِّي كلَّ مساءٍ وتقرأ في كتابٍ صغيرٍ اسمه الإشبيَّة، تُقبِّله وتضعه تحت وسادتها، وفيه تقويمٌ مفصَّلٌ للصلوات والتساعيَّات. وإذا ما عَنَّ لها أن تروي لي حكاياتٍ لنتسلَّى، فهي دائمًا حكاياتٌ مشوِّقةٌ عن حياة القدِّيسين القدماء، خاصَّةً الإيطاليِّين، وأمثلةٌ ذات مغزى عن حياة آباء الكنيسة، كما تقول، متعجِّبةً من جهلي الكبير. وعمَّتي تعرف اختصاص كلِّ قدِّيس، ونوع شفاعته، وتاريخ اليوم المخصَّص له على روزنامتها. فهي إن أضاعت غرضًا تلجأ إلى مار أنطونيوس تكلِّمه مباشرة، وتطلب منه أن يدلَّها بسرعةٍ على مكان الغرض. ثم تشكره إن لبَّى طلبها، وقد تعاتبه إذا تأخَّر عليها وحرق

أعصابها. ثم تجد له أعذارًا من نوع أنَّه كان منشغلًا بأغراضٍ ضائعةٍ تحتاجها الناس للضرورة. ثم تعتذر منه وتَعِده بمزيدٍ من الصلوات. سامحني يا مار مطانيوس.

أقول لعمَّتي في المساءات المُظلمة والباردة إنِّي أُفضِّل حكايات القدِّيسات البنات. فبعض القدِّيسين الرجال ممَّن يقطعون رؤوس الكفَّار، مثل مار الياس الحيّ، يظهر لي في الكوابيس، ويخيفني كثيرًا، خاصَّةً أنَّه حيٌّ لا نعرف له مكانًا، ولا متى يظهر أو متى يختفي. وهناك من يكلِّمون الشياطين، هؤلاء أيضًا يثيرون الذعر في قلبي، حتى لو انتصر واحدهم على الشيطان نصرًا مُبينًا. تطمئنني عمَّتي، فهؤلاء من القدِّيسين الأشدَّاء، نروي سيرتهم لكي نشدَّ من عزم الشعب إزاء الشيطان لأنَّه قويٌّ ونصَّاب. ثم أعطتني عمَّتي إشبيَّةً صغيرةً أضعها تحت وسادتي فتذهب عنِّي الكوابيس. انظري كم أنَّ يسوع جميلٌ ولطيف! قبِّلي الصورة فهي أيقونةٌ تحميكِ. انظري الحَمَل الوديع الذي صُلِبَ لمغفرة خطايانا، من أجل خلاصنا! ألم تتعلَّمي شيئًا من دروس التأهيل للمناولة الأولى؟

لن أعود إلى خطايانا، ولن أسأل عمَّتي عن خطاياي. الآن كبرتُ وصرتُ أعرف معنى الشجرة المحرَّمة، ولو أنِّي ما زلت أجدها غير مقنعةٍ تمامًا.

لن أخبر عمَّتي كذلك عن عذابات دروس التأهيل للمناولة الأولى، وكيف أنَّ عين اللّـه ترانا باستمرارٍ ولا تتركنا لحظة، وهي تشعُّ نورًا دائمًا من المثلَّث أعلى الصفحة. ولن أخبرها ما فعلت أمِّي بالرجل الذي دسَّ يدي في فتحة بنطلونه، وكانت أمِّي تكوي كشائش الدانتيل

التي أضافتها على أطراف ثوبي الأبيض، وهي تعظني في مساوئ الكذب لأنَّ اللَّـه يراني ويسمعني. يمكن أن أكذب على الراهبة، نعم، إن هي أمرتني بذلك، لأنَّ اللَّـه سيحاسبها هي عن كذبي. لكنِّي لا أستطيع أن أكذب عليها هي، أمِّي. وحين راحت تستدرجني بخفَّةٍ مصطنعة، أخبرتُها بأنَّ أب أنطوانيت جارتنا استغلَّ وجودي لوحدي في غرفة ابنته، حين كانت هي وأمُّها في الحمَّام، وأمسك بيدي وصار... طار صواب أمِّي. سحبتْ فيشة المكواة وركضتْ إلى بيت أنطوانيت... المساكين. المساكين.

يا إلهي كم ندمتُ. لكنَّ اللَّـه كان يراني ويسمعني، ولم أكن أجرؤ على تناول جسد المسيح في اليوم التالي إن أنا كذبت، لأنَّ الدم سيفرُّ من أنفي وفمي حال دخول القربانة إلى فمي، كما حذَّرتْنا الأخت الراهبة.

في حياتي عند عمَّتي الصغرى، الطيِّبة والحنون، الكثير من لطافة العيش.

فهناك، في قرية زوجها الصغيرة، زمنٌ قديمٌ ووديعٌ سكن إلى طمأنينة الخراب واستقراره، في سكونٍ عذبٍ أنهى صراعه مع تقلُّب الأيَّام واستسلم بشجاعة. هناك جلس الناس على عتبات البيوت والدكاكين يتفرَّجون على الأشجار وعلى الحجارة، وكأنَّ المواسم ما زالت تأتي في أوانها.

وفي بيت عمَّتي الصغرى كان جسمي يكبر ويتضخَّم بِدِعَةٍ واطمئنان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في المطار شعرتُ بنعاسٍ فظيع، فالوقت ما زال فجرًا، والطائرة لن تُقلِع قبل أربع ساعات. جاءت بي عمَّتي قبل الموعد بكثيرٍ لتجنُّب أيِّ طارئٍ أو حادثٍ على الطريق، حادث سيَّارةٍ أو مطرٍ مفاجئٍ يشلُّ حركة السير، أو مظاهرةٍ أو قصفٍ أو شيءٍ من هذا القبيل. ساعدتني في حمل حقائبي إلى حيث منعها الأمن من التقدُّم. صارت تبكي وتلوِّح لي من بعيدٍ وتردِّد بالإشارة: عمَّتكِ ستكون بانتظارك. كُلي الساندويش قبل أخذ الدواء.

كان على عمَّتي الصغرى أن تلتحق بزوجها في أستراليا، إذ أرسل لها يقول إنَّه وجد له أهلًا هناك يملكون مطعمًا ومخبزًا. حضَّرتْ أوراق سفرها وأوراق سفري، واشترت البطاقتَيْن.

كانت تُمسك يدَيَّ في يدَيْها، وتقول إنَّ فرصة علاجي في فرنسا هي فرصة حياتي، بعد أن وافقت عمَّتي الكبرى على استلامي هناك بدءًا من باب المطار. فالطبُّ في فرنسا متقدِّمٌ جدًّا عنه في أستراليا. والفرنسيُّون يحبُّوننا من زمان ويراعون أوضاعنا، وهم لا يعتبروننا كالعرب الآخرين. قالت إنَّ ملفِّي الطبِّيّ كلَّه باللغة الفرنسيَّة، وستأخذني عمَّتي إلى أكبر مستشفى هناك، لأنَّ وضعي صار دقيقًا جدًّا، وآلامي تزداد،

وشكلي بصراحة... كانت تبكي ونحن نملأ الحقيبة الكبيرة بأشياء كثيرةٍ تقول إنِّي ربَّما أحتاجها، وتطمئنني إلى أنّ موظَّفي المطار يتساهلون مع الوزنِ الزائد لأنَّهم يقدِّرون الأوضاع. وفي حال صادفكِ موظَّفٌ لئيمٌ من أبناء اللئيمة، تأخذين الأغراض الأقربَ إلى فتحة الشنطة وتضعينها في حقيبة اليد. وأنا سأرسل لأختي عنواني في أستراليا حالما أحصل عليه. لا تخافي، يسوع معك، والإشبيَّة في حافظة جواز السفر.

في قاعة الانتظار الفارغة ما زالت من المسافرين، لم أكن أشعر بالحزن على فراق عمَّتي الصغرى، بل كنت فرحانةً قليلًا إذ إنَّها لن تبقى لوحدها، وستلتحق بزوجها الذي لا بدَّ ما زال يحبُّها، وإلَّا لَمَا... ثم إنَّ أطبَّاء فرنسا هم بالتأكيد أفضل أطبَّاءٍ في العالم، ويعالجون الناس بلا مقابل، ببلاش، من إنسانيَّتهم وحبِّهم للناس المقهورين في البلدان التعيسة. يبقى أنِّي لا أعرفها عمَّتي الكبرى، ولا أتذكَّر عنها شيئًا بالمرَّة. لكنَّها وافقتْ على استلامي من باب المطار، وهذا يعني أنَّها عمَّةٌ حنونة وامرأةٌ طيِّبة.

غريبٌ ألَّا أشعر بالحزن وأنا أغادر وطني وأفارق أمِّي. أعتقد أنَّه النعاس، ومفعول الأدوية الكثيرة التي ناولتني إيَّاها عمَّتي لكي أسافر بالسلامة.

رحتُ أسلِّي نفسي بالنظر إلى الطائرات تزيِّنها أضواءٌ صغيرةٌ ملوَّنة. لم أكن أتصوَّر أنَّ الطائرات ضخمةٌ بهذا القدر. وهي بعد أن تُقلِع بوزنها الكبير، تروح تصغر حين تبتعد في السماء. أمَّا تلك التي تهبط لتحطَّ على المدرج، فهي تخفِّف سرعتها كما تفعل السيَّارات، فتصفِّر مكابحها، فيما تترك دواليبها آثارًا سوداء من الكاوتشوك. ولكي

تتوقَّف في الأماكن المخصَّصة لها تتبع إرشادات رجالٍ يحملون أعلامًا وأضواءً صغيرةً يرشدون الطيَّارين بتلويحها، وبحركاتٍ مدروسةٍ أخرى. في المطارات وقاعات الانتظار يتسلَّى المسافرون وينسون أحزانهم بمتابعة ما يجري على المدارج عبر ألواح الزجاج العملاقة. هكذا وبعد أقلَّ من شهرٍ سوف تتسلَّى عمَّتي وتنسى فراقي وفراق بيتها في القرية الصغيرة، وربَّما تفكِّر بقليلٍ من الندم بأنَّها ما كان ينبغي أن تشتري أغطية الكروشيه لتزيين مساند الكنبات. مصاريف بلا لزوم، لكنَّها لم تكن استلمت بعد رسالة زوجها. وهي ستنسى مكنة الصوف والزبائن الثقلاء. وكم أتمنَّى أن تستطيع بيع تلك المكنة. سيكون ذلك صعبًا، إذ لا أحد يتقن الشغل عليها ليشتريها. وهي لن تحملها معها لأنَّها في أستراليا ستعمل في الخبيز أو في الطبيخ. وأتمنَّى أيضًا أن تجد في أستراليا كنيسةً صغيرةً تعجبها، وتكون قريبةً من بيتها هناك.

الموسيقى الخفيفة في المطار هي لأغنياتٍ مشهورة، عاطفيَّة، لكنَّها وطنيَّةٌ وتركِّز على حبِّ الوطن. هم اختاروا بثَّها عبر مكبِّرات الصوت في كافَّة القاعات، لكن من دون الكلمات. الموسيقى فقط، فالكلمات ستزيد من حزن الناس الذين يغادرون الوطن، وقد يدفعهم الحزن إلى الندم والإقلاع عن السفر. أمَّا داخل الطائرة، فالأغنية أو النظر من زجاج القُمرات إلى البلاد الغالية تبتعد، فسيكون بعد فوات الأوان، ولن يستطيع أحدٌ النزول والعودة إلى بيته...

أفكِّر أيضًا بأنَّه، في حال لم تعجبني الإقامة عند عمَّتي الكبرى، فسأطلب منها عنوان عمَّتي الصغرى في أستراليا، وسأكتب لها وأطلب منها أن تأخذني إليها. لن أستحي.

وصلت الطائرة بالسلامة إلى المطار الفرنسيّ، بعد أن ارتجّت كثيرًا في الجوِّ لسوء الأحوال الجوِّيَّة، فهنَّأنا القبطان وصفَّق له جميع الركَّاب. لكنَّ طائرتنا ظلَّت تسير لوقتٍ طويلٍ على أرض المطار الفرنسيِّ قبل أن تتوقَّف، ما يعني أنَّه مطارٌ كبيرٌ جدًّا. لذا رحتُ أُسرِع الخُطى وراء المسافرين الذين نزلوا من طائرتي مخافة أن أضيع. ثم طال انتظارنا للحقائب، وبعدها عَظُمَتْ صفوف انتظار تفتيش الحقائب على حاجز البوليس. وأنا في كلِّ هذا أرجو من اللّـه أن تنتظرني عمَّتي عند الباب، ألَّا تضجر أو تعتقد أنِّي تخلَّفتُ عن المجيء. لذا لم أُعِد ترتيب الأغراض في حقيبتي التي فتحها البوليس وراح يسألني بالتفصيل عن محتوياتها، وبخاصَّةٍ عن الملوخيَّة التي صار يشمُّها عدَّة مرَّات، ويسألني عن تلك العشبة التي تشبه رائحتها رائحة الحشيش... ثم أشار إلى الحدبة في ظهري، وسألني جادًّا ماذا تخفين هنا...

سبقني مسافرو طائرتي. سبقني الناس الذين كنت أتبع خطاهم. تأخَّرتُ عنهم. ووجدتُ أنَّ هناك أبوابًا كثيرةً للخروج من هذا المطار. ثم قرَّرتُ أن أخرج من الباب الأقرب إليّ، إذ من المنطقيِّ أن تكون عمَّتي الكبرى استعلمت عن الباب الذي يلائم وصول رحلتي.

لم أجدها. عدتُ إلى الداخل حيث يتجمَّع أشخاصٌ يرفعون لافتاتٍ صغيرةً تحمل أسماء من ينتظرونهم. لم أجد اسمي، ولم أجد عمَّتي، التي أنا لا أعرف شكلها أصلًا.

ثم خطر لي أنَّها ربَّما رأتني وعرفتني وهربت. خافتْ من شكلي، وقرَّرتْ أنَّها لا تريد مخلوقًا كهذا في بيتها. عدتُ إلى الخروج، لأتَّجه إلى أبوابٍ أخرى في حال أخطأتْ عمَّتي حساباتها في مطارٍ بهذه

الضخامة، إذ وبحسب المجسَّمات المرسومة على لوحاتٍ كبيرة، هناك مبانٍ وأجسامٌ وفروع، برؤوسٍ وأذرعٍ لها أرقامٌ وأحرفٌ لهذا المطار، الذي فهمتُ أنَّه مدينةٌ عظيمة، وفيها وسائل نقلٍ وقطاراتٌ خاصَّةٌ بها... وأنا أجرُّ حمولتي بين بابٍ وآخر في جزءٍ صغيرٍ جدًّا في طرفٍ من أصغر أطراف هذا الوحش الإسمنتيّ الضخم.

هدَّني التعب والعطش، والشمس تشارف على المغيب. جلستُ على حقيبتي، ورحتُ أفكِّر كيف أتَّصل بعمَّتي على الرقم الذي في جيبي، فأنا لم أجد هاتفًا عموميًّا يقبل النقود، فقط البطاقات، وأنا ليس معي بطاقة. قرَّرتُ أن أعود إلى داخل المطار وأنام هناك، فالمطارات الكبيرة لا تطرد أحدًا عن بوَّاباتها. وعمَّتي الكبرى ستحضر غدًا وتبحث عنِّي، لا بدَّ، فأنا لا أعرف ظروفها.

نزلتْ عتمة الليل، وأعتم قلبي. غير بعيدٍ عنِّي كانت هناك امرأةٌ سوداء بشعرٍ أشقر، تجلس على شنطتها مثلي وتتكلَّم بغضبٍ وصوتٍ مرتفعٍ عبر هاتفها المحمول. ولمَّا رأتني أنظر إليها راحت تقول إنَّ صديقها، الذي وعدها أن يأتي ليُقِلَّها بسيَّارته كلبٌ وحيوان، لأنَّه كذَّابٌ ونصَّاب. ثم اقتربت منِّي وسألتني إن كنتُ في مثل حالها، على ما يبدو عليّ، واقترحتْ أن نتقاسم أجرة التاكسي عند وصولنا إلى حدود العاصمة، وبعدها الحلُّ سيكون سهلًا. مترو وباصات ربَّنا. انتبهتُ إلى أنَّ تلك السيِّدة إنَّما هي رجلٌ يضع باروكةً ويلبس لباس امرأة. وحين كرَّرتِ السؤال قلتُ لها إنِّي مضطرَّةٌ للبقاء في المطار، وإنَّه ليس معي عنوان، بل فقط رقم هاتف. أعطيتُها الرقم فراحت تطلبه من هاتفها، ثم ارتأت أن نستمرَّ بطلب الرقم من داخل التاكسي لأنَّ أحدًا لا يردّ.

وصلنا إلى طرف العاصمة، وكان رقم عمَّتي لا يزال يرنُّ في الفراغ. قالت المرأة، أو الرجل، إنَّ من الأفضل أن أبقى معها في التاكسي حتى بيتها، ثم نواصل طلب رقم هاتف عمَّتي من هناك. وأقسمت، أقسم، إنَّه سيدفع نصف تكلفة التاكسي.

هكذا تعرَّفتُ إلى غلوريا، وأقمتُ عندها أشهرًا طويلة، واعتمدتُ بحسب طلبها صيغة المؤنَّث.

لم تتأفَّف غلوريا يومًا من وجودي في بيتها، رغم أنِّي لم أكن أدفع حصَّتي من إيجار الشقَّة. بل إنَّها كانت تشكرني لوجودي بقربها، لأنَّها تعيش وحيدة، وغالبًا ما تشعر بالحزن على نفسها، أو بالغضب من حياتها. فقد طردها أهلها من البيت، وأُجبِرَت على مغادرة بلدها نيجيريا، حيث التقاليد لا تتقبَّل من هم مثلها.

كانت غلوريا تتصرَّف كأنَّها تنساني، أحيانًا. فهي تنام طيلة النهار، وتشتغل في الليل راقصةً في أحد الملاهي غير البعيدة عن الشقَّة. ومن يراها في النهار لن يتعرَّف عليها في الليل، فهي تتزيَّن بشكلٍ فاقعٍ ومبالَغٍ فيه، وتلبس ثيابًا مكشوفةً جدًّا حتى في عزِّ البرد. والماكياج، الذي يأخذ منها ساعاتٍ طويلة، يبدو وكأنَّه يرسم وجهها من جديد. تضع غلوريا جواهر كبيرةً ثقيلة الوزن كالحجارة؛ عقودًا وأساور وأقراطًا، كلَّها برَّاقة. وتمشي بأحذيةٍ ذات كعوبٍ عاليةٍ جدًّا، كأنَّها كراسٍ صغيرةٌ لا أدري كيف تستطيع السير بها، بل كيف تستطيع الرقص أيضًا. وحين أسألها تقول ضاحكةً إنَّ هذا فنّ. وعن الحجر الثقيل في حقيبة يدها، تقول إنَّه سلاحٌ مخفيٌّ تضرب به من يعتدي عليها. وفي منطقة شقَّتنا اعتداءاتٌ كثيرةٌ ومعارك خطيرة، تحدث في الشوارع، خاصَّةً في الليل.

أساعد غلوريا في لبسها وزينتها. وفي النهار أخرج للتسوُّق، وأعود لإعداد الطعام وتنظيف البيت وغسل الثياب والأواني. وحين ترجع من شغلها آخر الليل، أستيقظ لأساعدها في خلع ثيابها وفي استحمامها، أو أضمدُّ جراحها حين ترجع مضروبة، مضروبةً أو سكرانةً تتقيَّأ على المغسلة.

غلوريا لا تتشكّى كثيرًا، فهي تفضّل الضحك والسخرية. وتردِّد أنَّ الحياة جميلة، بل هي نعمةٌ من عند الربِّ يجب أن نشكره عليها صُبحًا ومساء. فهي مؤمنةٌ وتُصلّي، ويوم الأحد لا تفوِّت القدّاس، قدّاس المساء، إلّا في الظروف القاهرة. وتلبس ثيابًا مختلفةً لخروجها هذا، ثياب امرأةٍ أنيقةٍ متستِّرةٍ ومتواضعة. وفي أيّام الآحاد تحرص غلوريا على عدم التلفُّظ بالكلمات البذيئة، حتى لا تتكرَّر عليها الكوابيس. وأنا، من محبَّتي لها، أعطيتُها إشبيَّتي الصغيرة تضعها تحت وسادتها. وبعد أيّامٍ قليلةٍ قالت إنَّ نومها تحسَّن منذ صارت تُلقي رأسها على قلب يسوع الجميل. لكنَّها أضافت ضاحكةً أنَّها تفضِّل ألّا تراه في المنام، لأنَّ جماله، بعينَيْه الزرقاوَين وشعره الأشقر، يوحي لها بأحلامٍ غير بريئة، أحلام كذا وكذا...

فوجئتُ حين علمتُ أنَّ غلوريا مسلمة. سألتُها بعد تردُّدٍ لماذا تذهب، هي المسلمة، إلى قدّاس الأحد، فقالت إنَّها تحبُّ كلَّ الأديان لأنَّ السماء واحدة، والكنيسة قريبةٌ من البيت. وهي تعرف يسوع منذ أيّام المراهقة في بلادها، منذ أُغرِمَتْ بشابٍّ مسيحيٍّ هناك، كان حبَّها الأوَّل. تدمع عينا غلوريا وهي تروي كيف هرب حبيبها من القرية حين عرف أبوه بذلك الحبّ، فراح يلاحقه يريد قتله. كان قبَّلني قبلةً واحدة، تقول، ولم أودِّعه. وما زلت أُصلّي إلى اللّه أملًا في أن يكون هرب إلى هنا، فألتقيه بصدفةٍ ما. لا أنساه أبدًا. «اللهو» سيسمع صلاتي ذات يوم.

«اللهو» تقول غلوريا، ولا تردُّ حين أُصحِّح لها، لأنَّ اللّه يسمع بقلبه لا بأذنَيْه. وتتمنّى أن يكون للنبيِّ صورة كي تضعها بقرب صورة يسوع، فيُقوِّيان معًا أملها في لقاء ذلك الشابِّ ذات يوم. ثم تفرقع بالضحك لأنَّها لا تحبُّ أن يقيم الحزن طويلًا في قلبها. تدفعني من

كتفي وتحثُّني على الضحك لأنَّه يساعد على النسيان، ويريح الأعصاب ويفرج الكرب.

حتى حين تكون غلوريا في البيت شابًّا فهي لا تحبُّ أبدًا أن أسمِّيها باسمها الرجاليّ، عبدول. فهي تعتبر عبدول، أو أبدول كما تلفظه، اسمًا للغرباء، للدولة ومالك الشقَّة وساعي البريد، فقط. وفي مشاوير التسوُّق، حين أرافقها للتبضُّع من الدكاكين الإفريقيَّة، أتجنَّب مناداتها بأيٍّ من الاسمَيْن. هناك تكون غلوريا كأنَّها شخصٌ ثالث، وبحسب من تلتقيه تلبس القناع المناسب. وأنا أجد ذلك صعبًا ومربكًا، فأروح أركِّز على تعلُّم أسماء الموادِّ الغريبة التي نشتريها في حال أرسلتني إلى السوق الإفريقيَّة لوحدي.

علَّمتني غلوريا طبخة المافي التي تحبُّها كثيرًا، وهي طبخةٌ من السنغال أو مالي، لكنَّ كلَّ شعوب إفريقيا تحبُّها وتطبخها. والآن حتى البيض تعلَّموها. وأهمُّ ما تمتاز به المافي من مكوِّناتٍ هي عجينة الفستق المحمَّص، إلى جانب الفلفل الحارّ، الأحمر المكوَّر الحارِّ جدًّا، الذي تضيفه غلوريا إلى حصَّتها لأنِّي غير معتادةٍ عليه، والذي، على قِلَّته في صحني، يُلهِب النار في حلقي وعينَيَّ ويثير ضحكها. أمَّا طبق بلادها الوطنيّ فاسمه أرزُّ جولوف، ولا يقلُّ إلهابًا للحلق من المافي... تريدني غلوريا أن أتعوَّد على أكل الحَرِّ لأنَّه مفيدٌ جدًّا ويطهِّر الأحشاء، لكنِّي لم أنجح في تناول حتى ذلك المصنَّف خفيفًا، إذ للفلفل الحارِّ درجاتٌ لقياس قوَّته، كما على مقياس ريختر للهزَّات والزلازل.

لم تقبل غلوريا تذوُّق اللحم النيء، ورفضت حتى أن تشاهدني آكل الكبَّة النيئة. أمَّا الكبدة النيِّئة فمنعتني من إدخالها إلى البيت منعًا باتًّا،

رغم تسامحها في أمورٍ كثيرة. ما كانت تفضِّله من طبخي هو شوربة العدس الصفراء، التي كانت تصفها بالأطيب في العالم، فتطلبها باستمرارٍ خاصَّةً في أيَّام البرد. وذات يومٍ سجَّلتِ الوصفة على ورقة: بصل وزيت وعدس مرجاني. ملح وكمُّون. ملاحظة: لا تنسي الكمُّون. لن أنسى الكمُّون، قالت، وعليَّ أن أطبخها يومًا وأنتِ هنا تراقبين وتعطين الملاحظات والنصائح، لأنَّنا قد لا نبقى معًا في ألفتنا هذه طيلة العمر. ولأنَّ هكذا هي الحياة.

وذات مساءٍ لم تخرج غلوريا من البيت. لم تلبس ولم تتمكيج، وقعدتْ ساهمةً مهمومة. ولم تكن تردُّ على رنَّات هاتفها المحمول المتلاحقة. ثم قالت إنَّ الشاب، الذي كانت تنتظره ذلك المساء حين التقينا في المطار، عاد يزعجها ويلاحقها من مكانٍ إلى آخر، وصار يتسبَّب لها بالمشاكل في الملهى حيث تعمل. وقد هدَّدها مدير الملهى بالطرد. هي مشكلتكِ مع هذا الخرا، لا مشكلتي، قال، إمَّا تتخلَّصين منه أو تختفين من هنا وتنسين الشغل. ثم أخبرتني كيف تضارب ذلك الخرا مع رجال أمن الملهى حين ردُّوه عنها على المدخل، وأراد الدخول بالقوَّة مصطحبًا زعرانًا مثله، وكيف حضرتِ الشرطة وحملوا الجميع إلى المخفر وتعطَّل الشغل.

كنتُ حزينةً ولا أدري ماذا أفعل. أنا أيضًا لم أعُد أجرؤ على النزول إلى الشارع، لأنَّ ذلك الأزعر يعرف لا بدَّ أين تُقيم غلوريا ومن يُقيم معها. وهي كانت تهرب إلى النوم، وتوصيني بألَّا أفتح الباب لأيِّ طارق. ونحن أصلًا لا يطرق بابنا أحد، ممَّا كان يزيد في خشيتي.

خلال مكوثها في البيت، كنتُ أظلُّ صامتةً رغم قلقي، لا أريد أن أزيدها همًّا. لكنَّ المال نفد، وما أعود به من السوق يتضاءل

كمًّا ونوعًا يومًا بعد يوم. صار البيض وجبتنا شبه الدائمة، إلى جانب البطاطا والمعجّنات. وغلوريا لا تأكل الكثير من النشويّات حفاظًا على نحافتها. ثم صارت لا تُكلِّمني كثيرًا فأشعر بالخجل من قلَّة حيلتي، وأحاول أن أفهم شيئًا من مكالماتها الهاتفيَّة الطويلة، إذ لا أعرف بأيِّ لغةٍ تتكلَّم مع أصحابها، ولا أسألها لأنَّها ربَّما لا تريدني أن أفهم. ورغم حبِّي لها، وخوفي عليها من أيِّ مكروه، وفرحي بصحبتها في البيت، صرتُ أتمنَّى أن تعود إلى الشغل، ويخطر لي أن أقترح عليها البحث عن ملهى آخر...

تعرفين مركز البريد في الساحة القريبة؟ سأرسل لكِ كلَّ مدَّةٍ حوالةً بريديَّة، مبلغًا شهريًّا إن استطعت. لن أنساكِ.

قبل أن تسافر غلوريا إلى سويسرا خرجت مرَّةً واحدة، في محاولةٍ أخيرةٍ للعودة إلى الملهى. عادت بعد ثلاثة أيَّام قضتها في المستشفى، بعد أن برَّحها ضربًا ذلك الشابُّ الذي كان يلاحقها. قالت إنَّها لم تصل إلى الملهى، ولم يدافع عنها أحدٌ في الشارع. وفيما هي تنتظر أن تتعافى كي تسافر إلى الشغل الجديد، كانت تحادثني في ما عساي أفعل في حياتي في حال حصل لها مكروه. فلغتي الفرنسيَّة جيِّدة، لكنَّها لا تكفي. وشكلي لا يساعد في إيجاد عملٍ أظهر فيه على الزبائن، كنادلةٍ غرسونةٍ مثلًا. كتبنا معًا سيرةً ذاتيَّةً كاذبةً عن خبرتي في الطبيخ، بحيث أبدأ العمل كمساعد طبَّاخ. لكنَّ وقوفي الطويل مستحيل. مع ذلك، هناك مطاعم يجبرها القانون على تشغيل المعوَّقين ومراعاة أوضاعهم... ثم ساعدتني في كتابة سيرةٍ ذاتيَّةٍ كاذبةٍ ثانيةٍ عن خبرتي في التدليك. صحيحٌ أنَّ صالونات التدليك تختار الفتيات الجميلات، وأنَّ الزبائن يفضِّلون الآَسيويَّات لضيق فروجهنّ، لكن أنتِ سيجدون فيك عنصرًا

أوريجينال، إذ هناك رجالٌ تستهويهم النساء القبيحات، أو السمينات جدًّا مثلًا، ربُّكِ وحده يعرف كيف ولماذا...

كان هناك أيضًا مهنة تقليم الأظافر، لكنَّ غلوريا اتَّفقت معي على أنَّ أصابعي الغليظة المعوجَّة لن تساعدني في الأعمال التي تتطلَّب الدقَّة. كذلك مهنة التطريز المطلوبة جدًّا... ثم ما لبثت غلوريا أن يئست، فراحت تضحك وتقول إنَّ الحياة كلَّها مفاجآت، وإنَّ من نفذ مثلي من الحروب وما شابه ربَّما يساعده الحظُّ ويربح باللوتو... على أيِّ حالٍ أنا لن أنساك، وسويسرا بلد خيرٍ ومال، والفرنك السويسريُّ قويٌّ جدًّا بفضل المصارف العملاقة المحميَّة هناك كأنَّها في قلاعٍ منيعة. والأهمُّ من ذلك كلِّه أنَّه بلد الزبائن المحترمين من عليَّة القوم، وشخصيَّاتٍ مهمَّةٍ تعمل في الأمم المتَّحدة. كوستوم كرافات، وليسوا من الأوباش كما هنا. وسأكون محميَّةً في أوتيل تحت نظر القانون، وعندي مديرةٌ أو مديرٌ يوزِّع الزبائن على غرف البنات، وشبابٌ فتوَّةٌ يُبعِدون الزعران. لم تقل غلوريا صراحةً إنَّها ستغيِّر مهنتها من راقصةٍ ترانس إلى شرموطةٍ مومسٍ ترانس. وأنا عملتُ نفسي جاهلةً ولا ألحظ الفرق.

توصيني غلوريا بأن أبقى في بيتها، وألَّا أدفع الإيجار طيلة أشهر الشتاء، فلا أحد يستطيع طردي بحسب القانون قبل دفء الربيع، وأنا أتمتَّع بحمايةٍ زائدةٍ كوني معوَّقة.

لم تحمل غلوريا إلى سويسرا سوى أغراضٍ قليلة. قالت وهي تودِّعني إنَّ باستطاعتي التصرُّف بكلِّ ما بقي في الشقَّة بحسب حاجتي، وبما أراه مناسبًا. وأنا لم أحتمل تهديدات مالك تلك الشقَّة وقتًا طويلًا. دخل عليَّ بالقوَّة. لم يكن يطالبني بالإيجار. كان يريدني أن أُخلي

الشقَّة. قال نعم القانون يحميكِ، لكن حين أرميكِ من الشبَّاك لن أعارض حُكم القانون في سجني، هذا إن وُجِدَ في المحكمة شاهد عيانٍ على ما سوف يصيبك. سأعطيكِ أقلَّ من شهر، وسأحجز مبلغ الضمان لتنظيف هذه الحظيرة.

لم تكن الشقَّة وسخةً كما وصفها الرجل، لكنَّها كانت مليئةً بالأغراض الكثيرة التي تركتها غلوريا لأتصرَّف بها، ولم أجد طريقة التصرُّف. أغراضٌ كانت تحبُّها وتعتبر الغريب منها فنًّا، بما في ذلك ما كانت تحمله من أكوام النفايات. وأغراضٌ لا أجد لها وجه استعمالٍ أو فائدةً لأسعى مثلًا إلى بيعها. وأشياء متروكةٌ هنا من سنين، كتلك الروزنامة القديمة التي أصبحت أوراق الشهور فيها، من قِدَمها ومن الرطوبة، كتنورةٍ ذات كشاكش تُذيِّل صورة السيِّدة العذراء، والتي أتوجَّس من وضعها في القمامة التي أجمعها في أكياسٍ كبيرة. أغراضٌ ثقيلة الوزن، من قلائد وأساور وقناني عطرٍ فارغةٍ وثيابٍ مذهَّبةٍ وأحذيةٍ بكعوبٍ كالكراسي...

لم يكتفِ الرجل الرذيل بالتهديد. قطع أسلاك الكهرباء، فغرقت الشقَّة في العتمة والبرد. ثم وجدتُ خراء كلابٍ على الباب وعلى ممسحة الأرجل.

حملتُ صُرَّةً صغيرةً وقلت: سأنزل عن هذه العليَّة أيضًا.

إنَّها سمينةٌ جدًّا، مدام، وهناك خطرٌ على الكُلى، قالت السيِّدة اللطيفة في المستوصف الأجنبيِّ الذي يعتني بالحيوانات، والذي بات يستقبل البشر أيضًا، ممَّن لم يشفوا من جراحهم من انفجار المرفأ فأخرجوهم من مستشفيات البشر، أو هم لم يجدوا لهم مكانًا هناك.

أعطتني السيِّدة بعض الأطعمة لزكيَّة في أكياسٍ ومغلَّفاتٍ صغيرة. قالت بما يشبه اللوم إنَّ الحيوانات الأليفة مسؤوليَّةٌ مدام، وهذا الطعام خاصٌّ بالريجيم، إذ بعد استئصال المبيض تسمن إناث القطط من قلَّة الحركة. عجيبٌ أنَّكِ لم تلاحظي ذلك مدام. ثم أعطتني موعدًا للفحص الطبِّيِّ العامِّ ومراقبة الوزن. وحين عدتُ في الموعد المحدَّد كان المستوصف قد أقفل أبوابه، نهائيًّا.

سألتُ مرارًا عن نبيل. في البداية كان معلِّمه يقول إنَّه ما زال ينتظره، ويتمنَّى أن يكون بخيرٍ في هذه الأيَّام العصيبة. ثم راح يختصر في الإجابة متبرِّمًا. أقلَّه يتَّصل بالتلفون، كان يقول. ثم صار يشير لي بيده من بعيدٍ أن لا خبر. حتى حين لا يكون مشغولًا صار لا يلتفت ناحيتي، فأنا ليس عندي سيَّارة.

اختفى نبيل، وأنا لا أعرف عنوان بيت أخيه، وإلَّا لذهبتُ وسألتُ عنه.

واستأجر شقَّة أمِّ منصور شبَّانٌ كثيرون جعلوها مخزنًا. لم أتبيَّن عددهم، لكنِّي كنت أراهم من عين الباب الزجاجيَّة يخرجون ويدخلون بصناديق من كلِّ نوعٍ وحجم. وفي الليل تبقى الشقَّة خاليةً مطفأة، لا أرى فيها نورًا أو أسمع صوت آدميّ، ما يعني أنَّه لا ينام فيها أحد.

كنت أقف وراء الباب أرقب حركتهم النشطة، التي لا يخفِّف من إيقاعها صعودًا ونزولًا توقُّفُ المصعد. وجوههم تتغيَّر ولا أسمع كلامًا بينهم. ماذا يعني أن يحوِّلوا شقَّةً في طابقٍ عالٍ إلى مخزن؟ المخازن تكون عادةً في الطوابق السفليَّة أو الأرضيَّة، أو تحت الأرض، لكي يسهل تحميل الصناديق في الشاحنات أو إفراغها منها. ثم لماذا لا ينام أحدٌ في الشقَّة لحراسة محتوياتها؟ ولماذا لا يضيفون قفلًا كبيرًا إلى باب الشقَّة، أو يُصفِّحون الباب كما يفعل السكَّان الآن، أمستأجرين كانوا أو مالكين؟

توجَّستُ كثيرًا ممَّا يحصل في شقَّة أمِّ منصور، وأتعبني الوقوف خلف الباب والتنصُّت عبر الحائط المشترك. رحتُ أتصوَّر أنَّهم حوَّلوا الشقَّة إلى مخزنٍ للأسلحة، ستنفجر بنا يومًا كما يحصل كثيرًا في البنايات، فتطير طوابق بكاملها حجرًا وناسًا، هذا إن لم يقتلعها الانفجار من أساساتها. والناس تُفضِّل القول إنَّها انفجاراتٌ تتسبَّبت بها عبوات الغاز القديمة التي لم تَعُد تلائم شروط السلامة.

احترتُ كثيرًا وفكَّرتُ بالذهاب إلى الأمن. ثم احترتُ بين أمن المركز الحزبيِّ القريب وأمن مخفر الدَّرك الجندرمة. لكنِّي خفتُ أن ألفت النظر وأثير الغضب من شكواي فينتقمون منِّي. وقد يتَّهمونني بالتجسُّس عليهم وتكبر التهمة.

ثم قرَّرتُ أن أنسى الحكاية برمَّتها، إذ لم أسمع اعتراض أحدٍ من سكَّان البناية، والكلُّ يعرف ما أعرفه، فالشباب بصناديقهم يتحرَّكون في وضح النهار، فلماذا أنا؟ وصاحب الدكَّان، الذي يعرف كلَّ ما يجري في الشارع، لم يهتمَّ لسؤالي، لم يبدُ عليه الحرج أو أنَّه يتجاهل السؤال. قلتُ في نفسي إنَّهم تُجَّارٌ صغار، أو حراميَّةٌ سارقون لا يؤذون أحدًا. عادي.

النبتة التي زرعتْ نفسها بنفسها على البلكون صار باستطاعتي أن أرجِّح من أوراقها العريضة أنَّها ستكون شجرة تين. كنت أُفضِّل أن أحظى بكرمة عنبٍ تُعرِّش وتمتدُّ لتصبح عريشةً وارفةً تُغطِّي سطح شرفتي، وتعطيني ذات يومٍ عنقودًا أو اثنَيْن. لكنَّها تينة، على الأرجح، من ذلك الفصيل الذي علَّق عليه يوضاس ندمه. ويوضاس الذي ندم حتى الموت لم يسامحه ولن يسامحه أحد، إلى أبد الآبدين، وهذا ظلمٌ لأنَّ يسوع اختار له الخيانة، وأنا شخصيًّا أعتقد أنَّه كان يفضِّله حتى على يوحنا، الذي يسمِّيه الحبيب. وثق به تمامًا، والدليل هو تأكُّد يسوع من أنَّ يوضاس سيخونه، فاتَّكل عليه ليكتمل العهد. ثم أنا لا أعتقد أنَّه كان قبيحًا كما في صور الكنيسة، أسمر أجعد الشعر ومعقوف الأنف. سأعتني بالتينة.

سوَّيتُ أوراق أمِّي جيِّدًا فصارت كأنَّها مكويَّة. وكان آن الأوان لأن أجعلها في غلافٍ سميك، وأرفعها إلى رفٍّ من رفوف الخزانة التي أصلحتُ بابها. لم يكن يلزمه سوى مفصَّلاتٍ معدنيَّةٍ جديدةٍ وبعض البراغي.

حين أفكِّر بنبيل وباختفائه أُجهِد نفسي في إيجاد أسبابٍ موجبةٍ أو أعذارٍ مُقنعة. من الصعب أن أجد تلك الأعذار، لأنِّي لا أعرف الكثير

عن حياته. اشتياقي لنبيل يُعِيد صورته إليّ، فأجد أنِّي كنت أحبُّه كثيرًا، لكنِّي قبل غيابه لم أكن أعرف. وأفكِّر بأنَّه هو أيضًا ربَّما كان يحبُّني، ولو أنَّه لم يودِّعني. ربَّما لم يستطع توديعي لظروفٍ قاهرة، وهو الآن نادمٌ قليلًا، ويشتاقني في غيابه عنِّي ويفكِّر فيّ. ويُعِدُّ في رأسه تلك الأسباب التي سيقول لي كيف ولماذا منعته من وداعي، ثم من العودة لرؤيتي. مهما كان الأمر، فإنَّ الشوق لرؤيته يذهب بي إلى الشعور بأنَّه تركني، وإلى الشكِّ أحيانًا في أنَّه كان صديقي وأحبَّني فعلًا.

أخاف أن تتركني زكيَّة هي أيضًا ذات يوم. أُدلِّلها وأُسايرها، لكن لا شيء يضمن تعلُّقها بي. الناس تفترق كثيرًا، وتنسى بعضها من دون سببٍ مهمّ. فقط لأنَّ عجلات الحياة تدور. والقطَّة كالناس، ولم يروَ عن القطط ما يُروى عن الكلاب من إخلاص، مثلًا، من أنَّ أحدها، ألمانيٌّ على ما أذكر أو نمساويّ، ظلَّ ينتظر عودة صاحبه ستَّ سنواتٍ أو سبع، لا يتحرَّك من محطَّة القطار حيث تركه. أعتقد أنَّ الكلاب الأجنبيَّة مختلفةٌ كثيرًا عن كلابنا. أعرف سبب زعل زكيَّة، لكنِّي أفكِّر في مصلحتها. فهي تنظر إليَّ بعينْها الشرهة كلَّما قرَّبتُ منها أكل الريجيم الذي تبتلع وجبته بلحظة، ثم تذهب بعيدًا ولا تعود تردُّ عليّ. قرَّرتُ أن أوقف الريجيم، وأن أُعِيدها إلى الأكل الطيِّب وإلى السُّمنة. يكفيها من ظلم القدر ما عانت منه هذه المخلوقة المعذَّبة. يللا اسمني على كيفكِ زاكو. كُلي، فليس مطلوبًا منكِ أن تكوني راقصة باليه، ولا لاعبة جمباز. تعالي نأكل ونهنأ بسُمنتنا اللذيذة معًا. عودي إلى حبِّي.

نأكل معًا، جنبًا إلى جنب، أنا وزكيَّة قُبالة التلفزيون. قرَّر سكَّان البناية أنَّ الاشتراك إجباريّ، فدفعتُ الاشتراك واشتريتُ تلفزيون يفتح على ما يزيد على مئة قناة، أكثرها لا نفهم لغته ولا من أيِّ بلدٍ يبثّ.

اشتريتُ أيضًا صندوقًا بلاستيكيًا صغيرًا، له شبَّاكٌ أماميٌّ ومسكةٌ للحمل، وصرتُ أضع فيه زكيَّة ونذهب للنزهة معًا. كنتُ أُدخِلُها الصندوق بالقوَّة ورغمًا عنها، لكنَّها حين اعتادته صارت سرعان ما تستكين، وتروح تتفرَّج من شُبَّاكه. بسبب التلفزيون ازددنا سمنةً أنا وهي، فقرَّرتُ أن نضاعف من نزهاتنا وألَّا نستسلم للكسل. الكسل والأكل. لكنَّ زكيَّة لم تكن تستمتع بالحياة. تبدو راضيةً وحنونًا معي، لكنَّها غير سعيدة. ولو لم تكن أصبحت سمينةً هكذا وقليلة الحركة، لأخذتني الشكوك بأنَّها تصطنع الدعة والقناعة لكنَّها تضمر لي خيانةً ستنتهي بالهرب. لا أعتقد أنِّي أقوم بتسمينها عن قصدٍ لكي تبقى معي ولا تتركني، فأنا أتفحَّص بولها باستمرارٍ لأطمئنَّ على حال كليتَيْها. أنا لستُ سجَّانها كما قد يتبادر لذهنها كقطَّة، وبما أنَّها ليست كلبًا مفطورًا على الوفاء، كما كان رامبو.

لكنَّ رامبو لم يكن كلبًا عاديًّا. فقد أحببتُه وتعلَّقتُ به رغم عدم استعدادي لحبِّ الكلاب، إذ يتطلَّب ذلك الكثير من الاعتناء بهم، مثل تمشيتهم في الليل والبرد وتحت المطر كي يقضوا حاجتهم، وتنظيف السوائل التي تسيل من أشداقهم باستمرار. وأنا بالكاد لي طاقةٌ على الاهتمام بنفسي. ثم إنَّ تعلُّقهم بصاحبهم قد يربك حركته ويعيق إحساسه بالاستقلال، كالعاشق الذي يلتصق بمعشوقته، ويشفط الهواء من حلقها لأنَّه عقد النيَّة على حبِّها إلى الأبد. يكفي أن تسمع «إلى الأبد» حتى تشعر بالاختناق كسجين الحُكم «المؤبَّد»، الذي قد يفضِّل حكم الإعدام، على ما أعتقد.

رامبو لم يكن متطلِّبًا، وهو رغم تقدُّمه في العمر كان دومًا متيقِّظًا لحمايتنا، وكانت حمايتنا ضروريَّةً منذ عرفه رشيد جروًا صغيرًا. لم يكن

يلتصق بنا تعبيرًا عن حبِّه وتعلُّقه. كان موجودًا معنا في مهمَّةٍ محدَّدةٍ وواضحة. خارج تلك المهمَّة كان ينسانا وكنَّا ننساه، لا حبَّ ولا دلال. كأنَّه لم يكن كلبًا أجنبيًّا، أو كأنَّه ربِيَ كما ربينا، بلا أهلٍ أو وِجارٍ يحمي رأسه.

هكذا اكتشف رامبو سرَّ الشاحنة.

بقيت الشاحنة، المتوقِّفة عند طرف التجمُّع السَّكنيِّ الذي يضمُّ بنايتنا التي تشبه السفينة الجانحة، بقيت أيَّامًا عديدةً لا تتحرَّك من مكانها. لم تكن شاحنةً قديمةً مهترئة، أو خردةً متروكةً هناك، قرب مكبِّ النفايات، للتخلُّص منها من دون دفع مستحقَّات سحقها ومحو سجلَّاتها وأثر بياناتها. لم يقترب أحدٌ لسرقة قطعٍ منها، لا العجلات ولا حتى المرايا السهلة القبع. لذا بدأت تثير الريبة لأنَّ أحدًا لم يَرَ صاحبها أو سائقها أو ميكانيكيًّا أتى لتصليحها. قال رشيد ننتظر أسبوعًا، فإن لم يبدأ تفكيكها نفكِّر في الأمر بشكلٍ جدِّيّ. وهو كان رأى الشباب يدورون حولها، وتوقَّع أن تتحوَّل سريعًا إلى هيكلٍ حديديٍّ مهما كانت أقفالها، ميكانيكيَّةً أو إلكترونيَّةً أو غيرها. ففي بنايتنا أصحاب اختصاص، خاصَّةً في تصدير، تهريب، القطع إلى الخارج، وذلك أضمن من سرقتها كلِّها وأسهل. لكنَّ ذلك لم يحصل. وصار رامبو، كلَّما اقتربنا ولو قليلًا من تلك الشاحنة، ينبح بقوَّة. ينبح في مجيئنا ورواحنا. شدَّه رشيد من رقبته في ذلك اليوم، وراح يحاول جرَّه إلى قرب الشاحنة، ورامبو يدقُّ قوائمه في الأرض وينبح. فكَّر رشيد قليلًا، ثم أتى بشلف حديدٍ غليظٍ وتوجَّه إلى خلفيَّة الشاحنة. وبذراعه الوحيدة استطاع خلع القفل الخارجيّ، ثم قلع العارضة التي تسدُّ البابَيْن الخلفيَّيْن.

وصلت الشرطة بعد أن تأكَّدت من صحَّة البلاغ. بقي الناس المتجمهرون وراء صندوق الشاحنة يتفرَّجون على داخلها من بعيد، بعدما منعتهم الشرطة من الاقتراب. وحده رشيد بقي هناك، ثم ساعدهم في تمرير المرأة من فوق الجثث لتشرب. ناولها الماء، لكنَّ الشرطيَّ منعها من النزول من الشاحنة. نو نو، كان يقول لها رافعًا كفَّه، إذ بدا أنَّها لا تفهم اللغة.

كان هناك ستُّ جثث، قال رشيد للناس المتفرِّجين إنَّهم من المهاجرين غير الشرعيِّين، وإنَّهم توفُّوا من وقتٍ قصير، من يومَيْن على الأرجح. هرب سمسارهم وتركهم هنا. وقال إنَّ المرأة نُقِلَت إلى إحدى المستشفيات.

بعد قصَّة الشاحنة صارت الناس تهاب رامبو أكثر، وبالتالي رشيد. رشيد الذي زاد من نفخ صدره، ومن تبختره في مدخل البناية كالبطل.

لكنَّ ذلك لم ينفع. بل الذي حصل هو العكس.

صرتُ أستيقظ كثيرًا في الليل.

في البداية كان ذلك بسبب الألم. نقراتٌ قويَّةٌ في معصمي كلسعات الكهرباء ووخز الإبر، تمتدُّ إلى الإبهام. أضيء النور، أو المصباح الصغير، فلا أرى أثر الألم ظاهرًا. أُدلِّك كامل اليد والذراع بمرهمٍ مضادٍّ للالتهابات وأنتظر، ثم بمرهمٍ مخدِّرٍ يبثُّ حرارةً قويَّةً وأنتظر. لا شيء يخفِّف من الألم. أنتظر أيضًا حتى أستطيع النزول من السرير، ففقرات ظهري لا تلين بسرعة، وصرت أخاف من الوقوع إذا ما استعجلتُ لحاجةٍ طارئة، كالتبوُّل مثلًا.

ثم اعتدتُ الاستيقاظ في الليل. كأنِّي صرتُ أخاف النوم، أخاف أن يحصل لي مكروهٌ بشكلٍ مباغتٍ ولا أجد من يساعدني، أو يسمع نداءات استغاثتي.

صرتُ أخرج إلى الصالة ولا أبقى في السرير، وشيئًا فشيئًا وجدتُ أنَّ الليل يلائمني أكثر من النهار. تأتيني أفكار الليل متخفِّفةً من المعاني، ولا تصلح للحركة المفيدة المنطقيَّة الهادفة أو لاستخلاص العِبَر. تكون أفكارًا غير مترابطة، تروح وتجيء بلا لزوم، ولا تُفضي إلى واجباتٍ أو فروض. لا هي من الذاكرة الثقيلة، ولا هي تنتهي مشاريع

لليوم التالي... كأنْ أقول إنَّ لون الأرجوان الفينيقيِّ القديم مختلفٌ عمَّا نصفه اليوم بالأرجوانيّ، لأنَّ تلوين القماش بالمكوِّنات الكيميائيَّة يغيِّر كثيرًا من مروحة الضوء الذي يحمله إلى أعيننا. أو كأن أتساءل إن كان مرضي موجودًا أيَّام روما القياصرة، أم إنَّه مرضٌ حديث العهد نتج من تلاعبنا بعناصر الطبيعة. أو كأن أعثر على فكرة اختراعٍ جديدٍ لتنظيف المرحاض، كجعل الفرشاة المخصَّصة لذلك تحتوي، في جيبٍ في أعلاها، على المادة السائلة المطهِّرة، بدل أن نستعمل العبوة التي نضعها إلى جانب الفرشاة.

وفي متع الليل الخفيفة المتخفِّفة من ثقل المعاني، أغنِّي أحيانًا بصوتٍ خفيض، أغنياتٍ مشهورة، من زمنٍ يقولون عنه إنَّه الزمن الجميل. وبصوتي النشاز العاجز عن أيَّة نوطةٍ جميلةٍ أو مضبوطة، أكتشف كأن فجأةً وقاحة من وضع تلك الأغاني، ووقاحة من غنَّاها، ووقاحة من سمعها وردح كلماتها. كنت مثلًا ناسيةً المغنية طروب، أو إنِّي كنت أحبُّ خفَّتها وضحكاتها وغنجها. وكان لها أختٌ صغيرةٌ أحبُّها قليلًا هي أيضًا، واسمها ميَّادة. أروح أغنِّي لها «لو عندي شاكوش...»، وأضحك لوحدي. لكنِّي حين أرندح أغنية «يا ستِّي يا ختيارة» للأخت البكر يأخذني الغضب، قليلًا، ختيارة السيَّارة الحارة السيكارة. كأنَّهم ألَّفوا الأغنية من أجل تكرار القافية «رة»، را را را، وألصقوها على «بورومبوبو»، الموسيقى الإسبانيَّة الشهيرة.

وعن ذلك «الزمن الجميل» يتزحلق مزاجي إلى أغانٍ وأفلامٍ نادرةٍ في سخفها وبشاعتها إلخ... فأكفّ، مستبقةً فساد متعتي. عش ودع غيرك يعيش، أقول في نفسي لنفسي. ماذا يضيركِ أنتِ لو استمتعتِ الخليقة بما تجده جميلًا من ماضٍ يستعيضون به عن خواء أيَّامهم

وهراء معانيها؟ أم إنَّك ستفعلين مثل أمِّك، فتقولين: ماذا تبقَّى لنا من الماضي سوى أسوأه؟

أعتقد أنِّي صرتُ أُفضِّل الليل لأنِّي صرتُ أكره الناس. ليس كرهًا حقيقيًّا، ليس حقدًا أو غضبًا، فأنا لا أتمنَّى السوء لأحد، لكنِّي أُفضِّل ألَّا أراهم، ألَّا أراهم وألَّا أسمعهم. لعلَّه نوعٌ من التعب، تعبٌ عميقٌ من الضجيج، من الثرثرة ومن الأصوات العالية، العالية النشاز دائمًا. من كلامٍ يتنطَّط في الهواء بلا وجهةٍ أو كوابح، ينتفخ بنفسه ويسدُّ الحلق كرياح الأتربة والغبار في أيَّام الخماسين، لا يكنُّ ولا يهدأ. أو كلامُ بأصواتٍ كالمفرقعات المؤذية في طبلة الأذن، سيَّالٌ بلا توقُّف، يجتاح الأرض والفضاء ويهدر هديرًا بأمواج الوحول والسيول الدافقة، التي لا تروي شيئًا ولا أحد يعرف منابعها. صارت الحناجر البشريَّة عدوَّتي.

في الليل أحاول أن أُفرغ رأسي من كراكيب النهار ومخلَّفاته، أن أشطفه وأكشط عنه الزنخ والحموضة والعفن. ولا أنجح دائمًا. لا أنجح دائمًا لكنَّه تمرينٌ مفيدٌ للصِّحَّة. مكتبة سُر مَن قرأ

صرتُ أُفضِّل اليقظة ليلًا لسببٍ آخر اكتشفتُه مع الوقت، فأنا لا تأتيني الأحلام إن نمتُ في النهار على الكنبة. الأحلام تأتيني فقط في الليل وفي السرير. وأنا لا أحبُّ أحلامي. هي ليست كوابيس، وليست مخيفةً أبدًا، لكن حال استيقاظي منها أتوجَّس ممَّا تتركه فيَّ من انزعاجٍ ومرارة، ومن خوفٍ بمفعولٍ رجعيٍّ لا أدري سببه. أحلامٌ غريبة، وقد يحصل أن تأتيني أحلامي بصورٍ جميلة، لكنَّها في النهار تتحوَّل وتنقلب.

كذلك الحلم المتكرِّر. أرى في المنام أبي. أبي وأمِّي. نحن في سيَّارةٍ فارهة، جميلةٍ فخمةٍ ومريحة، كتلك التي نراها في الدعايات وأكثر.

أنا وأمّي نغرق في ترف المقاعد الجلديَّة، ونتّكئ على وسائد وثيرةٍ من المخمل اللمَّاع كالحرير، والمزدان بكشاكش الدانتيل. أبي في مقعد السائق، وهو من يقود السيَّارة فلا أراه إلَّا من الخلف. لا أرى وجهه. السيَّارة تنزلق بهدوءٍ على إسفلتٍ كأنَّه من الساتان. والطريق تمتدُّ في أفقٍ صحراويٍّ لا مصابيح عموميَّةً تُنيره. لا بيوت ولا أشجار ولا صور زعماءٍ ولا عواميد إنارةٍ أو لوحاتٍ إعلانيَّة، لكنَّنا نرى كلَّ شيءٍ بوضوح. ثم نصير على طريق المطار، إذ نرى الطائرات على المدارج الواسعة. طائراتٌ كبيرةٌ مضاءةٌ بقمرٍ بدر، تلتمع في الضوء كأنَّها مرشوشةٌ بحُبيبات السُّكَّر، أو كأنَّها ألعاب أطفالٍ عملاقة. وحين تصل سيَّارتنا إلى حيث ينزل الركَّاب ويتوجَّهون إلى باب المطار، أجد نفسي لوحدي ولا أحد بجانبي، ولا أجد أبي. أتساءل كيف وصلت السيَّارة إلى هنا من دون سائق؟ وأين أبي؟ وهل كان السائق أبي؟ وحين أهمُّ بالنزول من السيَّارة أجد أنِّي بجسمٍ مختلفٍ عن جسمي المريض، أنَّه خفيفٌ وليِّن الحركة. ومن دون أن أراه أشعر بأنَّه جميلٌ لأنَّه طبيعيّ، ويشبه ذلك الذي كان لي طفلة. أتنفَّس عميقًا وأنزل من السيَّارة. لا أبحث عن حقائب ولا أدخل باب المطار، بل أروح أتفرَّج على الطائرات المغمَّسة بحُبيبات السُّكَّر، كأن ليس هناك رحلةً تنتظرني. كأنِّي لست مسافرة. ولا يقلقني اختفاء أمِّي وأبي أو كوني وحيدة.

كلُّ ما في حلمي هذا، مثلًا، رائقٌ وجميلٌ ومريح، فلماذا ينقلب إلى انقباضٍ شديدٍ في ساعات النهار؟ لا يكفيني أن أفكِّر بأنَّ افتقادي أهلي، أو ضياعي في المطار الفرنسيِّ الكبير وحيدةً لا أحد ينتظرني، هي أسباب المرارة التي تلفُّ قلبي.

نهاراتي تزداد صعوبةً مع الوقت. لا أجد ما أفعله سوى النوم. لكنِّي لا أستطيع أن أنام طيلة ساعات النهار. أحاول أن أُسلِّي نفسي

رغم أنَّ جسمي لا يساعدني. كنت أعجن حين ينقطع الخبز، أو حين أتكاسل عن الذهاب إلى الفرن. الآن يلتصق مزيج الطحين والماء بيدَيَّ وتؤلمني أصابعي. كذلك لم يَعُد باستطاعتي خياطة زرٍّ أو حشو كوسايةٍ حتى على طريقتي. ضجر، ومعرفةٌ مُسبَقةٌ أكيدةٌ بتردِّي صحَّتي. حتى متعة الاستحمام صار صعبًا وصولي إليها، فأنا أزداد قرفًا من رؤية أطرافي العارية، إلى جانب خوفي من الانزلاق. وفي الحمَّام ألاحظ أنَّ الشعر ينبت على جسمي في أماكن كثيرة، وعلى وجهي أيضًا، ولا أقبل بأنَّه بات عليَّ أن أحلق منابت تلك البُصيلات المجنونة بآلة الحلاقة كالرجال. ويزداد قرفي من جسمي لأنَّه من دون الماء والصابون يزداد تعرُّقًا، وأشمُّ له رائحةً كريهةً لا أتخلَّص منها بخِرَق السبيرتو والكولونيا. ولأنَّه جسمي، قد تكون روائحي أكثر وأبشع ممَّا أشمُّ من إبطيَّ وعانتي وحتى قدميّ. ولا أعرف إن كانت زكيَّة تعوَّدت روائحي فلا تنفر منِّي.

أخاف كثيرًا من الوسخ، وأشعر بأنِّي أقع فيه باضطرادٍ قَدَريٍّ لا محالة. الوسخ أصبح عذابي الكبير. قرينتي. القْرينة التي كانت تُخبرني عنها أمِّي، فيخطف الخوف عقلي، رغم تكرارها بأنَّها لا تؤمن بحكاياتها، ولا بوجودها برمَّته أصلًا. لكن ما يبقى من الحكاية لا علاقة له بالحقائق. الحكاية تنغرس في مكانٍ ما من الرأس، وتكبر من نفسها وتتضخَّم كمرض الأكروميغاليا. الحكاية لها غددها وهورموناتها، وقوانين وأعراض هذه وتلك. وليست أمِّي هي المرجع الصادق لرواية الصيغة الملائمة، واقعًا أو خيالًا.

القرينة، بحسب رواية أمِّي عن جدَّتي، أمِّها، هي توأمٌ لكلِّ إنسان، تولد معه وفي لحظة ميلاده لكن تحت الأرض، في عالم الجنِّ الموازي لعالم البشر. عالمٌ كاملٌ مكتملٌ تحت قشرة الأرض أو في باطنها.

قد تخرج مخلوقاته في الليل من الينابيع أو الكهوف، لكنَّها تعود إليه مع أضواء الفجر الأولى. والجان، إناثًا أو ذكورًا، هم أخواتٌ وإخوةٌ لنا يشبهوننا في كلِّ شيء. هم توائمنا، أو قُل إنَّهم نيجاتيف صورنا. هم في أسود الليل ونحن في ألوان النهار. بلادٌ تحت بلادنا. وطنٌ بتاريخه وجغرافيَّته تحت وطننا، وله علمٌ وراياتٌ هي مثل أعلامنا وراياتنا، لكن معكوسة الألوان...

وككائنٍ ليليّ، تخضع القرينة أكثر منَّا لأحكام الغرائز، وتميل خصائصها إلى الاعتباطيَّة وغياب المنطق العادل الضابط للسلوك. هكذا روت جدَّتي ونقلت عنها أمِّي. فهي قد تولد صالحةً ترأف بالبشر وتتفهَّم عوالمهم، أو طالحةً تتَّصف بالقسوة وحبِّ الانتقام والظلم. هكذا، إذا أخطأتِ التصرُّف مع قرينتكِ الشرِّيرة فإنَّ قصاصها يكون شديدًا وفي منتهى القسوة، ولو كانت الإساءة عن جهلٍ أو عن غير قصد، ولا ينفع معها تقديم الأعذار. فإذا دلقت مياهًا ساخنة، مثلًا، من دون استئذان قرينتكِ أو تنبيهها بالبسملة أو برسم إشارة الصليب، فإنَّ غضبها سيكون عظيمًا. ولا تعجب إن هي انتقمت منكَ في أعزِّ ما لديْك، في حُكمٍ مُبرَمٍ لا رجعة عنه وليس له أسبابٌ تخفيفيَّة. هكذا قاصصت جدَّتي قرينتُها بأن ضربتها في رحمها، فلم يعش لها وليدٌ بعد أمِّي وخالي. كانت القرينة تخطفهم حال ولادتهم، أو قبل ذلك بقليل، لتحرق قلب جدَّتي التي حرقت وجهها بالماء الساخن. وكانت القابلة المسكينة شاهدةً على فعل القرينة ولا تستطيع حيالها شيئًا. ورغم معرفتها بعالم الجنّ، إذ كانوا يستعينون بها أحيانًا حين تتعسَّر الولادة في ممالكهم، لم تكن وساطتها تنفع. بل إنَّ شفاعتها تلك قد ترتدُّ غضبًا عليها إذا هي بالغت في الطلب... وكما تحت الأرض كذلك فوقها، أقول في نفسي...

تقول أمِّي إنَّها لا تصدِّق حكاية أمِّها، ولا تعتقد مطلقًا أنَّها، هي، لم تحمل بعدي بسبب غضب قرينتها أو لعنتها. بل إنَّها كانت تبالغ في الاستهزاء من حكايات القرينة، لدرجة أنِّي كنت أقول إنَّ مبالغتها تلك إنَّما تدلُّ على رعبها العميق من أن تكون قرينتها خطفت هند. ذلك قبل أن تقاصصها تلك القرينة بضربي أنا بالمرض الملعون.

لكنَّ أمِّي قرَّرت أن تكون هند قرينتي أنا.

حيرتي من رواية أمِّي، من عدم محاولتها التخفيف من خوفي واستغراقها في التفاصيل المرعبة، جعلتني أبحث عن أسباب استحالة الإنجاب بعد حملٍ طبيعيّ. الجواب اسمه الرَّحم القرني، وهو تشوُّهٌ يُصيب الرَّحم عند بدء الحمل فيجعل له ما يشبه القرنَيْن، أي يصير الرَّحم على شكل قلب، ما يرفع نسبة الخطر في فقدان الجنين في الشهور الأولى. ويتكرَّر الإجهاض ما لم يستردَّ الرَّحم شكله الكرويَّ الأمثل.

لم يبقَ من حكايات القرينة تلك إيمانٌ كثير. لم يبقَ في حكايات النهار. لم يبقَ سوى هواجس مخلوقات الليل...

وبقيت الاستعارة، كأن أسمِّي ما يلازمني وأكرهه بالقرينة، كالوسخ مثلًا.

أو تَقَابُل حياتَيْ النهار والليل، وكيف أكون مختلفةً في كليْهما، وكيف أقوم في الليل بفعل أشياء لا تخطر في بالي ولا تستهويني في النهار، كأن أقضي ساعاتٍ أمام التلفزيون، أتفرَّج على برامج مخيفةٍ عن الإجرام والمجرمين الأشهر في التاريخ، فأتابع تفاصيل ما كانوا يقومون به من تعذيب ضحاياهم، ثم ترويعهم قبل التلذُّذ بقتلهم بحسب

مزاج القاتل. وأكثر تلك الحلقات تشويقًا هي حين يغيب دافع القتل المتعارَف عليه، من طمعٍ بالمال، أو انتقامٍ من عشيقٍ أو من أحد أفراد العائلة لخلافٍ على ميراث. قتلٌ بهدف القتل. لذَّةٌ تتصاعد وتتواتر ولا كابح لها. ويصير القتل، القاتل، متسلسلًا.

ساعات ليلٍ طويلةٌ مع القتلة وفنون التقتيل والفظائع، ولا أشعر بخوفٍ أو رهبةٍ أو تقزُّز، بل ربَّما بشيءٍ من المتعة، إذا ما توخَّيتُ الموضوعيَّة من نفسي. وفي النهار يروِّعني منظر صرصورٍ ميتٍ منقلبٍ على ظهره، رافعًا أرجله في الهواء، فلا أقوى على كنسه.

ولا أسأل نفسي إن كان لذلك صلة بعدم حبِّي للناس نهارًا، في أن يكون النهار هو قرينتي، إلى جانب الوسخ.

قلتُ لزكيَّة إنَّ هذا التلفزيون، بقنواته التي تزيد على المئة، إنَّما هو خرا بالخلّ، كما كانت أمِّي تصف باختصارٍ شديدٍ ما لا يعجبها ولا تريد الخوض فيه: خرا بالخلّ، تقول.

تروي المرأة التعيسة للمذيعة المفجوعة قصَّة شقاءٍ قلَّ نظيرها في اجتماع نوائب الدهر. فهي، اليتيمة الأمّ، أصابها شلل الأطفال، قبل أن يغتصبها أبوها، ثم يطعنها زوجها بسكِّين المطبخ عدَّة مرَّات، فتهرب إلى بيت عمِّها، الذي ينهار سقفُه عليها من شدَّة فقر العمّ. وحين تلجأ إلى العمل في كباريه محترم، يجدها ابن عمِّها فيلاحقها ليغسل عاره... وفيما يبكي جميع من في الاستديو مع المرأة القليلة الحظّ، أقول لزكيَّة إنَّ الرموش الاصطناعيَّة، الكثيفة جدًّا والطويلة جدًّا والمُكحَّلة جدًّا، ليست ضروريَّةً بالمرَّة، لأنَّها قد تذوب من كثرة الدموع وتقع. وإنِّي، لو كنتُ مكان تلك المرأة التعيسة، لاعترضتُ على هذا الماكياج لأنَّه يشكِّك بمصداقيَّة الحكاية، رغم وجوب اعتماد الرموش الاصطناعيَّة في كلِّ مكان. حتى إنَّها باتت تُباع في الدكاكين، ومع كلِّ زوجَيْن من الرموش رمشٌ إضافيٌّ هديَّة. رغم ذلك، أقول لزكيَّة إنَّه كان ينبغي المجازفة طلبًا للواقعيَّة، وإلَّا فلن يعود ينفع تكرار المذيعة بواجب أن يعي المجتمع أضرار الحرب الأهليَّة وأهوالها. لو كانت المرأة التعيسة من

دون رموشٍ لانتبه المشاهد أكثر، وبالتالي المجتمع، إلى ما وصلت إليه تلك المرأة من ظلمٍ وشظف عيش...

ما علينا، أنا لا أحبُّ الاعتراض على ما يُجمِع الناس عليه، ولا أعتقد أنَّ لي الحقَّ في تنصيب نفسي حَكَمًا أو قاضيًا أو مفتيًا. فمن أكون أنا لأضطلع بمهمَّاتٍ كهذه إذا كانت أكثريَّة الناس مقتنعةً بقضيَّة ما؟ وماذا أجني إن أنا رحتُ أرفع الصوت وأعترض؟ تلك ليست مهنتي، وأنا لا أدَّعي إفهام الناس أو وعظهم. فلا أنا أستاذٌ ولا خوريٌّ ولا مفكِّر، ولا أعرف عن الحياة أكثر ممَّا يعرفه غيري، بل على العكس تمامًا. فعدا عن تركي المدرسة في سنٍّ مبكرة، فإنَّ ما في رأسي من معلوماتٍ اعتباطيَّةٍ جمَّعتها كخردةٍ في كرتونة خردوات، لا يجمع بينها سوى الصندوق الذي استقرَّت فيه. ثم إن كنتُ أصلًا لا أكلِّم أحدًا ولا أحد يكلِّمني، فما معنى تلك الأفكار برمَّتها؟

أنا فقط أحدِّث زكيَّة بما يخطر لي، ولأنِّي متأكِّدةٌ من موافقتها المسبقة، أقلَّه من صمتها وعدم وشايتها بي.

لذا أقول لزكيَّة إنَّ الناس تكذب كثيرًا، من دون أن أدَّعي بأنِّي أملك الحقيقة، أو أنَّ لي سلطة التصحيح أو واجب كشف الزيف. أخبرتُها، مثلًا، بما قال لي نبيل ذات يوم، من أنَّ أحد زبائن الكاراج الذي رآني مارَّةً على الرصيف طلب التعرُّف إليّ. وحين سأله نبيل عن سبب إلحاحه، شرح له الرجل الحكاية قائلًا إنَّه يعمل موظَّف ديكور في إحدى قنوات التلفزة التي تقدِّم برنامجًا شهيرًا عن الصحَّة والجمال، وإنَّ أحد اختصاصيي التجميل، وتحديدًا الجراحة التجميليَّة، يبحث عن امرأةٍ قبيحةٍ جدًّا ليرينا كيف أصبحت بعد العمليَّة جميلةً جدًّا. وحين

استعجب نبيل من كلامه وشكَّك في قبولي العمليَّة، طمأنه الرجل بأن ليس هناك جراحةٌ ولا عمليَّة. هم سيستخدمون صورتي فقط، أو لقاءً سريعًا مسجَّلًا معي، ثم يجيئون بامرأةٍ أخرى، جميلةٍ طبعًا، ليقولوا إنِّي هكذا أصبحت بعد العمليَّة. وهم، لقاء مبلغٍ محترمٍ من الدولارات، لا يطلبون سوى أن أحفظ السرّ. اسألها، قال الرجل لنبيل، فالناس عمومًا تحبُّ الظهور في التلفزيون حتى ببلاش.

قلتُ لنبيل، قاطعةً عليه ضحكاته وتعليقاته، إنَّه كان عليه أن يعرض الأمر عليَّ ويأخذ برأيي، فربَّما كنتُ وافقتُ وتسلَّينا وشاهدنا التلفزيون من الداخل. ثم رحتُ ألومه لأنَّه لم يسأل عن المبلغ الماليِّ وكم سيدفعون لي، وأنا في حاجةٍ للمال لأنَّ دولاراتي تذوب مع ارتفاع الأسعار. ولم يعرف نبيل المذهول والحيران إذا كنتُ جادَّةً أم كنتُ أمزح معه. أنا أيضًا لم أعرف.

المهمّ.

المهمُّ أنِّي أشرح لزكيَّة كلَّ ما نشاهده معًا على التلفزيون، أو أعلِّق بوجهات نظري كي تتابع معي على نور. نتابع البرامج الهادئة إجمالًا، لا صراخ ولا نقاش يتقاتل خلاله الناس، ونُفضِّل قنوات الحيوانات، إذ نتعلَّم معًا أشياء مفيدةً عنِّي كإنسانٍ وعنها كحيوان، ونجد ذلك مشوِّقًا جدًّا، وفيه مناظر طبيعيَّةٌ خلَّابة.

هكذا، مثلًا، شاهدنا حلقةً عن الأسماك، ردَّتني إلى مقارنة عودتي إلى البلاد مع عودة سمك السلمون إلى مسقط رأسه. ضحكتُ وسخرتُ كثيرًا من قصديَّة وإخراج القناة وهي تدَّعي التقرير العلميّ. فأسطورة الحنين، حنين بيوض السمك، كان يرويها المذيع بصوتٍ

رومنطيقيٍّ عذبٍ وحسَّاس، يستعير إلياذة هوميروس في الرغبة الجامحة بالعودة إلى الوطن، أي إلى الموت حيث باضتنا أمَّهاتنا واستمات آباؤنا من أجل تلقيحنا. لكن، حين رأيتُ ما أصاب الأسماك بعد تكبُّدها كلَّ أنواع المصاعب ووصولها إلى منتهاها، أي عودتها إلى مسقط الرأس أو مسقط البيض، كيف من الزهريِّ صارت أجسامها حمراء دمويَّةً ومُثخنةً بالجِراح، وكيف تضخَّمت عظام رؤوسها وبرزت أشداقها ونتأت محاجرها وتسنَّنت أسنانها، أدركتُ شدَّة شبهي بها. قلتُ إنَّ رأسي يشبه رؤوسها فعلًا، وإنَّ بإمكاننا أن نسمِّي ذلك بأكروميغاليا الوطن، ببيضٍ نبيضه في مساقط رؤوسنا، أو من دون بيضٍ كما في حالتي.

قلتُ لزكيَّة: زاكو، انظري الشبه. زاكو، ربَّما بات علينا أن نعترف بأنَّ الموت أصبح قريبًا. بما أنَّنا عدنا إلى المساقط، إلى الينابيع الرقراقة...

لم نَعُد، لا أنا ولا زكيَّة، نتسلَّى فعلًا بمشاهدة التلفزيون.

أترك القطَّة في دفء الداخل وأخرج إلى البلكون.

أخرج من داخل الشقَّة الصغيرة كأنِّي أريد الهرب. أريد الهرب أقلَّه بنظري من الجدران القريبة. أفكِّر بأنَّ المدى البعيد ضرورةٌ للتنفُّس. العين كأنَّها موصولةٌ بالرئتَيْن.

لكن هنا لا مدى ولا لون. بدأتُ أشعر بضيقٍ رغم أنِّي قضيتُ حياتي كلَّها في المدينة. وُلِدتُ وكبرتُ فيها، وفي هجرتي منها لم أعرف سوى المدن وحياة المدن. والآن أتمنَّى لو كنتُ ابنة ريف، ريفٍ ما، فيه حقولٌ أو سهولٌ أو جبال. أتمنَّى لو كان في ذكرياتي بيتٌ ريفيّ، حيث أشتاق أن أعود، وحيث تكون لي فيه عائلة، عائلةٌ كبيرةٌ بالجدِّ والجدَّة والأعمام والعمَّات والأخوال والخالات، وحيث غرفٌ متداخلة، أو غرفةٌ كبيرةٌ نُقيم فيها، وننام فيها، ويُولَد فيها الأطفال ويموت العجائز، وتكون ملاصقةً لزريبة الماشية، ليبثّ خوارها فينا طمأنينةً وسلامًا. وتكون المقبرة قريبةً فلا ننسى موتانا، فنترحَّم على ذكراهم حين ترتفع الأيدي إلى الأفواه لتأكل من حصاد المواسم. أو المقبرة القريبة لكي تجد أمَّهاتنا بسهولةٍ من يُرِدن شتمهنَّ من الحموات اللواتي أسأن تربية أبنائهنّ.

أخترع ريفًا لكي أحنَّ إليه.

أتذكَّر رحلةً إلى جبل الأرز، نظَّمتها المدرسة لنتعلَّم شموخ بلدنا وعظمة تاريخه القديم. لم يتبقَّ في رأسي الصغيرة المرفوعة إلى أعلى سوى ذلك الغصن، الشلح الكبير الأخضر الذي يسند السماء الزرقاء. يحملها بوزنها الثقيل، يرفعها ويُبقيها فوق، فتستطيع العين أن تذهب بعيدًا قدر ما تريد من دون خوفٍ من عمق القبَّة الهائلة، تلك التي قد يشقُّها الربُّ إن غضب منَّا، ليُنزِل علينا نارًا وكبريتًا.

أخترع ذكرياتٍ لكي أحنَّ إليها...

أخرج إلى الشرفة ولا أرى شيئًا. نبتة التين، أو تلك التي قرَّرتُ أنَّها كذلك، توقَّفت عن النموّ. لم تيبس أوراقها تمامًا. لا أعرف إن كان عليَّ الاستمرار في سقايتها أم لا. لا أعرف إن كان التين ينمو ويورق من نفسه بحسب توقيت الفصول ودورتها، أم إنَّ على الإنسان أن يتابع رعايته للشجرة. فأنا لستُ ريفيَّةً ولا بالحدِّ الأدنى، وبيني وبين النبات على أنواعه علاقة سوء فهمٍ وتشنُّجٌ عصبيّ...

أخرج لأُرسِل نظري بعيدًا من أجل المدى واللون، فلا أجد سوى السماء. جزءٌ أو مزقةٌ من السماء، وألوان المغيب، أو ما يصلني منها، سريعة الوقوع خلف رؤوس البنايات. ينفخ الليل نفخةً واحدةً فتسقط الشمس وتلاوين الغيوم في العتمة في لحظة. حتى على شرفةٍ في الطابق الخامس لا أرى المغيب. ربَّما لو كانت هذه الشقَّة في الطابق الأرضيِّ لتسلَّيتُ أكثر، بمشاهدة الناس تروح وتجيء في الشارع، مثلًا. لكن من هنا لا أرى سوى تلك الشقَّة التي تقابل شقَّتي، وسطحها البائس بركامه الجديد الذي لم يتغيَّر. شقَّةٌ مهجورةٌ قاعدةٌ في سكونٍ حزين، لم يرمِّمها

أحدٌ ولا زارها ليتفقَّدها أحد، وإلَّا لتحرَّكت ولو قليلًا الدرفتان المعلَّقتان بمفصِّلاتٍ مُخلَّعة.

قبل الانفجار كانت هذه الشقَّة كأنَّها نائمة، مستسلمةٌ لمرضٍ عضال. الآن تبدو لي ميتة. تكاليف ترميمها قضت عليها. وأنا كنت أحلم أن أسمع يومًا من داخلها حركةً ما، رنين هاتفٍ ما، موسيقى أو خشخشةً أو ذبذبة راديو، أو أن أرى امرأةً عقصت شعرها تنفض ملاءات السرير، أو تفردها في الشمس على حافَّة الشبَّاك. امرأةٌ فتيَّةٌ جميلةٌ فرحانةٌ وتغنِّي مع عبد الوهاب، أو حتى مع طروب. الآن أعرف أنَّ هذا لن يحصل.

ما أصبح يستجدُّ عليَّ هو الضجر. عشتُ حياتي كلَّها وحيدة، تقريبًا كلَّها، ولم أشعر بالضجر، لا في عليَّة مطبخنا ولا على شرفة بيتنا، بين لعبة الأزرار والإنصات إلى أصوات العالم الخارجيّ. وما كنت أسمعه في بيتنا القديم، حتى في غياب أمِّي وزوَّارها، كان يشغلني. كأنَّ بيتنا كان يملك رئتَيْن أسمعهما تتنفَّسان. الخرير الخفيف لجريان الماء في القساطل داخل الجدران، مثلًا، أو صرير خشب خزانة غرفة النوم الكبيرة، أو صفير الهواء بين درفات النوافذ، أو وقوع مشبكٍ معدنيٍّ من مشابك ستائر الصالون، أو ركض أظافر الفأرة على بلاط المطبخ... لم أكن أضجر، وكنت إلى ذلك كلِّه منشغلةً بأفكاري الكثيرة. لم أضجر، وكنت أعتقد أنَّ الضجر هو النعاس، وهو يأتي إلى عيون الناس حين يحين وقت النوم.

هنا لا أسمع شيئًا، ولا تزدحم رأسي بالأفكار. الآن صرتُ أضجر أيضًا من ثقل حركتي، ربَّما بسبب تقدُّمي في السنّ، وتأخُّر جسمي في تلبية ما أنوي القيام به، مهما كان. إن فكَّرتُ بإطعام القطَّة زكيَّة توجَّب عليَّ انتظار سريان الدم في عضلات ساقَيّ، وتغيير جلوسي في مكاني عدَّة

مرّاتٍ قبل أن أستطيع الوقوف، ثم المشي إلى حيث طعام القطّة. ليس هو البطء ما يعذّبني، فأنا لستُ مستعجلةً ووقتي طويلٌ عريضٌ فضفاض، لكن ما أسمّيه ضجرًا هو ذلك الفارق ما بين النيّة وإمكانيّة الحركة.

التقدُّم في العمر، وأيضًا تفاقم أعراض مرضي. وأنا أكره الأطبّاء ولا أعتقد أنَّ زيارتهم تفيد في شيء. إنّهم لا يستطيعون مساعدتي. هم يعرفون ذلك، وأنا أيضًا. إلّا أنَّ تضخُّم عظامي الذي لا يتوقّف يسبِّب لي آلامًا ومشاكل مستجدَّةً تُجبرني على الذهاب لاستشارتهم، علَّ وعسى. ففي الزيارة الأخيرة أضافوا إلى الفيتامينات والمقوّيات، التي ما عادت تنفع، عصًا معدنيَّةً أتّكئ عليها في الوقوف بعد نومٍ أو جلوسٍ طويل، أو في المشي حين يشتدُّ الألم في الركبتَيْن أو الظهر. وهي خفيفة الوزن، وتنزلق أقسامها الثلاث في بعضها لتصبح في ربع طولها، ويمكن إذ ذاك دسُّها في كيسٍ صغير.

أحيانًا تكون زيارة الطبيب مفيدةً من ناحيةٍ عمليَّةٍ كمسألة العصا، وأحيانًا أخرى، نادرةً جدًّا، تكون مفيدةً نفسيًّا، فتخفِّف من الضجر والكآبة، كزيارتي إلى طبيبة الأسنان. فقد قالت طبيبة الأسنان الشابَّة بعد فحصٍ سريعٍ إنّها لا تستطيع شيئًا إزاء اهتزاز أسناني على جذورها، لأنَّ تضخُّم عظام الفكِّ يباعد ما بين الأسنان فلا تعود السنُّ ساندةً رفيقتها، وبالتالي تفقد صلابتها ومتانة استقرارها في اللثَّة، وهذا بدوره يزيد من الالتهابات بأنواعها. كانت الطبيبة تبتسم، ولم تُبدِ أيَّ أسفٍ أو تفتعل أيَّة حسرةٍ على فقداني سريعًا لكلِّ أسناني وأضراسي، لا محالة. قالت إنَّ المرض سيؤدِّي حتمًا إلى اللجوء إلى الأسنان الاصطناعيَّة، وليس لذلك علاقةٌ بعمركِ طبعًا. صراحة، ليت كلَّ المصائب الصحِّيَّة كمصيبتكِ هذه، فطالما هي لا تشكِّل خطرًا على الحياة فبالإمكان

التعايش معها. ويا ستّي حتى من دون طقم أسنانٍ تقسو اللثّة مع الوقت وتتعوَّدين على المضغ من دون أسنان. تغيِّرين من نوعيَّة الأطعمة ثم تتعوَّدين. ظلَّت تبتسم حين سألتُها كم بقي من الوقت ليصبح فمي بدون أسنانٍ بالمرَّة، وهل من المحتمل أن أموت قبل ذلك فننتهي من المشكلة قبل وقوعها. سكتت قليلًا، ثم رفعتْ حاجبَيْها وضحكتْ بملء فمها، فضحكتُ معها أنا أيضًا بملء فمي.

في الخارج شكرتُ ربِّي لوقوعي على هذه الطبيبة بالذات، فهي لم تسخر من همِّي من نقصان جمالي إن أنا صرتُ أضع طقمًا اصطناعيًّا. ولأنَّها، هي السوريَّة الهاربة من جحيم بلادها الأحمر، لن تجد في وقوع الأسنان فاجعةً مهولة. فأن يتعايش الواحد مع المرض يعني أنَّه على الأقلِّ يعيش، وأنَّه سيمضغ أطعمةً طيِّبةً على اللثَّة من دون أن يسقط على رأسه برميلٌ متفجِّرٌ من السماء.

وأنا أتمشَّى على عكَّازي المعدنيِّ الجميل عائدةً إلى البيت، شعرتُ بأنِّي امرأةٌ محظوظة. مزاجي رائق، وأنا أتعايش مع مرضي، وليس في المدى المنظور من نيازك حارقة، أو براميل متفجِّرةٍ أو غازاتٍ سامَّة، ستقع من سمائنا الصافية الشديدة الزرقة.

عرَّجتُ على الجزَّار، واشتريتُ كبدةً لي ولزاكو. فالكبدة طريَّةٌ سهلة المضغ لي، وهي الطبق المفضَّل لزكيَّة. عند بائع الخضار تأمَّلتُ الجزر وما يماثله قساوة، ولوَّحت له بالوداع، فأنا أحبُّ قَرْشَه نيئًا لا مسلوقًا. ومن الدكَّان اشتريتُ لبنًا ولبنةً وعدسًا أصفر، وكعكًا هشًّا من ذلك الذي يغمَّس بالشاي عند العصاري. هذا كلُّه يجعل الحياة ـ أو التعايش ـ أمرًا معقولًا جدًّا.

ورحتُ أفكِّر بأنّي غدًا سأذهب إلى سوق البالة لأشتري حذاءً رياضيًّا رجّاليًّا، بدلًا من هذا الذي ما زلتُ أنتعله وقد ضاق وصار يضغط على قدمَيَّ ويعيق حركتي، ما سيشجِّعني على الإكثار من نزهاتي بدل قعودي في كهف البيت. وسيكون للحذاء لاصق السكراتش. انحناءةٌ سريعةٌ وحركةٌ وحيدة. لا سِيرًا أو ربطًا وفَكًّا وتعثُّرًا. حذاءٌ رجّاليٌّ جميلٌ عتيق، ليس توفيرًا بل لأنَّ جلد الحذاء المستعمل يكون ليِّنًا، روَّضه مالكُه الأوَّل الكيلومترات اللازمة للروداج. غدًا سيكون يومًا جميلًا، والطقس سيكون مشرقًا بحسب التلفزيون.

وأنا على رصيف بنايتنا رأيتُ صاحب الكاراج يشير إليَّ بأن أتقدَّم نحوه. رغم ما أبداه من حماسةٍ في دعوتي لم أقترب، فهو منذ فترةٍ لا يُعبِّرني ولا يلتفتُ ناحيتي ولا يردُّ السلام. ثم راح يناديني يا ستّ الكلّ. يا ستّنا. طنَّشتُه، فراح يمشي نحوي بخطواتٍ سريعةٍ وفي يده ورقةٌ كبيرة. تفضَّلي، قال، وهو يفردها في وجهي. تفضَّلي شوفي ستّنا: من هذا؟ لا أعرف، قلت، شهيدٌ من الشهداء؟ شهيدٌ نعم، لكن شهيد من وماذا. ألم تتعرَّفي إلى صاحبنا؟ صاحبنا، صاحبكِ المختفي، الذي يُسمِّي نفسه نبيل. ظهر صاحبكِ الذي كان متخفِّيًا بيننا باسمٍ مستعار، لكي يتجسَّس علينا وعلى المنطقة. ونحن قلوبنا طيِّبة، صدَّقناه وشغَّلناه. انظري جيِّدًا لسبب اختفائه ستّنا. قُتِلَ في معركةٍ خارج حدود بلدنا، وليس مع جيش بلدنا. مرتزقٌ ومرتَهَن. هم العملاء لا نحن. خدعنا ستّنا، وأرجو ألّا تكوني قد أدنتِه مالًا مثلًا. شوفي، الحقيقة تظهر ولو بعد حين. شوفي، أليست هذه صورته؟

تابعتُ سيري ولم أردّ.

هذا الرجل كذّاب، والصورة ليست صورة نبيل.

هراء. خرا بالخلّ.

تفووو.

لا أريد أن أُكلِّم أحدًا، ولا أريد الخروج من البيت.

هل هو قرارٌ حكيم؟ أنا لا أبحث عن الحكمة. ماذا بإمكاني أن أفعل أنا بالحكمة؟ لو فرضنا أنَّ أحدًا ما، قوَّةً ما، منحتني الحكمة، كاملةً مكتملةً وفي علبةٍ مغلَّفةٍ بورق الهدايا، فأصبحت الحكمة ملكيَّتي الشخصيَّة أتصرَّف بها كما أشاء. أضع العلبة على ركبتَيَّ وأفكِّر. ستكون ورطة، ومسؤوليَّةً فظيعةً لمن هو مثلي، لا يمثِّل أحدًا، لا في سلطةٍ ولا في جماعةٍ متعاضدة. وإن كنتُ لا أملك قرار إعطاء حكمتي، منحها لأحد، كقائد جيشٍ أو مطرانٍ أو ما شابه، فستكون البشريَّة فقدت فرصتها الثمينة، وربَّما الوحيدة، في الإفادة من الحكمة قبل الانطفاء الكبير الآتي. وهناك أيضًا معضلة التوريث، إذ ليس لي ورثةٌ أترك وصيَّة حكمتي لهم. فأنا لستُ سمكة سلمون. وأنا كذلك، وللأسف، لستُ سمكة هامور. فقد تبيَّن أنَّ بويضاتٍ من جنس الهامور عاشت ما يفوق ألف عام. نامت عشرة قرون، لا أحد من العلماء الذين اكتشفوا البويضات ودرسوها يعرف كيف. حتى الآن لا أحد يعرف، لكنَّ الدرس الحثيث مستمرّ. واللَّـه واللَّـه. هذا ما أقسم على صحَّته العالم الشابُّ على قناة التلفزة، المقرصنة عندنا، المخصَّصة للعلم في الطبيعة والماورائيَّات.

أنا شخصيًّا، أعني أنا وزاكو، لا نعتقد أنَّ هذا النوع من الدروس مفيدٌ جدًّا، إلَّا إن ثَبُتَتِ العلاقة بين نوم أبناء الهامور الطويل وإمكانيَّة تنويم مبيض إناث البشر لآلاف السنين قبل الانطفاء الكبير... فالبشر، كما أكَّد العالم الشابُّ الحاصل على شهاداتٍ مهولة، كانوا يعرفون أنَّ الأرض سوف تحترق لأنَّها تقترب من الشمس فيما الشمس تتمدَّد. لكنَّهم حين وجدوا أسباب الانطفاء، الفناء الشامل، فهموا وأفهمونا أنَّ الأمر لا ينحصر باحتراق كوكب الأرض وما عليه. فالكون بكامله آخذٌ في التمدُّد والانتشار منذ لحظة ولادته، البيغ بانغ. وحين سيصل إلى أقصى تمدُّده، أو تضخُّمه، سينفجر ليعود إلى نقطة الصفر من جديد، إلى الفراغ المطلق. غبارٌ كونيٌّ يتجمَّع في ذرَّةٍ واحدة.

حكمةٌ غير مفيدةٍ ومعلوماتٌ غير مفيدة، وأنا لا أريد الخروج من البيت. أريد أن أستمرَّ في تسلية نفسي، أن أضحك وتضحك معي زاكو، أو تحاول الضحك. أقول لها زاكو أنا والكون نتمدَّد ونتضخَّم معًا. أكروميغاليا شاملة. أنا ومدينتنا والكون نتضخَّم معًا، لكنَّ حظَّنا كبيرٌ إذ لن نموت احتراقًا. شوفي يا حرام من ماتوا اشتعالًا بالنيترات، وكنَّا فقط على بعد بضعة أمتار، أو بضع مئاتٍ من الأمتار من المرفأ حين انفجر. لكنَّ المحظوظين مثلنا لن يلقوا بالًا إلى اكتشافاتٍ علميَّةٍ لا تفعل سوى إقلاق الناس وتكدير عيشهم. فالناس أصلًا لن يستطيعوا إنقاذ الدبِّ القطبيِّ من الانقراض، ولا غابة الأمازون من التصحُّر، فماذا نفعل نحن، السكَّان الأصليُّون، بتلك الكميَّة من الأصفار التي لا نستطيع تخيُّلها، أزمنةً ومسافات؟ هذا كلُّه ليس لنا. إنَّه قلقٌ غير مفيد، لأنِّي الآن أفكِّر أين سألقي كيس النفايات والبلد يطفو فوق الزبالة. حرفيًّا يطفو...

هذا سؤالٌ ذو فائدةٍ عمليَّة، وليس حكمةً مضرَّةً وفهمها يبقى فوق القدرة وفوق الاحتمال. أُفضِّل زاكو أن أتخيَّل هؤلاء العلماء أنبياء السوء، المبشِّرين بنهاية العالم كالمسيح الدجَّال، أتخيَّلهم يعانون من كتام الأمعاء على مراحيضهم، أو يتعثَّرون على السلَّم و... هههههه.

لو كانت أمِّي هنا لقالت إنَّ العقل البشريَّ الفذَّ والعبقريّ، الذي كان استوحى الأناجيل من نور ربِّ الكون، قد تنبَّأ بكلِّ هذا ورآه مرأى العين. فهذا الفناء العظيم هو يوم القيامة. وفي رؤيا يوحنا إثنان وعشرون إصحاحًا تحكي بالتفصيل ما سيحلُّ بالكون من فظائع، وكيف سينتهي اليوم العظيم بنقطةٍ مشتعلةٍ أو مضيئةٍ في السماء، يبدأ منها كونٌ جديد. هذا سفر الرؤيا، لكن قبل قراءته يجب أن يتأكَّد الواحد من قوَّة قلبه، ومن أنَّه يتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدة.

تعرف أمِّي كلَّ شيءٍ عن كلِّ شيءٍ تقريبًا. وهي تهوى جمع المعلومات والقرائن، كما يجمع الناس طوابع البريد أو أنواع الفراشات المحنَّطة النادرة. وهواةٌ من هذا النوع لا يرجون فوائد ملموسة، من أرباحٍ مادِّيَّةٍ أو شهرة، مثلًا. إنَّهم نوعٌ من البشر الشغوفين بالتجميع لهدفٍ سامٍ هو التجميع، مترفِّعٍ عن الغرض المادِّيّ، كالعاشق السعيد بالعشق من دون المعشوقة. هذا نوعٌ من السعادة لم يمنَّ به ربُّ الكون إلَّا على المصطفين من البشر.

تعرف أمِّي كلَّ شيءٍ عن أيِّ شيء، إلَّا عن أبي.

سيرة أبي أعقد وأصعب من فصول يوم القيامة، ومن الفناء العظيم.

من حيث كنت في عليَّة المطبخ، كنتُ أسمعها تردُّ على أسئلة الغرباء. الغرباء المقرَّبين من رأفتها السريعة التبخُّر. أمَّا أنا فلا تردُّ عليّ.

في المرَّات القليلة التي جازفتُ فيها بسؤالٍ أردتُه ظرفيًّا جدًّا وتفصيليًّا جدًّا، شخصتْ فيَّ بعينَيْن مفنجرتَيْن، ثم ابتعدتْ بنظرها إلى البعيد كأنَّها غادرت عالمنا. وإذا ما عدتُ إلى الموضوع لأعتذر عن سوء تقديري، أو لأشرح نيَّتي الساذجة أو مزاجي الساهي، صاحت أمِّي فيَّ صيحة الملاك، تلك التي أرسلها ملاك الربِّ على أعداء إسرائيل.

مرَّةً تقول أمِّي لسائليها في صالون بيتنا إنَّ أبي خُطِفَ منذ بداية الحرب، وهو بحكم المختفي، وإنَّها انضمَّت إلى اللجان المناضلة التي تطالب بالكشف عن مصير المخطوفين، اللجان المحليَّة وتلك العالميَّة المتخصِّصة بحقوق الإنسان حيًّا أو ميتًا.

ومرَّةً تقول إنَّه، بعد اغتيال بشير الجميِّل، يئس من الحياة وتعلَّم الكونغ فو ليحمي نفسه. وهو اليوم في الصين، وقد غيَّر ديانته وأصبح بوذيًّا. وإنَّ أخبارًا وصلتْها عن انتقاله إلى الهند ليرتقي بعلمه، في الهند أو في سوقطرة، أو في مكانٍ بين كوريا وجبل كايلاش في التيبت. وتورد أمِّي أسماء حفظتْها لأماكن جغرافيَّةٍ لم يسمع بها أحدٌ غيرها، فتُفحِم سائلها إلى غير رجعة.

ومرَّةً قالت إنَّ أبي نصَّاب، وهو نصَّابٌ دوليٌّ يلاحقه الأنتربول، وإنَّها لا تستطيع قول المزيد حفاظًا على حياته. و... نعم هو بخير، ويراسلنا، ويرسل ما تيسَّر من مالٍ عن طريق الوسترن يونيون التي تحافظ على سرِّيَّة زبائنها. و... نعم قد يزورنا تحت جُنح الظلام قريبًا، لكنَّها لا تعرف متى بالضبط.

ويخطر لي أنَّ أمِّي تستمتع بخلق الحكايات، وهي لا تسوقها فقط من أجل التهرُّب من سائلها، إذ يذهب بها الخيال إلى متعةٍ لذاتها،

فتنسى الهدف من الرواية وتسترسل. فهي روت مرَّةً أنَّها اكتشفت بصدفةٍ غريبةٍ عجيبةٍ أنَّ أبي قريبٌ لها، وأنَّ الزواج بينهما باطلٌ إذ يُعتبَر سِفاح قُربى. وأنَّ بابا روما أصدر قرارًا بوجوب بُطلان هذا الزواج، وهي معها ورقةٌ رسميَّةٌ من الفاتيكان تقضي بانفصالهما، فرجاءً التفهُّم وعدم معاودة السؤال.

أمَّا حين تكون زهقانةً فتسارع إلى القول: واللَّـه علمي علمك. ثم تضحك بدلال المرأة التي تعرف أسرارًا ولا تبوح بها، وتغيِّر مجرى الحديث.

في حنكة أمِّي وكذبها نوعٌ من الحكمة لا أدَّعيه. فهي، على أيَّة حال، تُفضِّل الحكايات الأخَّاذة المشوِّقة التي تسلِّي الخيال وتحفِّزه، وتُتقن هذه الحكايات، سواء أكانت عن إنجيل يوحنَّا أو عن حيوات أبي.

أشتاق إلى أمِّي كثيرًا.

أشتاق إلى أمِّي كثيرًا، وأشعر بالذنب لهربي منها. أشعر بالندم، وأتذكَّر ما كانت تردِّده حين أسألها عن الماضي، من أنَّه لا يتبقَّى لنا ممَّا فات سوى أسوأه.

لكنَّ مرارتي بفقد أمِّي لا تستقرُّ فعلًا في رأسي حين أعود إلى لحظة نزولي عن العليَّة في ذلك اليوم الممطر. أقول إنَّ أمِّي التي قرَّرت ألَّا تراني ربَّما فرحت لاختفائي من حياتها. ليس فرحًا، بل لعلَّه شعورٌ بالانعتاق من مصيبةٍ لا حلَّ لها. وربَّما بعد تخفُّفها منِّي ومن مصيبتي، طوت صفحتي الحزينة إلى غير رجعةٍ ونسيتني، وهي تحسن قلب صفحات الحياة التي لا تعجبها. أعتقد أنَّ هربي كان صفقةً لصالحنا نحن الاثنتَيْن.

لكن، بعد ذلك، بعد ذلك بوقتٍ طويل، بعد غيابي عنها لسنوات، قد تكون تغيَّرتْ وندمت. وحين ندمتْ لم يَعُد بمقدورها أن تجدني، وأن تعتذر منِّي.

يؤرِّقني ذلك الندم.

يوضاس نفسه، يهوذا في الكتب، شنق نفسه ندمًا.

لا تستوي الحكاية في رأسي. تعود كلازمة الأغنية ومن دون متعةٍ باستعادتها، إلَّا ربَّما لكونها الفعل النموذجيَّ لعار الخيانة. والحقيقة، إن كان هناك من يعرف تلك الحقيقة، أنَّه كان تواطؤًا واضحًا بين الرجل وبين يسوع. أخمِّن أنَّهما اتَّفقا على المشهد الشهير في بستان الزيتون، وأجريا تمارين مُتقنةً في ما يشبه الإخراج الفنِّيّ. لو لم يُقبِّل يهوذا يسوع الناصريَّ ليعرفه العسس لما كان هناك حكايةٌ أصلًا، ولما أصبح الناصريُّ المسيح. الخيانة ضرورة، خيارٌ إلهيّ، فعلى ماذا ندم يهوذا وابتُلِيَتْ أمُّه بالعار بين الأمَّهات، ولحقتْ اللعنات حتى بأشجار التين؟ ولست الوحيدة، لست الأولى ولن أكون الأخيرة. لا بدَّ أنَّ كثيرين غيري تحيَّروا إزاء هذه الحكاية، ومنهم من شكَّك، ومنهم من أشفق على الرجل وتضامن مع من أراد ردَّ الاعتبار إليه في دوره السامي، الذي حوَّرته الكنيسة من التضحية الكبرى إلى خيانةٍ مقيتة، إلى أمِّ الخيانات. لو سألتُ أمِّي لتحزَّبت للدفاع عن يهوذا الإسخريوطيّ، على ما أعتقد، أو لحرفت الموضوع إلى لوم آباء الكنيسة وفساد البابوات.

يؤرِّقني ندم أمِّي، لأنِّي لا أعرف إن كان ساورها أم لا. فقد فات الأوان، ولا جدوى من قلقٍ كهذا.

أشتاق إلى أمِّي وأصحو باكيةً من حلمي الذي صار يتكرَّر كثيرًا، حيث كانت بجانبي في السيَّارة الفخمة على طريقٍ تشبه طريق المطار، أو المطارات. هي في اكتمال جمالها، وأنا إلى يسارها، أجمل فتاةٍ في العالم، بجسمي المعافى، الذي يشبه في بياض جلده ولين حركته عجين البريوش... لكنِّي، حين أقترب من الطائرات المرشوشة بحُبيبات السُّكَّر على المدرج المضاء بقوَّةٍ لا أعود أراها.

أصحو باكيةً وأعيد صياغة حكايتي لنفسي. أقول إنِّي أشتاق إلى أمِّي وأندم لأنِّي تركتُها تشيخ وتموت وحدها، وهي لا بدَّ بحثتْ عنِّي بحرقة، وطلبتْ أن تراني وهي على فراش الموت. لا بدَّ أنَّها تذكَّرتني رغم خرفها، في صحوة الموت الأخيرة، وسألتْ من كانوا حولها أين ابنتي هنادي؟

أو أين ابنتي هند؟

ماتت أمِّي وحيدةً كما عاشت وحيدة، مثلي. ولعلِّي أشبهها أكثر ممَّا أشبه أختي هند. وصرتُ، من تردُّدها عليّ في أحلامي، أراها في هذه الشقَّة حيث أقامت آخر سنوات عمرها. أراها بلمحاتٍ سريعةٍ خاطفةٍ في المطبخ، مُديرةً ظهرها تجلي الأواني، أو ترتِّب أشياءها في الخزانة، أو إلى جانبي جالسةً تقصُّ أوراقًا وصفحاتٍ من الجرائد والمجلَّات القديمة. أو أراها خارجةً من الحمَّام في روبها الزهريِّ السميك، وشعرها الطويل ملفوفٌ بمنشفةٍ مُقلَّمةٍ بالزهريِّ والأبيض، تلك التي كانت تخصِّصها لشعرها فقط كي تبقى نظيفةً دائمًا.

ثم صرتُ أسمع حركتها في البيت. أسمع وقع خطى خفيفًا، في الليل كما في النهار. أو صوت مزلاج النافذة يسقط في قفله، كأنَّ هناك من يحرِّكه ليفتح الدرفات. أو نقرات الماء تنقط في المغسلة ثم تتوقَّف، كأنَّ يدًا شدَّت سكرة الحنفيَّة. لا أخاف أبدًا ممَّا أراه أو أسمعه، ولا أردُّ ذلك إلى تهيُّؤاتٍ أو أوهامٍ كما قد يفعل غيري لدرء الخوف والتوجُّس من وجود أرواحٍ بيننا، لأنِّي أنا لا أعرف ذلك الحدَّ الفاصل، ولا أحبُّ التفريق بين الأوهام والحقائق، على ما يفعل الناس، لأنَّ الحياة تصبح إذ ذاك غير محتملة. كلُّ الحدود الفاصلة القاطعة، حتى بين الحاضر

والماضي، الحسّيّ والخياليّ، السماء والأرض، ما فوقهما وما تحتهما، هي الوهم. فأنا نفسي عشت وأعيش حياتي كاملةً على تلك الحدود المرتجَّة، التي قد تلتبس على الآخرين لكن ليس عليَّ أنا، أقلّه في سيرتي بين أختي هند وبيني...

ومن دون أن أدَّعي أنَّ الحياة كلَّها أوهام، لا تقلقني حركة أمِّي في البيت، في بيتها. بل أجدني أستأنس بزياراتها الخاطفة تلك، وأخاف أن تتوقَّف. وفي تأمُّلاتي الطويلة يخطر لي أن أنصت بمزيدٍ من التركيز، وأن أفتح عينَيَّ جيِّدًا، فأنا لا أستبعد أن تحاول أمِّي من حيث هي الآن أن تبعث إليَّ برسائل، أقلَّه ببضع كلمات. لكن، وبما أنِّي لست متأكِّدةً أبدًا من أنَّ هناك حياةً أخرى بعد الموت، بدأتُ أفكِّر بأنَّ أمِّي ربَّما تكون ما زالت على قيد الحياة. لم تمت. أمُّ منصور قالت إنَّ أناسًا أخذوها في سيَّارة بيك أب، أو سيَّارةٍ تشبه سيَّارات الإسعاف. أخذوها إلى المستشفى. بعدها لم ترَ أمُّ منصور أمِّي. لم ترَها ميتة. لم تَرَ جثَّتها. وأنا لا أعرف أحدًا رأى أمِّي ميتة، ولا أعرف أين ماتت.

ثم قرَّرتُ أن أذهب إلى خوري الرعيَّة، الذي أرسل إلى فرنسا يُعلمني بموتها عبر الجمعيَّة الخيريَّة، أو الأخويَّة الكنسيَّة، أو شيئًا من هذا القبيل.

صرتُ حين أنزل من البيت أتعمَّد أن أقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، حتى لا أرى الرجل صاحب الكاراج الذي في أسفل عمارتنا، لا في رواحي ولا في مجيئي. بسهولةٍ وجدتُ الكنيسة، لكنَّها كانت مقفلة، ولم أكن أعرف أنَّ الخوارنة يقفلون بيت اللَّـه. وقفتُ حائرةً أمام الباب الكبير، لكنَّ امرأةً عجوزًا، كانت هناك بين أكياسٍ كبيرةٍ كثيرة، رأتني فاقتربتْ وأشارتْ إلى مبنى صغيرٍ ملاصق، وقالت إنَّ الخوري في بيت الرعيَّة، هناك.

أنتظرُ الخوري في غرفةٍ ضيِّقةٍ تشبه المكتب. أنتظر طويلًا، ثم تدخل امرأةٌ مرتَّبة، بتسريحةٍ على الموضة القديمة، تستمهلني وأنا على الباب أهمُّ بالخروج. تقول بلطفٍ إنَّ الأبونا مشغولٌ جدًّا هذه الأيَّام، وأنا لم آخذ موعدًا لمقابلته، وهي مستعدَّةٌ للاستماع إليّ. ولكن إن أنا أصرَّيتُ فالأبونا سيراني لو أنتظره قليلًا، فهو لا يردُّ أحدًا قرع بابه. ثم تكرِّر السيِّدة سؤالها إن كان بإمكانها مساعدتي، فأقول لها باختصارٍ إنِّي لا أطلب أيَّ نوعٍ من أنواع المساعدة، لا مالًا ولا ثيابًا ولا أدويةً أو موادَّ تموينيَّة. ثم يدخل الخوري.

خير يا ابني! يا بنتي!

أحاول جهدي أن أختصر، فهو يهزّ رأسه مستحثًّا إيّاي على الإسراع، وأرى في عينَيْه أنّه لا يفهم كلمةً ممّا أقول. أعود فأبدأ من الرسالة التي تُعزّيني بموت أمّي، والتي أرسلها هو لي إلى فرنسا، فيدعوني للّحاق به. يجلس وراء مكتبه ويشير إلى الكرسي قبالته، لكنّي أبقى واقفة. يطلب منّي أن أُريه الرسالة. لقد أضعتها، أقول، من زمان. يستاء الخوري، ويشرح لي أنّ تلك الرسائل يكتبها ويرسلها سكرتير الرعيّة، وأنّ عليه أن يبحث في السجلّات عن أثرٍ لتلك الرسالة، إن كان لها من أثر. ثم سألني عن شهادة الوفاة، وإن كان هناك مشكلة ميراث. قلتُ إنّي لا أملك أيّة ورقة، وإنّي وحيدة أمّي، وإنّي في البنك استعنتُ بشاهدَيْن على موتها لأرث المبلغ الصغير الذي تركتْه لي. ومنعًا لكثرة الأسئلة، قلتُ أبونا أريد فقط زيارة قبر أمّي.

كرّر الخوري دعوتي للجلوس، فجلستُ على مضض. أعدتُ عليه تفاصيل العمليّة الجراحيّة في الورك، وفقدان أمّي لذاكرتها في المستشفى، ثم عودتها السريعة إلى بيتها الذي لم تمكث فيه طويلًا، تمّ بعدها نقلها إلى دارٍ تُعنى بمرضى ألزهايمر. وأكّدتُ له أنّ هذا كلّ ما لديَّ من معلومات. صفن قليلًا، ثم قال إنّ الأبرشيّة على علاقةٍ بأكثر من جمعيّةٍ خيريّةٍ في فرنسا، وأنّه يُرجّح أن تكون أمّي نُقِلَتْ إلى دار رعاية المسنّين، وأنّها ماتت هناك. وشرح لي ظروف الصلاة على الميتين، فهو غير متأكّدٍ ممّن صلّى على جثمانها، إذ في بعض الظروف يصلّى على جثامين كثيرةٍ في الوقت نفسه... وتكون مراسم صلاة الميت في دار الرعاية إيّاه حيث استدعاه، استدعاهم، يسوع إلى جانبه في السماء، لا في الكنيسة. وقد تكون المقبرة مُلحقةً بـ...

يصيبني ضجرٌ فظيعٌ فأقاطعه: أبونا، قد يكون من السهل وجود اسم أمِّي في سجلَّات موتى الرعيَّة، لا؟ أين دُفِنَتْ أمِّي؟ أعني أين تدفنون موتى مركز الرعاية هذا؟ أو مراكز الرعاية التي لها علاقةٌ بفرنسا، أعني بجمعيَّات ذلك البلد، إجمالًا؟

أخرج من بيت الرعيَّة وأنا أتصبَّب عرقًا. أشتري قنينة مياهٍ صغيرةً وأجلس على دكَّة باطونٍ يربطون إليها السيَّارات بالجنازير الغليظة منعًا لسرقتها.

كانت مقابلةً مرهقة. كنت بغنى عن تفاصيل حكاية الخوري التي لا رأس لها ولا ذنَب. وهو ليس مضطرًّا للقيام بالتحقيق الذي راح يعدني بالقيام به للتخلُّص من أسئلتي. فمقابر الجمعيَّة الوطنيَّة ـ العالميَّة، وهي مقابر جماعيَّةٌ للأموات الذين لا يطالب بجثثهم أحد، نقلوها من أماكنها من زمان، بعد أن تبيَّن أنَّ الأرض ملكيَّةٌ خاصَّة، وكانوا اعتقدوا أنَّها أرضٌ مشاع إلخ إلخ...

رحتُ أتفرَّج على الناس تشتري الأغراض من الدكاكين. هذا الشارع لا أعرفه.

فات الظهر وقبالتي فرنٌ يبيع الفطائر والمناقيش. لستُ جائعة. أُقنع نفسي بشراء ما آخذه معي إلى البيت، حتى لا أضطرَّ للنزول ثانيةً حين يدهمني الجوع. أسهو، ثم أنتبه إلى أنَّ فترينة الفرن فرغت من محتوياتها، وأنِّي أطلتُ القعود في الشمس بلا غطاءٍ على رأسي.

لستُ غاضبة. لستُ غاضبةً لأنِّي لم أجد من أُحمِّله غضبي. الكلُّ براءٌ من كلِّ ما يخطر لي من اتِّهاماتٍ أو ملامة.

لا أدري كيف أعالج ندمي، أو خيبتي من نفسي، أو كآبتي، أو شوقي لأمِّي، أو مرارتي من فوات الأوان. فكلُّ هذا صار مختلطًا، ولا يخفِّف من هذا المزيج الذي يتفقَّع في رأسي خيالات أمِّي في البيت تتردَّد عليَّ وتواسيني، ولا تأكُّدي من أنَّها ماتت فاقدةً عقلها، وفي ذكرياتها عنِّي وعن حياتها فراغٌ كبيرٌ يشفطنا جميعًا. فراغٌ كذلك الذي تُحدثه فجوةٌ في طائرةٍ وهي في الجوِّ في أفلام الكوارث. ولأنِّي لا أعرف بالضبط ساعة موتها، لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في احتمال أنِّي كنتُ في تلك اللحظة بالذات في فراش رجلٍ كنت أعتقد أنِّي أعرفه، أو كنت أعتقد أنِّي مغرمةٌ به وهو يجرُّني بذراع الغرام الوحيدة ككلبةٍ سعيدة... شعورٌ يشبه الندم، لكنَّه ليس ندمًا مثل ذلك الذي يقولون إنَّه حمل يهوذا إلى غصن التينة.

أقول بخيبةٍ كبيرةٍ إنِّي غير قادرةٍ على اختراع نهايةٍ مُقنعةٍ لفيلم حياة أمِّي، ولا لفيلم موتها.

حتى أنِّي لا أجد من الأغاني العاطفيَّة، ولا من أناشيد الرثاء الحزينة، الدندنةَ المناسبة لعزائي. دندنةٌ حديثةٌ أو من التراث، ترافقني في طريق عودتي بخطواتي المُخلَّعة إلى البيت.

فيما كنت ما أزال أخوِّض في الحقول المغناطيسيَّة لموت أمِّي، حائرةً ضائعةً ومكتئبة، صرت، بين وقتٍ وآخر، أقع فريسة حكاية موتٍ أخرى تحضرني غصبًا عنِّي، فتصيبني شراراتها بشكلٍ مفاجئ. كأنَّ الموتى يحضرون معًا حفلات الذكريات. يتعازمون بمعزلٍ عن إرادة صاحب الدار، ويشدُّ واحدهم بثوب الآخر ويجرُّه إلى الحفلة بالأمليَّة، ويقنعه بأن لا حاجة لدعوة...

لستُ متأكِّدةً أبدًا من موت فرانسوا ـ رشيد، ولا رغبة لديَّ مطلقًا في استحضاره في رأسي. أخمِّن أنَّه ربَّما مات فعلًا بعد تركي إيَّاه، وقد جرى وقتٌ كثير، وإلَّا فما الذي تريده منِّي روحُه التي تدخل عليَّ من دون استئذان؟ وما الذي يعنيه حضورُه هنا، في بلدٍ لم يعرفها، أو في بيت أمِّي الذي لم يطأه حتى بالخيال؟

حين أراه يحلق ذقنه أمام مرآة الحمَّام وهو يضع منشفةً من مناشف أمِّي على كتفه، أسأله ماذا تريد رشيد؟ ثم أراه خلف النافذة على البلكون ينظر إلى السماء ويتفرَّج على أسطح البنايات، فأُعبِّر صراحةً عن تبرُّمي، وأروح أتأفَّف بصوتٍ مسموعٍ وبشكلٍ مبالَغٍ فيه.

ما الذي يجمع في خيالاتي بين أمِّي ورشيد؟ سؤالٌ يشغلني، وأنا في الحقيقة لا أنزعج كثيرًا من حضور أيٍّ منهما. أعتقد أنَّه الشعور بالذنب، أنِّي أنا من ترك وغادر بلا شفقة. أنا من مشى، أو هرب، ولم يلتفت إلى الوراء. المزيج نفسه من الندم والأسى والكآبة والنقصان، مع الإحساس بالنفاذ والتخفُّف من مصيبة التعلُّق.

من مصيبة الحبّ.

لو فكَّرتُ قليلًا، بما تبقَّى لي من عقل، لاعترفتُ أقلَّه لنفسي بأنِّي أشتاق إلى أمِّي وأشتاق إلى رشيد. وهذا ليس صعبًا على الخيال، إذ هما أحبَّاني فعلًا، أو أنَّهما نجحا في إقناعي بأنَّ ذلك الحبَّ كان ممكنًا ولو في عبوره السريع. إذ يخطئ بأيِّ حالٍ وفي كلِّ الأحوال من يعتقد أنَّ الحبَّ يقيم أبديًّا ولمدَّة غير محدودة. من يعتقد ذلك يكون ضحيَّة نفسه، ولا يلوم غير نفسه.

ماذا تفعل في سريري رشيد؟

أحببتُه كثيرًا، رشيد. أحببتُ حبَّه لي، وعنايته بالمخلوقة التي يخاف منها الرجال والناس عامَّة. وأنا كنت في أتعس حالاتي وفي أبشع منظرٍ حين رآني للمرَّة الأولى أمام مطعم المكدونالدز. جرَّني وأخذني إلى كشك الجرائد، وظلَّ محتفظًا بحصَّتي من الساندويشات وهو يلمُّ رباطات رأسي من الأرض... وهناك تركني أتدفَّأ بساقَيْه.

أشتاق إلى رشيد كثيرًا، إذ هو يحضرني الآن كما عرفتُه في البداية. وأعرف أنَّها لم تكن شفقة، لأنَّه كان يغار عليَّ من الرجال غيرة العشَّاق. ولأنِّي شكَّاكةٌ وسيِّئة النيَّة كنت أضحك ساخرة. من سينظر إليَّ وأنا هكذا، رشيد؟ أنتِ لا تعرفين الرجال، كان يجيب مقطِّبًا، لا أبًا ولا أخًا ولا عشيقًا، فكيف لكِ أن تعرفي؟

أعتقد أنَّه مات لأنَّه يعود كما يعود الموتى. حين نتذكَّرهم يحضرون قبل موتهم بكثير، أيَّام لم يكونوا شيوخًا ولا مرضى.

ماذا تفعل في سريري رشيد؟

في الفراش كنت أحرص على أن نكون في العتمة الحالكة، ليس فقط كي لا يراني، بل لأنِّي كنت أنا نفسي لا أريد أن أرى عُريي المعيب والشقيّ. أتمسَّك بالغطاء بيدَيَّ وأسناني وهو يبعده بعصبيَّة، حتى صار يقول لا تطفئي النور كلَّما أحاطني بذراعه كدعوةٍ صريحةٍ إلى الفراش. وأنا إنَّما كنت أريد العتمة أيضًا لأُسهِّل عليه استيهاماته، أن يتخيَّل مكاني امرأةً غيري تكون جميلةً شهيَّة، من صور المجلَّات العارية أو أفلام الغواية والإغراء مثلًا. لكنَّه كان يريد رؤيتي في الضوء، رؤيتي أنا. يريد رؤية تقعُّر قفصي الصدريِّ تحت ثديَيْن منفوخَيْن كبيرَيْن لا يشبهان شيئًا، سميكَيْن كمطَّاط الدواليب الداخليَّة. ويريد رؤية ردفَيَّ المبعوجَيْن حول عانتي النافرة العظام، واعوجاج ساقَيَّ المنتهيتَيْن بقدمَيْن مفلطحتَيْن كبيرتَيْن. بقيتُ فترةً أقول في نفسي إنَّه يريد رؤيتي عاريةً قبيحةً لتؤكِّد له بشاعتي بأنِّي لن أتركه يومًا، وبأنَّه سيحتفظ قدر ما يريد بهذا الجسد الذي لا يمكن أن يشتهيه أحدٌ ليسلبه إيَّاه. هذا جسدٌ مثاليٌّ للحبِّ الذي يسمُّونه إلى الأبد... فحين سألتُه يومًا إن كان له هوى بالبشعات، أجاب بأنَّ الجمال ليس كلَّ شيء، فتذكَّرتُ كلام أمِّي الكاذب. ياه؟! قلتُ ساخرة، فتنحنح وقال إنَّه مرَّة، في حياةٍ سابقة، أحبَّ امرأةً جميلةً وأحبَّته هي أيضًا حبًّا قويًّا، لكنَّها تركتْه عند صياح الديك. أوَّل صيْحةٍ لأوَّل ديك، قال. لم أسأله كيف ولماذا صاح ذلك الديك اللعين، إذ كان واضحًا لي أنَّه لن يردّ.

في الفراش، وفي حديث التسالي، كنتُ أروي لرشيد رواية أمِّي عن جمالي، في حياتي السابقة، وكيف أنَّ جمالي، مقترنًا بخفَّة نجمي، كان غالبًا ما يعرِّضني لصيبة العين الحاسدة، فأمرض كلَّما خرجتُ من البيت، تقريبًا. أؤكِّد له أنَّ ذلك حقيقيٌّ ولو بدا غير معقول، وأعلِّل كرهي للَّبن الرائب وشوربة الخضار بأنَّ أمِّي كانت تُجبرني على أكل اللبن والشوربة كلَّما مرضت. لا يبدو مهتمًّا، فأزيد شهادة عمَّتي الصغرى التي تؤكِّد تفاصيل عن... لا يُبدِي أيَّ اهتمام.

في حياته الأولى السريعة في بلاده، كما في حياته الطويلة في فرنسا، لم يمتلك رشيد شيئًا أو أحدًا غيري. أنا ورامبو. هو لا يحبُّ الكلام عن أيٍّ من حياتَيْه هاتَيْن. لا عن تلك المرأة الجميلة، ولا عن فقده ذراعه. لا عن أهلٍ تركهم هناك، ولا عن مهنته. لذا حين قال يومًا إنَّه عسكريُّ النشأة والمبادئ، تخيَّلتُ أنَّه يموِّه انخراطه في ميليشيا مسلَّحة ارتكبت الفظائع، أو ما شابه، وأنَّه خان من كان بصحبتهم فهرب منهم، أو شيئًا من هذا القبيل. ولم أسعَ يومًا لمعرفة محتوى البطاقتَيْن الصغيرتَيْن اللتَيْن كان يحرص على إخفائهما عنِّي. كان ما أعرفه عنه ومنه يكفيني ويزيد.

في الأوقات الحميمة الرائقة كان يصف صورًا بكلماتٍ سريعة. صورٌ كأنَّها ليست له، ليست لصيقةً بحياته أو ذكرياته، عن أرضٍ برِّيَّةٍ واسعةٍ في سفح جبلٍ جميلٍ أخضر يصل إلى السماء، أو تصل أشجاره إلى السماء. وإنَّ البساتين التي تُقام على مدرَّجاتٍ للزرع وتحسب حسابًا للشمس والمطر تعطي أطيب الفاكهة والخضار، أو أجمل القمح، قمح سنابل تذرِّيها في الهواء شلَّالًا من ذهبٍ امرأةٌ على سطحٍ ترابيّ. امرأةٌ على سطحٍ ترابيٍّ تُغنِّي أجمل رندوحاتٍ للأطفال العائدين من

الحقالي، على خصورهم نقّافات، وحلقةٌ معدنيّةٌ تشبك رؤوس عشرات العصافير التي سوف تقليها المرأة بالسمن الذي صنعته بنفسها، وهي أطيب أكلةٍ في العالم.

هذا كلُّ شيء.

وتلك اللحظات القليلة لم تكن استعادتها ممكنةً لمّا بدأ رشيد ينزلق إلى مدخل البناية، كمن ينزلق في بئرٍ بلا قاع. كان من الطبيعيِّ أن أكذب على نفسي، وأقول إنَّها فترةٌ صعبةٌ وستمرُّ سريعًا. ولم تمرّ. نفد صبري ولم ينفع الكلام.

رحتُ أصيح في وجهه، وأنا واقفةٌ بينه وبين الباب أحاول منعه من النزول، بأنَّه عجوزٌ ولا يخجل من معاشرة أولادٍ بلا أخلاقٍ لكي يعطوه حبوب السمِّ الهاري، وأنَّه بلا كرامةٍ لأنَّه يبيع معهم ويتاجر بالمخدَّرات... ضربني على فمي كي يقطع كلامي عن الكرامة، ولم يعتذر كما كان يفعل إذا أساء معاملتي. واستمرَّ في الانزلاق على جدران البئر، إلى مدخل البناية.

كان رشيد رجلًا حرًّا ومتفلِّتًا من جميع أنواع القيود، وأنا ربطتُه إليَّ بسلاسل معدنيَّة، وحبستُه في غرفةٍ بشعةٍ وضيِّقة. تورَّط رشيد بي، ثم تورَّط أكثر في هربه من تعذيبي له. وانقفلتِ الدائرة. اكتمل العقد.

لا أعتقد أنَّه رآني أخرج وقد جمعتُ حوائجي القليلة. ولا أعتقد أنَّه انتبه حتى بعد مرور أيَّامٍ بأنِّي لم أعُد هناك. ولا أعتقد أنَّه وجد في الأرض السنَّ الأماميَّة التي فرَّت من فمي حين ضربني آخر مرَّة.

لماذا تتمدَّد على سريري رشيد؟

هل صدَّقتَ أغنيتي التعيسة عن أبناء هاجر الجارية، وعن الفيضانات الدوريَّة التي تُحِيل بساتيننا وحولًا نكشطها بسرعةٍ بعد انحسار التسونامي، وقبل عودة السوَّاح إلى جنائننا؟ عن أنَّنا شعوبٌ بكاملها لا وجهة استعمالٍ لها سوى أن تكون سمادًا لشعوبٍ أخرى، اختار الربُّ أن يحبَّها وأن يسعد لسعادتها؟ سمادٌ كي تخضرَّ تربتها وتورق وتزهر وتبرعم وتطرح الثمار. هل صدَّقت؟

تعالَ نهرب من هذه البناية رشيد. تعالَ نعود إلى الشوارع.

طفلٌ يبكي في الليل بشكلٍ متقطِّع. أكون بين اليقظة والنوم، لكنِّي أسمع البكاء جيِّدًا.

أتساءل عن سبب بكائه. كأنَّه طفلٌ مريض. ليس صوت البكاء المتقطِّع لطفلٍ حديث الولادة. قد يكون عمره سنةً أو أقلَّ قليلًا. وما يصلني ليس بكاءً من وجعٍ أو جوع، فهو خفيضٌ ومتقطِّعٌ وليس صراخًا. بكاءٌ ينتهي بحشرجة، وفيه بحَّةٌ من تعب الحنجرة. أعرف الفرق من أيَّام كنت في عليَّة بيتنا، من بكاء أو صراخ أطفال الجيران وتعليقات أمِّي التي كانت تشتم الأمَّهات، المهتمَّات بفروجهنَّ أكثر من اهتمامهنَّ بالمواليد، كانت تقول.

لكن من أين يأتي بكاء الطفل الذي يبدو قريبًا من شقَّتي، قريبًا جدًّا؟ الشقَّة الملاصقة حوَّلوها مخزنًا لا أحد ينام فيه، فلا عوائل أو أطفال. ثم لماذا لا أسمع ذلك البكاء في النهار؟ لماذا في الليل فقط؟ بكاءٌ ضعيفٌ كسراجٍ ينوص ضوؤه ويكاد ينطفئ. لماذا ما زال هذا الطفل مريضًا لم يعالجه أهله؟

ولأنِّي قليلًا ما أغفو في الليل، وأُفضِّل نوم النهار على الكنبة، صرتُ أُنصِتُ أكثر فأكثر إلى ذلك البكاء السقيم الضعيف، وظلَّ

يحيِّرني، حتى كاد يصبح هاجسًا. وانتبهتُ إلى أنَّه يتردَّد كما هو، باستمرار، كأنَّه خارجٌ من مسجِّلٍ آليّ. كأنَّ هناك من يكبس زرًّا ليُشغِّل آلة التسجيل، فيخرج ذلك البكاء هو نفسه. هذا مستحيل. هذا غير ممكن.

حتى صار ذلك البكاء منِّي، من حيث أكون جالسةً في شقَّتي. كأنِّي صرتُ أحلم من دون نوم. صار الصوت الخفيض يدفعني للبحث عنه حولي. في سرير غرفة النوم، بين الأرائك وعلى الكنبة، في زوايا المطبخ وعلى البلكون. ثم صرتُ أبكي مع ذلك البكاء، مثل ذلك البكاء. أبكي بكاءً عليلًا وخفيضًا ومتقطِّعًا.

فتحتُ الخزانة وأخرجتُ صورة هند.

حملتُها إلى الصالة ووضعتُها على الطاولة الصغيرة قبالتي. قلتُ إنِّي لن أعيدها إلى كرتونة أمِّي على رفِّ الخزانة.

في الليالي التي تلت لم أسمع البكاء.

كان صعبًا أن أُقِرَّ بأنَّ أختي كانت تناديني. صعبٌ جدًّا أن أعترف لنفسي بأنِّي، بعد خيالات أمِّي وخيالات رشيد، أفتح ليلي لأختي التي لم أعرفها. صوتها البعيد يلتحق بصور الموتى الذين يحضرون إليّ. صورٌ تحكم نهاراتي، وصوتٌ يناديني في الليالي.

كأنِّي أنا لا وقت لي، لا وقت خاصًّا بي. يُلِحُّون عليَّ كالهاجس القهريّ، كأنَّها مشكلةٌ وهي ليست كذلك. ليس في تردُّدهم عليَّ ما يشبه الهاجس القهريّ. لا يقلقني وجودهم كي أسعى إلى التخلُّص منه. إنَّهم يملأون وقتًا شاغرًا، مكانًا لا يشغله أحد. لا يأخذون منِّي شيئًا أضنُّ به أو أفيد منه. بل يمكنني، ككلِّ الوحيدين، أن أستأنس برفقتهم.

كانت هند تنقصني لزمنٍ طويل، وها هي تعود إليَّ كأنْ من سفرٍ بعيد. أتعرَّف إليها مجدَّدًا، بعد أن كانت بنت أمِّي الممنوعة. كان مكانُها فارغًا، وكان عليَّ أن أملأ الفراغ ولم أنجح. فشلي هو ما أعاد أختي إليّ. وها هي تعود كأن لتمنحني فرصةً ثانية.

حين توقَّفتْ هند عن البكاء في الليل شعرتُ بالامتنان. تمنَّيتُ لو أخبر أمِّي بعودة هند، ورحتُ أفكِّر جدِّيًا بذلك. هل أحاول أن أزفَّ إليها الخبر السعيد حين ألمحها، وأرى منها إشارةً أو حركةً عن تقبُّلها أو رفضها؟ هل تريد سماعي؟ هل ستفرح بعودة هند من الموت وقد أصبحت هي فيه؟ هل ستقول إنَّ الأوان قد فات، وتكرِّر أنَّنا لا نحتفظ من الماضي إلَّا بأسوأ ما كان فيه؟ هل ستتَّهمني أمِّي بسرقة ابنتها الوحيدة، وخطف حزنها من قلبها؟ ذلك الحزن الذي قعدت عليه طيلة حياتها، كما تربخ الدجاجة على بيضها.

حين أرى أمِّي سأقول لها إنَّ هند هي ابنتي.

بدأتُ أفكِّر بالعودة إلى البلاد حين راحت تعاودني أفكار البحث عن عمَّاتي.

فأنا لم أبذل الجهد الكافي في البحث عن عمَّتي الكبرى، مع علمي اليقين بأنَّها تقيم في فرنسا، في مكانٍ ما. لم أستنفد كلَّ الطرق في البحث عنها. طابت لي الإقامة مع غلوريا وطنَّشت، أو إنِّي افترضتُ أنَّ عمَّتي لا تريدني، لمجرَّد أنِّي لم أجدها بانتظاري على باب المطار، أو إنَّها هربت منِّي حين رأتني، وقالت في نفسها إنَّه ليس لها قدرةٌ على التكفُّل بمريضةٍ معوَّقةٍ مثلي. وهي، فوق ذلك، كانت تكره أمِّي، ولا بدَّ أنَّها اعتبرت أنِّي أصبحتُ هكذا بسببها.

لكنِّي، رغم أفكاري هذه، حاولت. ابتداءً من رقم الهاتف الذي ما عاد يرنّ، فقلنا أنا وغلوريا إنَّ عمَّتي غيَّرت رقم هاتفها حتى لا أجدها. ذلك أنَّ المسجِّل الآليَّ صار يفتح بسرعةٍ من غير رنين، ويُكرِّر أنَّ الرقم المطلوب لم يَعُد في الخدمة. ثم صار يقول إنَّ الرقم غير موجودٍ بالمرَّة.

كان عليَّ أن أتَّكل على معلومات غلوريا، وهِمَّتها الأكيدة في مساعدتي. وهي كانت تقول إنَّ بإمكاننا معرفة الشركة المشغِّلة للتلفون من بداية الأرقام، فالرقم الذي يبدأ بكذا يكون لشركة كذا، والرقم الذي

يبدأ بأرقامٍ مختلفةٍ يكون لشركة توزيعٍ مختلفة. ربَّما كان بالإمكان العودة إلى الشركة المعنيَّة برقم عمَّتي لسؤالها عن اسم المشترك وعنوانه، لكنَّ غلوريا قالت إنَّ ذلك صعبٌ جدًّا، إن لم يكن مستحيلًا. هنا، قالت غلوريا، يعتبرون الحياة الشخصيَّة بكافَّة تفاصيلها أمرًا مقدَّسًا. بل إنَّه من حقِّ الواحد أن يختفي تمامًا عن أهله بعد بلوغه الثامنة عشرة، فلا يحقُّ لهم البحث عنه.

كان ممكنًا كذلك البحث عن عمَّتي الصغرى الحنون في أستراليا عبر سفارتنا في فرنسا، إذ لا بدَّ أنَّ سفارات البلد الواحد تتواصل في ما بينها. لكنِّي أقلعتُ عن الفكرة سريعًا، لأنَّ الأخبار التي كانت تصل من البلد كانت سيِّئةً جدًّا، ولا تعطي كبير أملٍ في أن تهتمَّ السفارة بحكايتي. والحقيقة أنِّي، ولمجرَّد تفكيري بالانتظار فجرًا أمام البوَّابة الكبيرة، أصابني اليأس.

استعضتُ عن فكرة زيارة السفارة بنيَّة السعي للسؤال عن عمَّتي بين المنتشرين هنا، وهم كُثُر، عمَّا إذا كان لهم أقارب في أستراليا. لكنَّ غلوريا سخرت منِّي، وقالت إنَّ أستراليا قارَّة. قارَّةٌ يعني أنَّها بلادٌ كبيرةٌ جدًّا. لم أقتنع تمامًا، وحاولتُ أن أشرح لغلوريا أنَّ المقيمين هناك، على كثرتهم واتِّساع أرض تلك البلاد، لا بدَّ يتجمَّعون في أماكن محدَّدة أو متقاربةٍ جدًّا، لأنَّهم يتكفَّلون ببعضهم البعض. وسيساعدني في البحث أنِّي أعرف اسم زوج عمَّتي كاملًا واسم قريته، وأنَّ بحثي سيكون محصورًا بالمطاعم الشرقيَّة القريبة من المخابز، الشرقيَّة أيضًا. سخرتْ غلوريا منِّي مجدَّدًا، ثم سألتني ماذا عن تلك التي لم نتطرَّق إلى سيرتها؟ ماذا عن عمَّتك الوسطى؟ فانتبهتُ إلى أنِّي نسيتُ اسمها. نسيتُها تمامًا.

ثم نسيتُ فكرة العودة إلى البلاد، ونسيتُ عمّاتي.

وبعد نزولي من شقَّة غلوريا وهربي من مالك الشقَّة المجرم، صرتُ أذهب إلى طوارئ المستشفيات لقضاء الليل.

يُسجِّلون الأسماء، وحاجة الناس للاستنجاد بهم، ومدى خطورة الحالة. ورغم معرفتهم بأنَّ هناك كثيرين في هذا الاكتظاظ المهول ليسوا في حال الخطر، ولا داعي صحِّيًا حقيقيًّا لوجودهم هناك، إلَّا أنَّهم لا يطردون أحدًا. وحين خبرتُ ذلك بنفسي لم أعُد إلى تغيير المستشفيات خوفًا من طردي، وصرتُ أتردَّد على واحدةٍ أجدها أكثر دفئًا ورواقًا من غيرها، أو أنَّ كراسي قاعات الانتظار فيها كثيرةٌ ومريحةٌ للنوم.

وتوطَّدتْ معرفتي بعالم طوارئ المستشفيات، لأنِّي كنت، في جزءٍ كبيرٍ من ليلي، أتفرَّج. ففي الردهة التي أبقى فيها لا يتركون الحالات الخطيرة تنتظر، فلا نرى الكثير من الدماء، ولا نسمع صراخ المتألِّمين أو صراخ أهلهم، إلَّا في النادر من الليالي. ففي ردهتنا كثيرون جاءوا لاستشارةٍ طبِّيَّةٍ عاديَّةٍ تجنِّبهم دفع مقابل زيارة طبيب في عيادته. هؤلاء يكونون فقراء جدًّا، أو من البخلاء الموصوفين. وهناك من يعانون من أمراضٍ وهميَّة، فيشكون من أوجاع لا تُطاق حتى تعطيهم الممرِّضات من المهدِّئات ما يُسكتهم أو يُنيمهم طيلة الليل. وهناك المستوحشون، الضجرون من وحدتهم ومن نسيان أقاربهم لهم، وهم عادةً من المسنِّين الذين لا يطيقون البقاء في بيوتهم، ويأتون إلى المستشفى للتسلية والفرجة، وهم الأكثر دلالًا على الممرِّضات ولا يزعجون أحدًا. يعاملهم الجميع كالزبائن الدائمين، يُطعمونهم ويُسمعونهم كلامًا لطيفًا،

ويُودِّعونهم في الصباح بأسمائهم على أمل اللقاء القريب. هذا يحصل في أيَّام أو ليالي الاكتظاظ العاديّ. أمَّا في مواسم الأعياد، أو المباريات الرياضيَّة الكبيرة، فالمشهد يختلف تمامًا. من محاولات الانتحار وجرحى الحوادث المنزليَّة وضرب الزوجات، إلى ضحايا اشتباكات الشوارع بين المشجِّعين السكارى. إذ ذاك يختلط الحابل بالنابل كما تقول العرب، وقد يطردون زبائن ردهتنا الهادئة إلى بيوتهم، أو إلى الشوارع إجمالًا.

أنا، صرتُ حين أصل أقول: آلامٌ مبرِّحةٌ وضربات قلبٍ مقلقة. اقتنعوا بسرعةٍ ومنذ البداية، فتلك الأعراض غالبًا ما تصيب من هم في وضعي، ثم اعتادوا على وجودي لأنِّي هادئةٌ ومسالمةٌ ولست كثيرة الطلبات. أقضي الليل هناك، وفي الصباح أخرج بعد أن يوزِّعوا الفطور.

وذات ليلةٍ من تلك الليالي الهادئة اقتربتُ من امرأةٍ كانت تُكلِّم ابنها المريض بالعربيَّة. كانت قلقةً وتنظر في كلِّ اتِّجاهٍ لا تعرف كيف تتصرَّف. تسكب ماءً باردًا على رقعةٍ من القماش تضعها على جبهته، ثم تحتار كيف تحمله وتملأ قنينتها البلاستيك الصغيرة من حنفيَّة برَّاد الماء في الوقت نفسه، وهو متشبِّثٌ برقبتها. وهي، كلَّما عادت إلى الكرسيّ، وجدتْ أنَّ غيرها قد شغله، فتروح حاملةً الطفل تبحث عن كرسيٍّ آخر.

أشفقتُ عليها واقتربتُ منها، وكلَّمتها مباشرةً بالعربيَّة. قلت لها إنَّ هناك قسم طوارئ خاصًّا بالأطفال، وإنَّ انتظارها هنا سيطول من دون جدوى. فهنا سوف ينصحونها بالذهاب إلى الطوارئ الملحق بمستشفى الأطفال. كانت المرأة تنظر إليَّ كأنِّي ملاكٌ هبط عليها من السماء،

وراحت تشكو وتشرح كيف داهمت الحرارة المرتفعة الطفل فجأة، وكان بألف خير. ثم سألتني إن كانت حالتي تسمح بمساعدتها ولو لدقائق، فهي لا تفهم كلمةً فرنسيَّةً واحدة، ولا تعرف ماذا ستقول للطبيب لو سألها عن وضع الصبيّ، أكان هنا أو في مستشفى الأطفال. قالت: لن أطلب منكِ مرافقتي إلى طوارئ الأطفال، لكن أرجوك أن تكتبي على ورقةٍ ما شرحتُه لكِ عن حال ابني بالفرنسيَّة.

خرجتُ معها من صالة الطوارئ وأنا أستحثُّها على الإسراع، علَّنا نلحق بالباص الذي يتوقَّف عن الخدمة في حوالى الساعة الواحدة. توجَّهنا معًا إلى مستشفى الأطفال الكبير المعروف. كان الصبيُّ في حالٍ مقلقةٍ فعلًا، إذ بدأ جسمه يرتجف ويتشنَّج بين ذراعَيْ أمِّه. حال دخولنا أخذوه وأخذوني معهما. أدخلونا غرفةً صغيرةً كالعلبة، وحضر طبيبٌ شابٌّ بدا جدِّيًا للغاية. وأنا كنت أترجم للطبيب وللأمّ.

في الفجر استقرَّ حال الصبيّ، وطمأننا الطبيب بزوال الخطر. أعطانا كيسًا من الأدوية، ثم عاد إلينا سريعًا وقال مشيرًا إلى الولد إنَّه سيبقى حتى المساء هناك وتحت المراقبة. ثم توجَّه إليَّ بالشكر بعد أن فهم كيف ولماذا رافقتهما، وأكَّد أنَّ ممرِّضةً ستأتي لتكلِّمني.

هكذا وجدتُ عملًا.

أرسلتني الممرِّضة إلى عنوانٍ قالت إنَّهم سيشرحون لي فيه ما المطلوب منِّي، ويسألوني إن كنت أوافق. تبيَّن أنَّها مؤسَّسةٌ تُعنى بأمور الغرباء الذين يجهلون لغة البلاد، وهم يحتاجون إلى مترجمين مثلي، خاصَّةً في المسائل الصحِّيَّة العاجلة. كان الأجر منخفضًا فعلًا، لكنَّه يفي باحتياجاتي القليلة. شرطهم الوحيد هو أن أكون في استنفارٍ دائم،

واستعدادٍ للعمل على مدار الساعة، وأن أرافقهم إلى حيث يحتاجون، أكان إلى المستشفيات أو مكاتب استقبال المهاجرين، أو ما شابه.

هم أيضًا من وفَّر لي غرفةً صغيرةً ملحقةً بإدارة مستشفى الأطفال إيَّاه.

لكن ما حصل لي خلال عملي هذا كان غريبًا جدًّا، وهو ما ردَّني إلى التفكير مجدَّدًا بالعودة إلى البلاد.

في البداية كان عملي هذا نعمةً سقطتْ عليَّ من السماء. أشكر ربِّي صبحًا ومساءً كيف أنَّه أرسلني لمساعدة تلك المرأة، أمِّ الصبيِّ. أرسلني أقول، لأن لا صدف بلا معنى في هذه الحياة. أنا لا أستأهل، لكنَّ اللَّـه أشفق عليَّ من سعة رأفته.

لأوَّل مرَّةٍ انتظمتْ حياتي، ورأيتُ أنِّي مفيدةٌ وأشبه غيري من البشر. نسيتُ شكلي وقباحتي، وحتى آلام جسمي. كنت أصحو في الغرفة الصغيرة الدافئة قبل موعد الشغل. أغتسل وأعدُّ قهوتي في إبريقٍ كهربائيٍّ قدَّموه لي. وللمرَّة الأولى أيضًا اشتريتُ عطرًا خفيفًا برائحة الياسمين، ومزيلًا للرائحة وصابونة، برائحة الياسمين أيضًا. ألبس ثيابًا نظيفة، أغسلها وأنشِّفها في الغسالات الكبيرة التابعة لخدمة المستشفى. ثم أجلس سعيدةً هانئةً بانتظار أن ترنَّ الآلة الصغيرة التي تلازمني ليلًا نهارًا، والتي تدعوني للنزول حيث ينتظرني سائق المهمَّة ومعه كامل التعليمات.

كلَّما رافقتُ الفريق الذي يحتاجني سمعتُ الكلام اللطيف والشكر، في أوَّل ساعات العمل وعند انتهائها. ربَّما كان سبب تلك المبالغة

في تقديري التعويض عمّا يعتبرونه أجرًا قليلًا، وأنا كنت أجده فائضًا عن حاجتي. وكانوا يعتذرون عن ضيق الغرفة، ويسألونني إن كنت أريد الانتقال منها ليساعدوني في القيمة التأجيريَّة. أحيانًا كنت أتساءل لماذا يعاملونني وكأنّي عملةٌ نادرة، فيما البلاد تعجُّ بالعرب من أمثالي العاطلين عن العمل والذين يتقنون اللغتَيْن. ثم اقتنعتُ بأنَّ جهوزيَّتي الدائمة هي ما يجعلني ذات قيمة، فأنا رهن الإشارة باستمرار. ثم، ولأنّي مريضةٌ معوَّقة، يشعرهم عملي معهم بأنَّهم مخلصون في تطبيق مبادئهم الإنسانيَّة.

ثم...، ثم في إحدى المرَّات، وكنت أترجم ما يقوله رجلٌ فلسطينيٌّ كهلٌ وما يُقال له، وهو أبٌ لشابٍّ يحمل إقامة، صرتُ أتلعثم وأتوقَّف باحثةً عن المفردات. أطلب من الرجل إعادة الجمل وأصفن. ثم رحتُ أقول للمسؤول إنَّ الصعوبة هي في أنَّ الرجل يقول كلامًا متناقضًا. قال لا عليكِ، فقط ترجمي لي حرفيًّا. ثم ساد فراغٌ في رأسي وشعرتُ بحرجٍ كبير. قلتُ للمسؤول إنَّ الرجل، لا بدَّ، يعاني من خرف الشيخوخة، ولا ترابط بين كلماته أو معنى. استغرب المسؤول كلامي، إذ لم يكن باديًا على الرجل أيٌّ من تلك الأعراض. كنتُ أتعرَّق بقوَّة، فأرجأ المسؤول المقابلة إلى يومٍ آخر، فيما الرجل الكهل يحاول أن يبسِّط لي حكايته، البسيطة أصلًا.

وبوتيرةٍ سريعةٍ صارت تتكرَّر صعوباتي في الترجمة، فأفقد الألفاظ الفرنسيَّة، حتى البسيطة العاديَّة منها، حتى تلك المستعملة في الحياة اليوميَّة. أفهم بالطبع ما أسمعه بالعربيَّة، لكنَّ المقابل الفرنسيَّ يسقط من رأسي تاركًا بياضًا مفاجئًا، أو سوادًا مفاجئًا، يشلُّ حواسي كلَّها، تقريبًا. والغريب جدًّا في الأمر هو أنَّ فرنسيَّتي كانت تعود إليَّ من نفسها خارج العمل. أجرِّب حين أكون وحيدة، فتنطلق الترجمة وتأتي الفرنسيَّة سهلةً منسابةً وكأنَّها لم تتركني لحظة.

طلبتُ إجازة. قلتُ إنّي متعبةٌ جدًّا، وإنَّ وضعي الصحّيَّ يتدهور. واعتقدتُ أنّي فعلًا كذلك، وينبغي أن أرتاح لأستردَّ شغلي.

بعد شهرٍ قضيتُ معظم أوقاته في النوم، عدتُ إلى العمل. عاودني ذلك التلعثم الفظيع حال عودتي، واجتاحني خوفٌ رهيب، ليس فقط من فقدان شغلي، بل من وصول أعطال مرضي إلى فلذات نخاعي.

كنت أعرف أنَّ قلبي ضعيف، وهو لا يملك قوَّة دفع الدم إلى كامل أعضاء جسمي الكبير، بما فيها رأسي. كنت أتمدَّد أرضًا كي أساعد مضخَّة القلب على إيصال الدفق إلى الدماغ، بتخفيف قوَّة الجاذبية.

لكن لا علاقة لحنكتي هذه في تفسير أعطالي المستجِدَّة...

شكيتُ أمري الغريب للطبيب اللبنانيِّ الشابّ، الذي تعرَّفتُ إليه خلال فترة التدريب مع فريق الطوارئ. قلتُ له باختصارٍ إنَّ هناك ممحاةً كبيرةً تنطلق من نفسها في رأسي، وتروح في كلِّ اتِّجاه، وتمحو الكلمات الفرنسيَّة من لغةٍ أتقنها منذ كنت صغيرة في المدرسة. ولا تدخل تلك الممحاة رأسي لتحتلَّها إلَّا حين أترجم في الشغل. كأنَّ المبدِّل الكهربائيَّ - الديجونتور - بين اللغتَيْن يتعطَّل فقط في الشغل.

راح الطبيب الشابُّ يطمئنني، قائلًا إنَّ ذلك ليس سوى علامةً على الإرهاق الشديد، الذي بدوره يؤثِّر على وظائف الذاكرة. وإنَّه نظرًا لوضعي الصحِّيِّ إلخ... قلتُ مُقاطِعةً سيل الشروحات إنِّي ارتحتُ في غرفتي ما فيه الكفاية، وإنَّ ما يعذِّبني هو العطل الذي بات يرتبط بالترجمة في الشغل، هذا الشغل الذي أعطى معنى لحياتي وليس لي عنه غنى... تفكَّر الطبيب الشابُّ قليلًا، ثم قال، مضيفًا لطفًا إلى لطفه، إنَّ المسألة قد تكون عابرة. نحن نسمِّيها آثار تروما. فعدا ذاكرتك المُثقلة

بصدمات الحرب الأهليَّة، أنت هنا تترجمين لأناسٍ عاشوا ظروفًا صعبة، ويتمسَّكون بالكلام الذي تترجميه كتمسُّك الغريق بحزمة القشّ، ما يحمِّلكِ مسؤوليَّةً كبيرة.

لم أخجل من الطبيب الشابّ، واسمه فادي، حين أجبتُه بأنَّ ذلك هراءٌ فعلًا، وبأنَّه كغيره يضع «تروما الحرب الأهليَّة» عنوانًا لأيِّ شيءٍ لا يفهمه... ويللا.

الغرق. الغرقى. الغرقى يتمسَّكون بتلابيبي، ويسحبونني إلى الأعماق السوداء.

دعاني فادي اللطيف إلى سهرةٍ مع أصحابه، وأصرَّ على حضوري. كان هو يعزف على العود ببراعة، ومن بين أصحابه من كان يغنِّي. كنت أسمع وأتفرَّج وآكل ممَّا أحضروه. ثم راح بعضهم يبكي من كثرة ما شربوا من نبيذ، فوقفتُ من دون أن أخفي ضيقي، وقلتُ إنِّي أريد العودة إلى بيتي، غرفتي، الآن.

لم أجد حلًّا لحركة الممحاة الرهيبة في رأسي. تحكَّمتْ فيَّ تمامًا، وصارت الفرنسيَّة تسقط منِّي في المستشفيات ومكاتب الهجرة. تتفتت وتتذرَّى وتطير هباء.

تركتُ الشغل، وبالتالي كان عليَّ ترك الغرفة الصغيرة.

عدتُ إلى عيشة الشوارع التي كنت قد اعتدتُها. لكن بعد أن تركتُ الغرفة في حرم المستشفى تحوَّلت عيشتي إلى عذاب، إلى عذاباتٍ جديدة، وإلى تخبيصٍ في الوحول.

ثم بدأتِ الفرنسيَّة نفسها تغرق في كلِّ مكان، وتشدُّني بتلابيبي معها إلى الأعماق السوداء. في كلِّ مكانٍ وفي أيِّ مكانٍ من تلك البلاد، حيث صارت مياه المدِّ العظيم ترتفع باستمرار، وأنا أتنفَّس بصعوبةٍ كبيرة.

وعدتُ إلى التفكيرالجدِّيِّ بالرجوع إلى البلاد.

كنت وعدتُ الخوري بالرجوع إليه للبحث عن مكان قبر أمِّي في سجلَّات الكنيسة مع سكرتير الرعيَّة، لكنِّي لم أرجع. من المؤكَّد أنَّه قبرٌ جماعيٌّ دلقوا فيه الجثث التي لم يطلب أحدٌ تسلُّمها منهم. وصارت الآن عظامًا، ركامًا مستوفًا متداخلًا مع الوحول، متراصًّا حتى لا يشغل مكانًا كبيرًا فتخاف منه الناس، هؤلاء الذين يخطِّطون لشراء الأراضي وتعمير البيوت. فالقيمة الشرائيَّة تنخفض كثيرًا إذا ما عرف الشاري بوجود مقبرةٍ تحت بيته، أو قرب بناية سكنه.

لا فائدة من العودة إلى الكنيسة، إذ، حتى لو افترضنا أنَّهم توصَّلوا إلى الاستدلال إلى مكان المقبرة، فكيف سأتعرَّف إلى عظام أمِّي بالذات؟ وماذا عساي أفعل بها؟ فنحن ليس لنا قبرٌ كالعائلات التي تتوارث مكانًا محدَّدًا يعرف إليه الأحياء سبيلًا أبًا عن جدّ. يتوارثونه، ويقومون بالعناية به، ويزورونه كلَّما اشتاقوا لموتاهم، أو أقلَّه كلَّما حملوا إلى المكان ميتًا جديدًا، أقصد إضافيًّا. لو كنت أعرف أين دُفِنَ أبي، مثلًا، لكنتُ ذهبتُ وتفقَّدتُ المكان. لكنِّي أصلًا لا أعرف إن كان أبي توفِّي أو لا يزال حيًّا.

عودتي إلى الكنيسة ستكون إقلاقًا للراحة ومضيعةً للوقت. لست الوحيدة. هناك أبناءٌ مثلي كانوا بعيدين، أو هم ماتوا قبل أهلهم أو في

بلاد الغربة. أفكِّر الآن بأنَّ في خرف الشيخوخة رحمةً من الربّ، ورأفةً لا متناهية. وأتمنَّى أن أصاب بالخرف لأنِّي أخاف الموت، أعني أخاف معرفة أنِّي سأموت من شدَّة تهافت جسمي بسبب المرض، وستضاف الشيخوخة إلى المرض. ثم إنَّ الخرف يتدبَّر أمور الفراق والوداعات والكلمات الأخيرة التي لا طاقة لأحدٍ على احتمالها.

الموت ليس احتمالًا، ولا هو واردٌ في عقولنا قبل أن يقع بدقيقة. إنَّه نقيض الوعي، فكيف لنا ونحن في كامل وعينا أن نستعدَّ له؟ الموت فضيحة. لذا أقول لنفسي إنَّ خرف أمِّي كان رحمة، إذ هو وفَّر لها عبورًا مسالمًا وملائمًا، خاصَّةً في غيابي عنها. فالغياب يساعد على النسيان. يبقى أنَّ احتمال ما يُروى عن صحوةٍ أخيرة، صحوة النزع الأخير، تبقى عذابًا ماثلًا أتمنَّى أن يمحوه خيالي، خيالي الخصب.

لا مجال للندم، إذ ماذا يجلب الندم غير تكبيلٍ إضافيٍّ للوقت الذي ندفعه، كبغلٍ حرن وهو بالكاد يتقدَّم. لا مناص من التعلُّق بشدَّةٍ بحبال النسيان الرؤومة، وتقوية عكَّازات السهو والشرود والسرحان، وحبِّ التفاهة وفراغ الرأس والقلب معًا...

فالناس هنا أكثر شيخوخةً من أهلهم، ولم يحظوا بما حظي به السلف من أشياء أجَّلت موتهم. من وهمٍ جميلٍ في بيوتٍ جميلةٍ في طرقاتٍ جميلةٍ في جبلٍ جميلٍ في شاطئٍ جميلٍ في بحرٍ جميل. أمَّا الخلف من أمثالي فلا القبر ولا رحمة الخرف. ولنا في العصف الربَّانيِّ ونيترات المرفأ عِبرة نهاية الشاطئ الجميل على البحر الجميل، أي نهاية النهايات.

ما علينا.

لن أذهب للبحث عن قبر أمّي، فهي، أقلّه، ماتت ميتة ربِّها. ولن أفكّر في تحميلها ذنوبًا، ولن أفكّر في الانتقام من كرهها لي. فأنا أحبُّ أمّي من كلِّ قلبي، وأعرف الآن أنَّ فقدانها هند غيَّر عميقًا في جسمها. غصبًا عنها، ومن دون وعيٍ لحالتها، فقدتْ أمّي بموت هند آخر نقطة، أو آخر ذرَّةٍ من الأوسيتوسين، هورمون التعلُّق. توقَّف في دماغها إنتاج أيٍّ من الأحماض الأمينيَّة التي تفرزها غدَّةٌ صغيرةٌ في الدماغ بحجم حبَّة الحمُّص، بحجم تلك التي ضربت دماغي. كان صعبًا في زمنها أن يعرف الأطبَّاء في بلادنا بأنَّه منذ عام 1955 كان هناك دواءٌ من مستخلص الأوسيتوسين يباع في الصيدليَّات في بلاد الأجانب. حقنةٌ صغيرةٌ في المجاري الأنفيَّة كانت عالجتْ أمّي. أكثر من هذا، فقد قرأتُ أنَّ نقص الأوسيتوسين يمحو من قلب الناس كلَّ شعورٍ بالتعاضد الاجتماعيِّ أو الشفقة تجاه الضعيف. ويزيد هذا النقص من السلوك العدائيِّ العنيف، وقد يكون أحد أسباب سلوكيَّات المجرمين المتسلسلين... فيما يؤدِّي إفرازه بكمِّيَّاتٍ أكثر من كافيةٍ إلى التواصل مع الغرباء والثقة بهم، والاستسلام بسهولةٍ لعلاقات العشق والأشواق والرومنطيقيَّة والحنين إلى الماضي... كحال القدِّيسة ريتا مثلًا. زيادةٌ في الأوسيتوسين، على عكس حالة الناس في بلاد الحروب الأهليَّة، أو ضحايا إجرام الدول الاستعماريَّة... شحنةٌ من تلك الحقن في الأنوف كانت كافيةً لتغيير مصير العالم بكامله، لتغيير مسار الإنسانيَّة. قبل شمَّة الأوسيتوسين، بعد شمَّة الأوسيتوسين.

على الصعيد الشخصيّ، من المؤكَّد أنَّه لو كانت أمّي أميركيَّة، مثلًا، لأعطوها تلك الحقنة، ولكانت حكايتي بكاملها مختلفةً تمامًا. كأنْ أكون شمعةً منيرةً أو ضرطةً صغيرة، عبقريَّةً أو قسوةً بلا صوتٍ ولا رائحة.

ماذا تنفعني هذه الأفكار الثمينة الآن؟ ماذا ينفعني هذا الهذيان؟ كأنّي أخترع خرفي وأصنعه بيدَيّ.

منتهى العبث. حتى الدكّنجيُّ يفتح غوغل ويعرف عن الأوسيتوسين. ولو توفَّر له موزِّعٌ في بلدنا لوجدناه على رفوف الدكّان، بين السبيرتو ومساحيق الغسيل.

منتهى العبث.

قد أذهب إلى بيت الرعيَّة مجدَّدًا، فأنا خالية الأشغال كثيرة الضجر ومتقلِّبة المزاج.

قد أذهب هكذا، من دون هدفٍ محدَّد، وقد أشتري زهورًا في حال عثروا على قبرها. وفي حال كان القبر جماعيًّا أرمي الزهور على المجموعة، على الربوة، أو على الصندوق، أو...

الآن يجب أن أهتمَّ بركبتي المصابة، التي لم أعُد أستطيع طيَّها، أقلّه لأستحمّ.

حين لا تكون الشمس في سطوع الظهيرة يصعب عليَّ أن أرى تفاصيل الشقَّة قبالتي. أفتح عينيَّ وأغلقهما عدَّة مرَّات. أشطف وجهي بالماء البارد ثم أعود إلى الشرفة. أرى إطار الشبابيك، والخطَّ الفاصل بين السماء والركام على السطح. فقط.

يُشقيني ضعف نظري، إذ تزداد المساحة الضيِّقة ضيقًا. الأمتار القليلة المتبقيَّة لحركتي ولنظري لم تَعُد تكفي للتنفُّس. وحين ينزل ضباب السماء تغشى عينَيَّ ستائرُ بيضاء من البخار، فتزيد إعاقةً جديدةً على إعاقاتي التي أصبحت كثيرة.

كلَّما ركَّزتُ نظري ازدادت آلامُ الصداع ووخزاته، وصرتُ أحتار في ما يلائمني أكثر، العتمة أم الضوء القويّ. ووجدتُ أنَّ العتمة تريحني من محاولات العودة إلى الحياة الطبيعيَّة، فلا أرى الوسخ، ولا ما ينبغي عليَّ القيام به من واجباتٍ يوميَّة، سوى إطعام القطَّة زكيَّة. أبقى في السرير، رأسي تحت الوسائد والستائر مغلقة، حتى تقفز إليَّ زكيَّة وتضربني بقائمتها الأماميَّة لأطعمها، أو لأفتح لها باب الشرفة لتتبوَّل أو تتغوَّط في الرمل. وهي بدأتْ تتغيَّر وتُبدي استياءً صريحًا من سلوكي بعد أن دستُ مرَّةً على ذنبها. كانت بقربي في المطبخ ولم أرها.

أصدرتْ صرخةً تشبه الزئير ولم تتقبَّل اعتذاري. حين حملتُها قفزتْ من بين ذراعَيَّ وابتعدتْ عنِّي أيَّامًا لا تطيق رؤيتي. لم تكن زكيَّة هكذا. أصبحت حقودةً وسريعة الغضب ولا تسامح.

أعرف أنَّ وضعي الصحِّيَّ يتردَّى باضطراد. لكن في ما يخصُّ نظري، فإلى جانب العمى التدريجيِّ المتوقَّع، أعترف لنفسي بأنَّ الإهمال زاد الطين بلَّة. فنظَّاراتي قديمةٌ ولم أعُد أستعملها، وزيارة طبيب العيون مُكلفة. لكن هناك في شارعنا أخصَّائيُّ نظَّارات، وهي مهنةٌ أصبحت ضرورةً للاستغناء عن دفع بدل زيارة الطبيب المتعجرف. لا أدري إن كان أخصَّائيًّا أو بائعًا كغيره من أُجراء الدكاكين والصيدليَّات، فحين قصدتُه مرَّةً لتلحيم نظَّاراتي المكسورة قال إنَّ عدساتها أصبحت قديمة، إذ عليَّ إجراء فحصٍ مرَّةً كلَّ سنتَيْن في أقلِّ تقدير، مؤكِّدًا أنَّ عنده آلة فحصٍ كما عند طبيب العيون. شكرتُه حينها وخرجتُ بسرعةٍ وفي بالي أنَّه من تجَّار شارعنا الذين يكذبون. نحن، الشعب، نعرف أنَّهم يكذبون، وهم يعرفون أنَّنا نعرف أنَّهم يكذبون، لكنَّ الأمور تسير بسلاسةٍ واتِّفاقٍ مضمَرٍ بيننا لحاجة الطرفَيْن. فالصيدلانيُّ يغشُّ المرضى، وكذلك اللحَّام وبائع قوارير الغاز. وإذا مات المريض، أو انفجرتْ قارورة الغاز، أو تسمَّم زبون اللحمة، فلن يكون ذلك سوى من غضب الربِّ، ومن تبعات القضاء والقدر. لا ملامة ولا غضب ولا محاكم. عادي. عادي كما كان يقول نبيل.

وإذن، ونظرًا إلى ما صار إليه وضعي، كان لا بدَّ لي من الذهاب إلى بائع النظَّارات، أخصَّائيًّا كان أو أيّ شيءٍ آخر.

لم أجد هناك الشابَّ الذي كنت رأيتُه من قبل. تقدَّم منِّي شابٌّ أصغر منه، ذو بشرةٍ سمراء حادقة، واستقبلني بوجهٍ بشوشٍ ينضح

فرحًا. خفتُ من فرحه بي، إذ خطر لي أنَّ زبائنه نادرون بحيث يستحقُّون الحفاوة. سألتُه عن الشابِّ الذي كان مسؤولًا قبله، فأجابني بلكنةٍ غريبةٍ بأنَّ «اللّـه وفَّقه»، ما يعني أنَّه سافر. كان يتكلَّم العربيَّة بطلاقة، لكنَّها أقرب إلى الفصحى. خمَّنتُ أنَّه هنديٌّ أو سيريلانكيّ، فقلتُ إنَّ سيريلانكا بلدٌ جميل، فردَّ مرحِّبًا بأنَّه باكستانيّ. ثم أكَّد لي بأنَّه يحمل شهادةً في علم فحص الرؤية وضبط النظَّارات.

بعد الفحص على الآلة إيَّاها، تبيَّن أنِّي بحاجةٍ ماسَّةٍ لنظَّاراتٍ جديدةٍ بمواصفاتٍ دقيقة، بحسب ما كتب الشابُّ الباكستانيُّ على ورقةٍ مدَّها إليّ، قائلًا إنِّي أستطيع شراء عدساتي الجديدة من أينما أريد، ولست مجبرةً على شرائها من عنده.

اتَّفقنا على السعر، فقلب ورقة نتيجة الفحص وبيده قلم، وسألني عن اسمي كاملًا، ورقم الهاتف أو البريد الإلكترونيّ، فقلتُ ضاحكةً إنِّي امرأةٌ قديمةٌ فاتت مدَّة صلاحيَّتها، فلا هاتف عندي ولا إلكترون، وإنِّي سأمرُّ بنفسي لأخذ نظَّاراتي الجديدة. وفيما هو يسايرني في أهمِّيَّة ما تخلَّيْتُ عن منافعه، توجَّهتُ إلى باب الخروج قائلةً إنَّ الاشتراك صار مرتفع الثمن، وهو بشروطٍ كهذه لا يلائمني ولا أحتاجه. فاستوقفني عند الباب وأشار إلى دكَّانٍ قريب، قبالة دكَّانه، يديره أخوه، وفيه كلُّ خدمات الإنترنت، وفيه أيضًا من يساعدني على استعمال الكومبيوتر. أفتح حسابًا يصلني بالعالم أجمع، وأدفع مبلغًا زهيدًا جدًّا بحسب وقت الاستعمال. لا اشتراكًا ولا عقودًا ملزمة.

يصلني بالعالم أجمع، رحتُ أفكِّر في البيت.

يصلني بالعالم أجمع.

حين استلمتُ نظَّاراتي الجديدة وجرَّبتُها أمام المرآة، صحتُ من الفرح، وهنَّأني الشابُّ الباكستانيُّ بحرارة. قلتُ له إنِّي سعيدةٌ جدًّا باستعادتي نظري، لأنِّي كنت أصبحتُ شبه عمياء. فراح يشيد بآلته الفعَّالة ذات النتائج المذهلة، مؤكِّدًا أنَّ طبيب العيون ما كان ليعطيني نتيجةً أفضل، فالعلم بات في الآلات أكثر منه في تشخيص الطبيب الإنسان، خاصَّةً بعد أن دخل علينا الكومبيوتر. قال إنَّ آلة الفحص التي لديْه ما هي إلَّا كومبيوتر...

ثم طلبتُ منه أن يرافقني إلى دكَّان أخيه، ففعل بطيب خاطر.

كان محلُّ الكومبيوتر مليئًا بالشبَّان الصغار، أشكالًا وألوانًا. لم يلتفت أحدٌ منهم إليَّ ليسخر منِّي، من شكلي أو من عمري. كانوا مُلصقين وجوههم بالشاشات المضيئة، كلٌّ على كرسيٍّ مثبَّتٍ إلى طاولةٍ صغيرة، ومنفصلٍ عن جاره بحاجزٍ صغيرٍ وواطئٍ يضمن له حميميَّةً ما، ويعزله عن الجوِّ العام. عرَّفني الشابُّ الباكستانيُّ إلى أخيه الأصغر منه، وأوصاه بي وشرح له وجوب مساعدتي من الألف إلى الياء، أو من الألف إلى حيث أحبُّ الوصول.

فوجئتُ كثيرًا بدرجة تولُّعي بالكومبيوتر. صرتُ أقضي في المحلِّ الساعات الطوال وأنسى الوقت. أتفرَّج وألعب وأنتظر أن يتفرَّغ أحمد ـ وهذا اسمه ـ ليعلِّمني المزيد، ليصلني بالعالم أجمع كما قال أخوه. فبعد أن تحسَّن نظري قلَّ كرهي للناس، وإن كنت أستطيع التلصُّص عليهم من بعيد، من دون أن أكلِّمهم ويكلِّموني، أبتسم لهم ويبتسموا لي، فهذا سيكون غاية المنى.

ثم تحمَّستُ لاقتراح أحمد بفتح حسابٍ لي على الفيسبوك. لم لا وهو ببلاش؟ وبدأتُ أفكِّر بإمكانيَّة البحث عمَّن اشتقتُ إليهم، أو تشوَّقتُ لمعرفة أخبارهم...

عن رشيد، مثلًا، ولو أنَّه بعيدٌ كلَّ البعد عن عالم الكومبيوتر والفيسبوك، فهناك أسماء أعرفها لمطاعم كان يتردَّد عليها، وهي لأقرباء له أو أصحاب، وقد أسألهم عن أخباره...

وعن أمِّ منصور في ألمانيا، وقد اشتقتُ إليها...

وعن عمَّتي الصغرى في أستراليا.

وعن نبيل.

وربَّما، ربَّما عن أبي...

مكتبة
t.me/soramnqraa

مع نظَّاراتي الجديدة وانشغالي بمحلّ الإنترنت، اختلف نظام حياتي.

عدتُ إلى النوم ليلًا، ولو نومًا متقطِّعًا. وكان نهاري منتظمًا بعد أن استعدتُ بعض نشاطي، ووزَّعتُ الساعات بحيث لا أغيب عن محلّ الكومبيوتر إلَّا في الأوقات التي تكثر فيها الزحمة هناك، فينشغل أحمد عن مساعدتي. وصار خروجي من البيت، لشراء حاجياتي مثلًا، يتبع طريق سيري إلى محلّ الكومبيوتر، في الرواح أو العودة.

كنتُ أعتقد أنَّ تفاؤلي الجديد بالحياة سوف يسير قُدُمًا، فالتفاؤل يجرُّ التفاؤل، ولا يعود أمام الإنسان إلَّا تقوية إرادته والقيام بما يتوجَّب عليه بهمَّةٍ ونشاط، وبشيءٍ من الإيمان بالغد الأفضل.

لكنَّ ليلي، وبعده نهاري، لم يأتيا بالنتيجة المرتقبة لما هيَّأتُ له من خطط التفاؤل والغد الأفضل...

فمع عودتي إلى النوم ليلًا رجعتْ إليَّ الكوابيس التي كانت تعذِّبني، واعتقدتُ أنَّها غابتْ وتخلَّصتُ منها. عادت تعذِّبني، وبخاصَّةٍ كوابيس الأوساخ، التي أصحو منها في حالة غضبٍ وقرف، وأبقى طيلة النهار سيِّئة المزاج منقبضة القلب، أهجس بتنظيف نفسي وتنظيف

البيت، مقيَّدةً إلى هذا الهمّ، أدور في الشقَّة متفكِّرةً في ما يمكن تنظيفه لو كانت أمِّي هنا، مثلًا. فأجد أنَّ أفكاري قليلةٌ ودون المستوى، وأنَّ كلَّ شيءٍ من حولي متَّسخٌ ومليءٌ بالجراثيم، وأنَّ المساحات التي أحاول تنظيفها سيبقى عليها وفي زواياها ذلك الوسخ العتيق الملتصق، يدبق تحت أصابعي وأظافري ولن أستطيع قبعه. يصيبني الإعياء قبل أن أبدأ. لو كانت أمِّي هنا لقالت مياهٌ ساخنةٌ وماء الجافيل. لا أستطيع نقع الشقَّة بكاملها بالماء الساخن وماء الجافيل. ومع هذا، لا ينفع الجافيل الصافي سوى في حرق جلد يدَيّ. يتخثَّر الوسخ في مكانه، لا ينكشط إلَّا بسكِّينٍ حادَّة، وما أدعكه بالإسفنجة يتكتَّل ويتبعثر كمادَّةٍ لاصقةٍ من نوعٍ جديد... بيتي وسخٌ وأنا أيضًا.

إحباطي هذا ينسحب على نهاري كاملًا ويعطِّله تمامًا، ولا شيء إذ ذاك يغيِّر مزاجي المتكدِّر، أو يلهيني عن هذا الهاجس، هذا العذاب.

وفي تلك الدائرة المقفلة من ليل /نهار يعود الكابوس.

أرى نفسي مرتَّبةً حسنة المظهر، ضيفةً في بيت أناسٍ لا أعرفهم، لكنِّي مرتاحةٌ وغير قلقة. ثم أشعر بحاجةٍ للتبوُّل فأقوم إلى الحمَّام. الحمَّام نظيفٌ لكنَّ بابه ليس له قفل، أو أنَّ قفله معطَّل. ثم أنزعج من عدم وجود ورق التنظيف على اللفافة الكرتونيَّة، وأنتبه إلى أن ليس هناك منشفةٌ ولا فوطٌ قرب المغسلة. ثم أجد أنَّ المياه مقطوعةٌ عن الحنفيَّات وعن مقعد المرحاض، الذي فجأةً أجده ملوَّثًا بالخراء المتيبِّس. وكلَّما لمستُ شيئًا لتنظيفه وجدتُه قد اكتسى بتلك المادَّة اللزجة ذات الرائحة الشنيعة. ثم أحاول الخروج فأجد أبوابًا صغيرةً واطئةً كأنَّها تؤدِّي إلى أنفاق، ومسكات تلك الأبواب أيضًا ملوَّثةٌ بالغائط... أدور في مكاني

المقزِّز ولا أجرؤ على الخروج، خوفًا من أن يعتقد سكَّان البيت الذي استضافني أنِّي أنا من وسَّخ المكان بهذا الشكل المريع. أبدأ البكاء. ثم أستيقظ.

عذابٌ مصفًّى ما يتركه فيَّ هذا الكابوس. ويليه النهار الذي أعود فيه إلى هاجس تنظيف البيت، مدركةً تمامًا فشلي المسبق والمتكرِّر. وأخاف أن يجعلني اليأس أكفُّ حتى عن محاولات التنظيف، لأعوِّد نفسي على العيش مع الأوساخ وفيها، فأريح جسمي.

لكنَّ جسمي وسخٌ أيضًا. فاستحمامي بات أمرًا في غاية الصعوبة، إذ عليَّ أن أنتظر المياه التي لا تأتينا من الحنفيَّات إلَّا نادرًا، خاصَّةً في الطوابق العليا. فهي تأتي شحيحة، وغالبًا لا يتمكَّن موتور الضخِّ من دفعها صعودًا لإيصالها إلى الخزَّانات على السطوح. وحين أنجح في تجميع ما ينزُّ من الحنفيَّة أوزِّعه بحسب الأوليَّات، فيأتي استحمامي في آخرها. فإذا ما حصَّلتُ سعة الطنجرة الكبيرة تشجَّعت، وقمتُ بدلق الماء فيها على دفعات، وهي مرفوعةٌ فوق موقد الغاز، إذا ما توفَّر الغاز. ثمَّ عليَّ حملها، ساخنةً وبالدرجة الملائمة، إلى الحمَّام. وهذا في ذاته أصبح صعبًا على ظهري الذي يزداد التواء... وعلى الكرسيِّ الخشبيِّ الواطئ عليَّ دعك جسمي على مراحل، لأشطفه من الصابون كلَّ جزءٍ على حدة، حتى إن نفد ماء الطنجرة أكملتُ استحمامي بالسبيرتو، أضعه على منشفةٍ صغيرةٍ مبلولةٍ سلفًا لهذه الغاية. لذا من الفطنة أن أبدأ بشعري القصير، تليه الأعضاء الحميمة التي لا تحتمل السبيرتو. يبقى أنَّ دلق الماء الدافئ على كامل جسمي هو من لحظات الحظِّ النادرة.

أنا إذًا في عموم الأيَّام وسخة. وسخةٌ وقلقة، أتفقَّد الحنفيَّة مليون مرَّةٍ في النهار الواحد، فلا أخرج من البيت.

وقد ازداد مكوثي الإلزاميُّ في الشقَّة، وإذن غيابي عن محلِّ الكومبيوتر، منذ تكرَّر الطرق على بابي من قبل الشبابِ الذين يشغلون شقَّة أمِّ منصور. كنت أرى واحدهم من عين بابي الزجاجيَّة، فأحبس أنفاسي ولا أفتح. إلى أن رآني شابٌّ منهم على سفرة الدرج خارجةً من المصعد، فسلَّم عليَّ باحترامٍ زائدٍ وسألني إن كنتُ أنوي بيع شقَّتي، لأنَّهم يحتاجونها كونها ملاصقةً لشقَّتهم، ويدفعون نقدًا وبالدولار. ولمَّا أجبته بأنِّي لستُ مالكة العقار، ولا أدري أين هو المالك، اعتذر واستأذن، لكنَّه لم يعرض عليَّ المساعدة في حمل أكياسي الكثيرة، التي من حنقي رحتُ أركلها حتى الباب. وصرتُ أخاف منهم، من أن يطردوني من بيتي، إذ ما ومن سيمنعهم من ذلك؟ فهم لديْهم الكاش وبالدولار، وهم على يقينٍ من أنِّي وحيدةٌ هنا، مريضةٌ وبلا قوَّة، ويعرفون أن أحدًا لا يزورني لأستنجد به.

أنا ملكة الهواجس، وملكة الحظِّ السيِّئ، قلت لنفسي.

أتعبني خوفي منهم كثيرًا. ثم قرَّرتُ أنْ لا معنى لهذا القلق. فهم إن قرَّروا طردي من الشقَّة فلن يكون هناك من سبيلٍ لردِّهم، ولا أيَّة طريقةٍ لمنعهم من ذلك. فلماذا أشغل رأسي في ما لا مناص منه، في الخوف اللامجدي من حكم القضاء والقدر؟ حالما يطلبون منِّي أن أغرب عن وجوههم سأغرب، وسأعطيهم المفاتيح وأدلُّهم على رافعة البدَّال الكهربائيّ، شرط عدم الأذيَّة، وشرط أن آخذ معي زكيَّة وبعض الحوائج ممَّا لا حاجة لهم به أو فائدة لهم منه. وقد أُصِرُّ، إن استطعت،

على حمل أوراق أمِّي وصورة أختي، وسأحاول دسَّ أيقونتي في طيَّات ملابسي الداخليَّة.

وقد تمضي الأمور بسلامٍ وبدون مشاكل أو عنف. إن كنتُ لطيفةً واستسلمتُ بتفهُّم، سيجري كلُّ شيءٍ على ما يرام ويشتهى. ففي خطَّتي بالانهزام الطوعيِّ سوف أُفشِل كلَّ مخطَّطات الهجوم التي ينكبُّون عليها. تمامًا كما فعل الروس بنابليون، إذ ظلُّوا يتراجعون له، وفيالق جنوده تتقدَّم، حتى أكلهم برد الشتاء الروسيِّ من شدَّة الانتصار.

لكن رغم اطمئناني إلى نتائج مفاوضاتي السلميَّة سلفًا مع الشباب جيراني، لم أعاود الذهاب إلى محلِّ الكومبيوتر لمتابعة صفحاتي على الإنترنت. فضَّلتُ أن ينساني الشباب قليلًا، أو يتغيَّر طاقم الروَّاد الذين كانوا حاضرين في ذلك اليوم، اليوم الذي بلتُ فيه على نفسي، إذ حين رغبتُ في الذهاب فورًا إلى الحمَّام تبيَّن أنْ ليس هناك بيت خلاءٍ في دكَّان الكومبيوتر. فقد صار مرضي يزيد من وهن مثانتي، فلا أستطيع السيطرة على نفسي إلَّا لثوانٍ قليلة.

كان ذلك مخجلًا ومهينًا في عمري هذا. ولم يلطِّف من خزيي مواساة أحمد في التخفيف من فداحة الموقف، وأنا ألتقط بالمحارم الورقيَّة سوائل البقعة الصفراء التي فاضت عن ثيابي. قرَّرتُ إذن أن أغيب قليلًا، فالناس ينسون الأمور التي لا تعنيهم، خاصَّةً فتيان المحلّ.

بعدها كان عليَّ أن أعود لمتابعة نشاطي الإلكترونيّ، والبحث عمَّا كان يخطر لي البحث عنه...

خفَّت زياراتي إلى حافَّة النهر الذي ليس نهرًا.

خفَّت كثيرًا بسبب تردِّي حالتي الصحِّيَّة باضطراد، وبسبب غياب نبيل، أو اختفائه الغريب، وهو كان يعينني في الوصول أو في العودة، في إحدى السيَّارات التي يصلحها في الكاراج.

نبيل. هل كان هذا اسمه الحقيقيّ؟ هل مات حقًّا؟ قُتِلَ في مكانٍ ما، في حربٍ ما؟ هل كان في شارعنا، في منطقتنا، للتجسُّس علينا؟ يتجسَّس على ماذا؟ ليس في القريب منَّا أو في جوارنا ما يستحقُّ أن يتجسَّس عليه أحد. لا محطَّةً نوويَّةً ولا مركز مخابراتٍ ولا وحداتٍ أو قواعد أجنبيَّة، ولا شبكات أعمالٍ سرِّيَّةٍ خلف الجدران، ولا أنفاقًا حربيَّة، ولا سفاراتٍ أو قنصليَّات، ولا حتى مسكنًا محميًّا بالدشم لشخصيَّةٍ هامَّةٍ من أيِّ نوع... أو إنِّي أنا لا علم لي؟

صاحب الكاراج معلِّم نبيل شهر في وجهي الصورة الكبيرة وكأنَّه ألصقها بأنفي، وكأنَّ الصورة دليل اتِّهامٍ لنبيل، ولي أنا. لم أرَ فعلًا ما كان في الصورة الكبيرة لأنِّي غضبتُ من طريقة الرجل. لم أرَ شيئًا إذ كنت ألهث من الحَرِّ، وعلى نظَّاراتي القديمة بعدساتها الخربانة طبقةٌ من البخار لشدَّة تعرُّقي. لم أرَ سوى بقعًا من الألوان على شكل رأسٍ كبيرة، وبالطبع

لم أميِّز حرفًا ممَّا كان مكتوبًا. ومن كرهي للرجل فكَّرت فورًا بأنَّ كلّ ما يقوله محض كذب. هو يكذب، وهو كعادته يتبجَّح كزعيمٍ قزم بكرش بشع، يقفز في الهواء ويلوِّح بيديْه الملطَّختيْن بالشحوم لا ينظِّفهما.

لا يمكن لرجلٍ كريهٍ مثله أن يكون صادقًا.

لا يمكن أن يكون نبيل سوى ذلك الشابِّ الذي عرفت، الطيِّب والكريم واللطيف. وإن كان هناك من كذَّابٍ ومزوِّرٍ فهو صاحب الكاراج بالذات. القوَّاد العكروت الذي لم يكن يدفع لنبيل مقابل عمله طيلة النهار ما يساوي أجر غرفةٍ صغيرةٍ في حيٍّ شعبيّ.

تفو.

لماذا اختفى نبيل هكذا؟ كنت أريد فقط أن يعطيني من أخباره. أقلَّه لأطمئن بأنَّه لم يمت، ونكايةً بمعلِّمه النصَّاب، وليس أبدًا من أجل الخدمات الصغيرة التي كان يقدِّمها لي.

هذا الشريط الترابيُّ المحاذي لمجرى النهر يضيق باستمرار، ولم يتبقَّ من جذع شجرة الصفصاف المقصوفة سوى شظايا عموديَّة، محروقةٍ ومسنَّنةٍ كأسنان منشارٍ كبير، وآثارٍ من الأغصان القليلة المتفرِّقة، المتدلِّية نحو أرضٍ ناشفةٍ بلا ماء.

صارت الصفصافة، التي لم تَعُد تشبه الصفصاف في شيء، صورةً في الذاكرة البعيدة للأشجار، كأنَّها دخلتْ عالم المتحوِّلين، فانفصلتْ نهائيًّا عن الغابة وعن النهر. لم تَعُد في وحدتها هنا بحاجةٍ للَّون الأخضر. وريقاتها ارتاحتْ في المشهد الرماديِّ الذي للسخام الغليظ الذي يخيِّم هنا، مقاومًا الأمطار ومستغنيًا عنها، ومتَّجهًا إلى تشكيلةٍ من ألوانٍ مطفأةٍ مكتومةٍ ومتداخلة، غير معروفة المصادر، سيحتفظ بها حتى التلاشي...

لا أدري لماذا ما زال بعنُّ لي أن آتي إلى هنا. ربَّما لإحساسي بأنِّي هنا أغادر المدينة تمامًا، ولا أكون في مكانٍ آخر. هنا أتخفَّف من كلِّ شيء، حتى من نفسي. أو لعلِّي صرتُ أشعر بأنِّي هنا في ديكوري الطبيعيّ، جزءٌ من اللوحة، أشبه الشريط الترابيِّ الضيِّق، وأشبه الصفصافة في ما آلت إليه، وأنِّي من تشكيلة الرماديِّ المكسوِّ بالسخام العصيِّ على التنظيف.

حتى القطَّة زكيَّة، التي لا تُبدي أيَّ حماسٍ للخروج من البيت، صارت تدخل العلبة البلاستيكيَّة بكلِّ طيب خاطر، ومن دون مقاومةٍ أو اعتراضٍ كما كانت تفعل سابقًا. أحملها معي فتعرف إلى أين نحن ذاهبتان، وحال وصولنا تتمطَّى خارج العلبة، تخطو بضع خطوات، ثم ترقد بجانبي لا تبتعد. تفتح عيْنها لتتأكَّد من وجودي بقربها، ثم تنام... وحين تمطر فجأةً نلجأ إلى اكشك المهجور غير البعيد، وهو كان كوخًا لبيع الكوكاكولا وخلافه، ثم تحوَّل إلى تحضير وبيع القهوة الإكسبرس، بحسب ما وجدنا من آثارٍ بداخله، قبل أن يتخلَّع ويحملوه إلى هنا، من ضمن الركام الذي جمَّعوه بهدف التخلُّص منه لاحقًا، وبقي هنا. والآن صار تحميله في الشاحنات أكثر صعوبة، إذ رصَّت الأمطار أجزاءه بعضها إلى بعض، فصارت تلالًا متماسكةً وممسكةً بأرضها، ثم نَمَتْ عليها الأعشاب وتبيَّست. لذا بدا كوخ الكوكاكولا قد انتحى بألواحه المخلَّعة جانبًا، إذ طافتْ أخشابه وتهادتْ في مجرى السيول.

وذات يوم، خلال إحدى الشتوات المفاجئة، ركضنا أنا وزكيَّة إلى الكشك نحتمي تحت لوح السقف، فوجدنا على أرضه فراشًا من الإسفنج وفوقه أغطية صوفيَّة. كان طرف الفراش غاطسًا في بقعة ماءٍ كالبركة الصغيرة، وأحد الأغطية يقطر ماءً أصفر بلون الغطاء ووحلًا سائلًا. ثم انتبهتُ إلى أنَّ من نام هنا قام بسدِّ أحد الحيطان بقطعةٍ

كبيرةٍ من النايلون الأزرق السميك، كانت فيما مضى خيمةً من تلك التي توزِّعها الأمم المتَّحدة. أنزلتُ النايلون الأزرق إلى الأرض بعد أن سحبتُ الفراش إلى البعيد، واستطعنا أنا وزكيَّة اتِّقاء زخَّات المطر العنيفة لأنَّ السقف بقي في مكانه.

لجأنا إلى كوخ الكوكاكولا أكثر من مرَّة، ننتظر الصحو حتى لا أضطرَّ إلى ركوب التاكسي المكلف، فيما يذوب ما أملكه من دولاراتٍ يعطينا إيَّاها البنك بالقطَّارة. فالتاكسي الخصوصيُّ يرفع التعرفة حين تُمطِر بشكلٍ مبالغٍ فيه كثيرًا، بحجَّة عجقة السيْر، ووجوب تجنُّب الطرقات التي تدهمها السيول وتحوُّلها بركًا فينطفئ محرِّك السيَّارة. أمَّا التاكسي ـ سرفيس فيكون مليئًا بالركَّاب حين يصل إلى الطرق العريضة القريبة. وحين يراني السائق مع صندوق القطَّة إلى جانب جسمي الكبير، ويرى عكَّازي وأكياسي، يحوِّل سيْره عنِّي بسرعة.

في ظروفٍ كهذه نتعذَّب كثيرًا في العودة إلى البيت ونتبهدل. وزكيَّة تكره البلل والرطوبة، فأقول لها إنَّ هناك عطبًا في رأسي وفي رأسها، إذ لماذا نرغب في التنزُّه هنا؟ هذا غير طبيعيّ، أقلَّه خلال فصل الشتاء. أقول لها يا زكيَّة الناس تحبُّ زيارة الأماكن الجميلة التي لها ذكرياتٌ عزيزةٌ فيها، مفرحةٌ أو حزينة. وقد يفعل الحنين إلى تلك الأماكن فعل اللحمة اللَّاصقة التي تشدُّ أجزاء حياة الإنسان، أقسام عمره وقطعه، إلى بعضها البعض، والحنين قد يُجمِّل الأمكنة البشعة القاحلة التي تعيد نفخ الروح في طفولةٍ بعيدة، حتى في تلك الأمكنة المضرَّة بالصحَّة، كحال تلك المرأة التي راحت تبكي أمام كاميرا التلفزيون تريد العودة إلى بيتها في تشيرنوبيل، والشرطة تمنعها...

ها زكيَّة! نحن، لماذا نرغب دائمًا بالعودة إلى هنا؟

في بعض الأيَّام يفتح لي أحمد صفحتي ببلاش، ويرفض أن أدفع مقابل ساعات الإشغال.

فالشابُّ الباكستانيُّ الذي يُشغِّل محلَّ الكومبيوتر يُظهِر لي اهتمامًا ويُحيطني بعنايةٍ خاصَّة صارت تقارب الصداقة. ربَّما بسبب أنَّ عمري هو أقرب إلى عمره من أعمار الفتيان الذين يتردَّدون على المحلّ. وحين أكون هناك ينهرهم أحمد عن الصراخ والضجيج والتفوُّه بالكلمات البذيئة، ويبقى قريبًا منِّي لمساعدتي. وأعتقد أنَّه يشفق عليَّ قليلًا، إذ إنَّ الناس في مثل عمري يملكون جهاز كومبيوتر في بيوتهم.

وذات مرَّةٍ رفض أن يأخذ المنقوشة التي أحملها له في طريقي إلى المحلّ. قال إنَّ سعرها بات مرتفعًا، وإنَّه يفطر في بيته قبل الشغل. أفهمتُه أنِّي لست فقيرة، وأنَّ عدم امتلاكي كومبيوترًا في بيتي هو بسبب عدم وجود من يساعدني في استعماله. هذا إلى جانب اعتقادي بأنَّ موزِّع الشبكة نصَّاب، وهو يرفع ثمن الاشتراك كما يحلو له. لذلك، وحين أعفتنا لجنة البناية من إلزام كلِّ الشقق باشتراكٍ واحد، قام بقطع شريط شقَّتي من دون استشارتي. فواقع الحال أنَّ بنايتنا قلَّ ساكنوها، وأُقفِلَت أبوابٌ كثيرةٌ بالجنازير الحديديَّة والألواح المصفَّحة بعد أن

سافر أصحابها، مالكون ومستأجرون، وكفُّوا عن دفع الاشتراكات. كان هذا الموزِّع يستبدُّ بمن بقي في البناية، على اعتبار أنَّ أحدًا لا يستطيع العيش من دون إنترنت، وبخاصَّةٍ من دون تلفزيون. لذا لجأ كثيرون إلى تعبئة تلفوناتهم بالوحدات المدفوعة سلفًا، التي يتحكَّمون بسعرها، وتعطيهم فرصة التواصل مع المهاجرين عبر الواتساب المجَّانيّ، فيما راح بعضهم إلى تعليق الأشرطة من علبة التوزيع، يتقاسمون أجرها بالخفاء عنه. فطار صواب الرجل وأنزل غضبه على كامل أشرطة بنايتنا. المهمُّ أنَّ محلَّ أحمد عرف في تلك الآونة، ومع تراجع عدد الاشتراكات في بناياتٍ كثيرة، ازدهارًا غير متوقَّع.

ومع تحسُّن مردود المحلِّ صرتُ أخاف أن يجمع أحمد المال ويسافر، أو أن يبيع خلوَّ المحلِّ ويسافر. لذا سألتُه مرَّة، ونحن نأكل من الرزِّ المُبهَّر الذي حمله في علبة بلاستيك يريدني أن أتذوَّقه، سألتُه إن كان يسعى إلى السفر. قال طبعًا، لكنَّ ذلك مستحيلٌ لأنَّ جواز سفر بلاده يُخِيف كلّ الناس. قلتُ ممازحةً إنَّ بمقدوري أن أتزوَّجه فيحصل على باسبورٍ مختلف، فضحك وقال إنَّ جواز سفري هو الآخر لا ينفع. فقلتُ بدلالٍ إنِّي أملك جواز سفرٍ آخر، ولن أريه إيَّاه إلَّا حين نقرِّر الزواج، وضحكنا معًا وصلصة الكاري الحادقة تسيل من ذقنينا.

كان يُسعدني أن أُضحِك أحمد، ليس فقط تعبيرًا عن امتناني للطفه واهتمامه بمساعدتي، بل لأنَّه كان يبدو حزينًا في معظم الأوقات، وغريبًا ووحيدًا، خاصَّةً حين يتكلَّم عن قلقه على أمِّه. يتذكَّرها حين يفصِّل لي وصفات أطايب الأطباق الباكستانيَّة، وأيضًا حين يأسف لانفصال بلاده عن الهند، أقلَّه بسبب جواز السفر. لكنَّه لا يُطِيل، وسرعان ما يغيِّر الموضوع فيستبعد سريعًا الكلام في الأمور الشخصيَّة.

ثم تبيَّن لي أنَّ من يدعوه أخاه في محلِّ النظَّارات القريب هو ليس كذلك بالفعل، لكنَّه صديقٌ عزيزٌ ومن بلديَّاته، كأنَّه أخوه.

تُسعِدني صحبة أحمد، واستأنس بالكلام معه.

يتعبني أحيانًا، حين يبتعد حديثنا عن الكلام اليوميِّ البسيط، أن أستعمل معه فصحى مخفَّفة. فهو كان تعلَّم العربيَّة في بلاده، ويتقن الفصحى أكثر منِّي، لكنَّه يستغرب حين أستوقفه لأستفهم عن بعض الألفاظ التي ينطقها بلكنته الغريبة فلا أفهم ما يقول. ويُخيَّل إليَّ أحيانًا أنَّه يمزج العربيَّة بلغة بلاده، فتكثر بيننا الشروحات والأمثال. الآن تعوَّدتُ قليلًا.

كان عليَّ أن أُخبر أحمد ببعض تفاصيل حياتي، حتى نستطيع أن نبحث معًا في ما أريد الوصول إليه، أو آمل في ذلك، لكنِّي أعتقده مستحيلًا. لكنَّ انبهاري بولع أحمد بعوالم الإنترنت وإمكانيَّاته قرَّب إلى ذهني ذلك المستحيل.

كان أحمد، حالما يضيء الشاشة التي نحن أمامها، ينظر إليَّ ويسألني: إلى أين؟ إلى أين تريدين الذهاب في هذا العالم؟ كانت سعادته تجعلنا كطفلَيْن، أحدنا يدعو الآخر إلى ركوب بساط الريح، أو إلى حكِّ قمقم الجنِّي. ومن ادِّعائي فرح الاكتشاف، صرتُ أغوص شيئًا فشيئًا من اللعب إلى التورُّط بالبحث الجادِّ في أحوال هذا العالم الذي لم أكن أريد أن أراه، ولا حاجة لي به. يبدأ أحمد باللعبة إذ يسألني إلى أين تريدين الذهاب اليوم. وكان صعبًا ألَّا أردَّ على الحزُّورة فأبدو ولدًا ثقيل الظلّ، يُفسِد الجوَّ المَرِح. لم أجرؤ في البداية على القول إنَّنا هنا في أحسن حال، وإنِّي أفتقد فعلًا تلك الحشريَّة ولو كانت أوقات أيَّامي فارغةً متعطِّلة.

يقول أحمد: ماذا تريدين أن تعرفي؟ وعن ماذا؟ وفي أيِّ تواريخ؟ وأين من هذا العالم؟ أتردَّد قليلًا، وفي بالي أن أسأله مثلًا أين هو نبيل، فيضيف: تريدين زيارة أهرامات مصر، أو سور الصين، أو كفن المسيح في تورينو؟ تريدين معرفة حكاية ملكة سبأ، أو تاريخ ولادة الصحارى، أو الدخول إلى ممالك النحل؟ ومن أجل متعة رفقته أترك له أن يختار. يرى أحمد عدم حماستي، فيروح يشرح الفرق بين الكتب، العظيمة لا شكّ، وسحر المشاهدة بالعين. السحر.

يضع كرسيًّا بجانبي ويسحبني إلى الفضاء، إلى ما يرى أنَّنا لا نجده في الكتب، ليبرهن لي لذَّة العين واختراقها المعرفة إلى وسائلها الخاصَّة الجديدة، لنشاهد معًا ما لم يرَه البشر قبلنا. نروح نتنقَّل بين المجرَّات التي تحمل الصور بتلسكوباتٍ جبَّارة، من مسافة كذا مليون سنةٍ ضوئيَّةٍ عن الأرض. يتوقَّف ذهني عن التسجيل. أنا، قبل فعل التلسكوبات العملاقة الجبَّارة، أرى نفسي جُزيئًا من ذرَّة غبارٍ في شارعنا. وحين تتراكم الأصفار في حسابات السنوات الضوئيَّة، يخطر لي أن أغمض عينَيّ، أنا التي أحتسب بعناءٍ كبيرٍ المسافة بين بيتي وحافَّة النهر.

أتفرَّج، وأنسى إرهاقي من استيعاب لاحدود الكون، وأنسى أيضًا أنَّ ما نراه على الشاشة الصغيرة ينقل لأعيننا أحداثًا حصلت في ماضٍ سحيق. و«سحيق»، كما «ملايين الأصفار»، ليست الألفاظ المناسبة، فنحن في قواميس جديدةٍ للغة أجنبيَّةٍ غريبةٍ كليًّا. وأنا حقيقةً لا أريد أن أتعلَّم.

أتفرَّج. لا أقول لأحمد إنِّي أنا شخصيًّا لا ينفعني هذا الذي نراه في شيء. إنَّه يملأ رأسي بما لا فائدة منه ولا وجه استعمالٍ له. لا أقول

له إنَّ قلَّة علمي وضعف قدرتي على الاستيعاب يُحزنانني. ويحزنني أيضًا، كثيرًا، أن أشاهد موت نجمةٍ في عميق الزمان وأنا أشاهدها اليوم في سماءٍ رائقة، مشدوهةً بجمالها، وطالبةً منها أحيانًا أن تنظر إليّ، وأحيانًا أخرى أن ترأف بي. لا أقول لأحمد إنِّي أنا أكلني غولٌ أسود يشبه الثقب الأسود الذي هو فرحانٌ به...

لا أقول شيئًا لأحمد، خاصَّةً بعد أن عرفتُ منه أنَّ حلم حياته كان التخصُّص في علم الفضاء، أو هذا الذي يحملني على الاعتقاد به، ومن أجله ترك وصفات أمِّه وسافر إلى عالمٍ كان يعتقد أنَّه واسعٌ وكبير.

نبقى أحيانًا أمام الشاشة الصغيرة بعد أن يغلق أحمد باب المحلِّ قرابة منتصف الليل. نستفيد من الجوِّ الهادئ وقلَّة الزبائن، ومن الإرسال حين يكون مستقرًّا. وقد نطفئ الشاشة وننظِّف المحلَّ ونرتِّبه معًا. ثم نحضِّر الشاي ونجلس نتساير في ما شاهدناه معًا، أو في أمورٍ أخرى، عن الفرق في الطبيخ بين بلد وآخر مثلًا، أو عن أحوال الشارع والناس والحياة.

أصبح بلسم «النمر» رفيقي الدائم، رغم نفور زكيَّة من رائحته القويَّة.

نصحني به أحمد، فصرتُ أضعه دائمًا بمتناولي، وهو خفَّف كثيرًا من آلام ركبتي المصابة. أدهن به المفصل وأدعك جيِّدًا حتى أحسَّ بسخونةٍ قويَّة، ثم ألفُّ كامل الساق والفخذ بشالٍ صوفيٍّ سميك.

هذا الدَّهون السحريُّ والبخس الثمن أغناني عن أدويةٍ كثيرةٍ كنت أبتلعها من دون فائدةٍ تُذكر، سوى أنَّها كادت تصيب معدتي وأمعائي بالقرحة.

عدتُ، في طريقي إلى المحلّ، أو حتى خارج انشغالي هناك، عدتُ أتمشَّى في شارعنا. أتمشَّى وأتوقَّف أمام المحالِّ والدكاكين، من دون حاجةٍ لشراء حاجيات، وأحيانًا أتحادث مع النساء في غلاء الأسعار، وفي مشاكل النفايات وانقطاع الكهرباء وما شابه، فأشعر بأنِّي من الستَّات، ستَّات البيوت، ولي مواضيع اهتمامٍ مشتركةٍ معهنّ. وهنَّ، كما أصحاب الدكاكين، اعتدن هيئتي، ولم يعدن يخفن أو يهربن منِّي. كلُّ مشاويري مُتوقِّفٌ فيها مزاجي على مدى ما أعاني من آلام، فإن كانت خفيفةً أطلتُ الأحاديث، ووقفتُ أتشهَّى الطبيخ في ما أجده في

السوق، كأن أجد عند بائع الخضار كوسى صغيرةً خضراء لامعة، ما زالت تحتفظ بزهرتها، فيجري الريق في فمي. ورغم معرفتي بأنْ لا قدرة لي على نقرها أو حشوها بأصابعي الثخينة المتورِّمة، أشتري منها كمِّيَّةً معتبرة. أشقُّ حبَّة الكوسى إلى نصفَيْن بالطول، أُفرِّغها بالسكين قليلًا ثم أقطِّعها. أحضِّر الحشوة كالعادة في المحاشي، باللحم المفروم والأرزِّ والبهارات، وملعقةٍ صغيرةٍ من السمن، وأضيف إليها قطع الكوسى. وبدل الماء أسكب عليها عصير البندورة الحمراء الناضجة. خمس دقائق تقريبًا إن كان الرزُّ منقوعًا بالماء الساخن، وأكثر قليلًا إن كنتُ مستعجلةً من جوعي وشرهي. لا أضيف النعناع أو الثوم، لأنِّي الآن أقلُّ تأثُّرًا بأمِّي...

وأنا، حين تخفُّ آلامي أصبح صبورة، ويشتغل خيالي. ففرن الغاز لم يكن في الحقيقة معطَّلًا. كان فقط مسدودًا بفعل الأوساخ المتراكمة في فتحة الإشعال. فبعد أن نظَّفته جيِّدًا صار بإمكاني أن أحضِّر الحلويات في البيت، مثل الصفوف مثلًا. فهي غير مُكلفة، وطريَّةٌ هشَّةٌ على أسناني. والأهمُّ أنَّها بسيطة التحضير، ولا يلزمها عجنٌ أو لفٌّ أو دعكٌ أو خفق. تكفي ملعقةٌ كبيرةٌ لمزج مكوِّناتها، وهي لا تحتاج أكثر من نصف ساعة خبيزٍ حتى تفوح في البيت والبناية رائحة الكركم البديعة، ورائحة العائلات والبيوت التي تضجُّ بالأولاد. وذات مرَّةٍ قرَّرتُ من فرط خيالي الخصب أن أضيف القليل من اليانسون المطحون إلى عجينة الصفوف، ففاحت رائحةٌ ملائكيَّةٌ من النوع الذي ينشر السعادة في أرجاء الكون. فتحتُ الشبَّاك، وأعليتُ صوت الراديو، ورحتُ أهنِّئ نفسي وأهنِّئ زاكو باختراعي الفذّ...

ذهبتُ ذلك اليوم العظيم، يوم الكوسى والحلويات، إلى خزانة العُلب، وملأتُ لأحمد واحدةً بالكوسى المحشيِّ على طريقتي، وواحدةً بالصفوف في صيغته المعدَّلة.

رائحة اليانسون، التي أقامت في الشقَّة، كأنَّها فتحتْ بابًا كان موصدًا إلى السماء. فرغم إقلاعي عن حبِّ الذكريات والحفر في الماضي، حملتني رائحة اليانسون إلى بيتنا القديم. بيتنا القديم أيَّام الآَحاد، وأنا طفلة، وأنا طفلةٌ جميلة، ومحبوبة.

إنَّها رائحة العرق. رائحة العرق رغمًا عنِّي. أنا المرأة الموقوفة، المعلَّقة، التي تكره الوقت، وقت الماضي، وذلك الذي يذهب سدى في توقُّع ما سوف يأتي من المستقبل.

في بيتنا القديم.

في طرف الصالون صالة الطعام تطلُّ على الشرفة. بابها مفتوحٌ وستائرها الشفَّافة البيضاء مربوطةٌ من وسطها. الضوء قويّ، تلقيه الشمس كشرشفٍ إضافيٍّ على طرف الطاولة الكبيرة. حول الطاولة نساءٌ ورجالٌ يرفعون كؤوسًا بيضاء، يبتسمون ويتكلَّمون مع بعضهم بعضًا بودٍّ كبير. رجالٌ عاطفيُّون يلقِّمون سيِّداتٍ حييَّاتٍ وريقاتٍ من الخسِّ تقطر صلصةً حمراء، لعلَّها صلصة التبولة. النساء الحييَّات متأنِّقاتٌ من دون مبالغة، يتحرَّكن بألفةٍ كأنَّهنَّ مقيمات عندنا ولسن زائرات.

هو بيتنا القديم لكنِّي لا أتعرَّف على أحد. لا أرى من هم هؤلاء الناس السعداء. لا أرى أمِّي ولا عمَّاتي، ولا أتعرَّف على أحدٍ من الرجال الذين برفقة النساء. النساء يُدلِّلنني ويُطعمنني أشياء طريَّة.

وبعض الرجال يحملني ويرفعني عاليًا، حتى تكاد رأسي تلمس شناشيل الثريا البلُّوريَّة، لكنِّي لا أخاف.

لا أرى وجوه الناس، لكنَّهم بالتأكيد ليسوا غرباء. ما أتعرَّف عليه تمامًا هو بيتنا القديم وبعض الأثاث، ورائحة العرق التي تلفُّ أنفي وتكاد تُسكرني بأبخرتها اللبنيَّة. وربَّما، في ذاكرتي الآَن، ما يكاد يُسكرني فعلًا آنذاك هو استلقائي مطمئنَّة على قطن الألفة من حولي، حيث لا يمكن أن يحصل لي أيُّ مكروهٍ وأنا بين هؤلاء الناس.

ربَّما كان ذلك قبل الحرب، الحروب. وبالتأكيد كان ذلك قبل أن أمرض مرض المسوخ الذي ضربني.

وإذ أنصتُ قليلًا أسمع صوت رجلٍ يغنِّي. صوتٌ خفيضٌ وجميلٌ وحنونٌ ويشبه قليلًا أصوات النساء. أسمعه لأنَّ الناس حول الطاولة تسكت عن الكلام لتفسح المجال لسماعه. أسمعه بمتعةٍ أكيدة. لا أفهم الكلمات، ولا أرى الوجه الذي تطرب له وجوه الحاضرين، وتدمع لسماعه بعض عيون النساء. لعلَّه صوت أبي.

ياه! لا بدَّ أنَّها كانت آَحادًا جميلة، بما أنَّ رائحة اليانسون تجعلني أبتسم لوحدي. لا يقلقني ألَّا أتعرَّف على هؤلاء اللطيفين الذين كانوا يحيطون بي، وأن تبقى ملامحهم بعيدةً في ذلك الماضي الذي مضى. فأنا كنت حتى الآَن أكتفي برائحة اليانسون، وبإضافته إلى خلطة الصفوف. لكنَّ بيكسل جزيئيَّات الصورة، كما الذرَّات المكوِّنة للرائحة، قد تتحرَّك على هواها من دون أن تضبطها أيَّة جاذبيَّة، وتستطيع ساعات النهار أن تقذفها بعيدًا، أن تشوطها كالكرة.

هكذا ألبّي النداء الغامض، فأنزل إلى الدكّان القريب لأشتري أوقيةً من حُبيبات اليانسون. أقرّر أن أغلي كؤوسًا عديدةً منه أرتشفها في المساء، فهو، إن كان يساعد الرضّع على التخلُّص من نوبات المغص وعلى النوم العميق، لا بدّ أنّه سيجلب لي نعاسًا جميلًا يجنِّبني الصراع مع الأرق في بداية الليل، فأروح ولو قليلًا أشبه الأطفال، ويسهل على خيالي الشعور بأنّ ذراعًا قويّةً تسندني، تلفُّني وتحملني إلى صدرها وأنا أستمتع برشفات السائل الدافئ.

من الممتع أن أجعل من نفسي طفلًا لي، أكون أمّه قليلًا، فلا أكتفي بزكيّة التي أجبرها على لعب دور الابنة وهي لا تصلح لذلك ولا تريده. وأنا لا أريد طفلًا حقيقيًا، طبعًا، إلى جانب كون ذلك مستحيلًا عليّ.

كلُّ ذلك ليس إلّا هلوسات. لكن ما المانع من اللجوء إلى الهلوسات حين لا تريد الحياة أن تلبّي الرغبات، ولا حتى تلك الصغيرة النافلة القليلة التكلفة؟ هلوساتٌ صغيرةٌ لطيفةٌ ولا تؤذي أحدًا.

ذهبت إلى الدكّان. اشتريت أوقية من اليانسون السوريّ الأصليّ، ذلك الذي كان يمتاز العرق اللبنانيُّ باستعماله في التقطير. وفي واجهة الدكّان رأيتُ قنينة ماء وردٍ فاخر، ولمتُ نفسي على عدم التفاتي إلى ماء الورد بدل السبيرتو الذي يحرق جلدي، وما زلتُ أنظّف به جسمي ووجهي. اشتريتُ أيضًا عدّة مظاريف صغيرة من المستكة التركيّة، وشامبو جديدًا لا يحتاج بعده الشعر المغسول إلى ملطّفٍ يسمُّونه بلسم. كنت سعيدةً جدًّا بمشترياتي. وفي طريق العودة ساعدني أحد الأولاد في لمِّ حبّات البرتقال التي انفرط كيسها، فعدتُ إلى صاحب

الدكَّان أطلب منه كيسًا كبيرًا يتَّسع لكلٍّ ما معي. وفيما كنت أنتظر وقع نظري على قنينة عرق، وحيدةً على رفٍّ مليءٍ بزجاجات البيرة. اشتريتُ قنينة العرق من أجل استرجاع تلك الرائحة القديمة.

امتزجتْ عطور مشترياتي ببعضها البعض، فتغيَّر مزاج الشقَّة تمامًا. وحين خلطتُ العرق بالماء في الكأس الصغيرة، لم أكتفِ بالرائحة القديمة. قلتُ سأجرِّب إضافة الذوق، أرتشف القليل وأرى...

فرحتُ كثيرًا حين وجدتُ أمَّ منصور على الفيسبوك.

كنتُ استعنتُ بصبيِّ الدكَّان ليتذكَّر معي اسم عائلتها. كتبناه بأحرفٍ لاتينيَّة، كلَّ مرَّةٍ بشكلٍ مختلف، حتى عثرنا أنا وأحمد على شخصٍ من أفراد تلك العائلة، كان قريبها وهو دلَّنا إليها. ليس عند أمِّ منصور كومبيوتر، فهي ما زالت تسكن في بيتٍ موقَّت، لكنَّها مثلي وجدتْ واحدًا تستعمله من وقتٍ إلى آخر.

في اتِّصالنا الأوَّل صرنا نبكي ونضحك غير مصدِّقتَيْن. لم نستطع، لا أنا ولا هي، تبادل الكلام فعلًا. لكنِّي فهمتُ منها أنَّها لا تحبُّ تلك البلاد التي أخذوها إليها. بلدٌ بارد، سمعتُها تقول، وتضيف أنَّها قلَّما تخرج لأنَّها سرعان ما تضيع ولا تعود تعرف أين هي.

في اللقاءات التي تلت صارت تثني على الناس هناك، الذين يساعدون الغرباء، وتأسف لأنَّهم يأكلون لحم الخنزير، بل يفضِّلونه على لحم الضأن. وأخبرتني بأنَّها أصبحت أقلَّ حزنًا لأنَّها تلتقي بأناسٍ من بلدتها. وأخبرتني أيضًا بأنَّها وجدت سوقًا بكاملها في منطقةٍ شعبيَّةٍ كبيرةٍ تشبه سوقنا ومنطقتنا، تجد فيها كلَّ ما تريده، تقريبًا كما عندنا، تأتي البضائع إليهم من سوريا وتركيا. ومرَّةً قالت بخجلٍ إنَّها تذهب

إلى مدرسةٍ لتتعلَّم اللغة الألمانيَّة، كالصغار قالت، فضحكنا كثيرًا، خاصَّةً حين راحت تتلفَّظ بكلماتٍ تتعلَّمها وتتلعثم في لفظها الغريب. وحين أخبرتُها عن اختراعي بإضافة اليانسون إلى الصفوف، سخرتْ منِّي بلطف، وقالت إنَّ كلَّ الناس تفعل ذلك، وإنِّي لم أخترع جديدًا، بل إنِّي على الأرجح تذكَّرتُ ذلك لأنِّي رأيتُه من قبل. ثم سألتني إن كنت أدهن صينيَّة الخبيز بالطحينة حتى لا تلتصق العجينة، فذكَّرتُها بأنَّ الطحينة مهمَّةٌ لصينيَّة النمُّورة لا الصفوف، فوافقتْ، وأنا فرحتُ بانتقامي الصغير.

نلتقي أنا وأمُّ منصور على الفيسبوك مرَّتَيْن في الشهر تقريبًا. نتواعد على الواتساب بعد أن حصلتْ على تلفونٍ محمول، لكنَّنا نفضِّل شاشة الكومبيوتر لأنَّ الصورة تكون أفضل وأكبر حجمًا، فأراها فعلًا كأنَّها أمامي. ثم أنا لا أحبُّ الاستئثار بتلفون أحمد لوقتٍ طويل، لأنَّه يحتاجه للشغل أيضًا.

تسألني أمُّ منصور دائمًا عن صحَّتي، التي تقول إنَّها تراها إلى تحسُّنٍ وفي أفضل حال. وتسأل أيضًا عن أحوال البناية والشارع وصبيِّ الدكَّان القريب الذي هو من أقربائها، وتوصيني به لأنَّه يتيم. وهي تسأل دائمًا عن أحوال القطَّة زكيَّة. ثم صارت تشجِّعني على السفر إلى هناك، إلى ألمانيا، لأنَّ المستشفيات عظيمة، والطبُّ متقدِّمٌ جدًّا، وقد أجد علاجًا جديدًا عندهم. بمقدوري أن أساعدك، صارت تقول، لأنِّي أصبحتُ أعرف كيف يتدبَّر المهاجرون أمورهم هنا، ولأنَّ العرب يحبُّون بعضهم في الغربة على اختلاف البلدان والملل. وتضيف أنِّي من السهل أن أجد هناك من يساعدني من الأطبَّاء، إلى جانب الجمعيَّات الكثيرة.

ثم تباعدتْ اتِّصالاتنا شيئًا فشيئًا، فحزنتُ قليلًا لانشغالها عنِّي. لكنِّي أقنعتُ نفسي بأنَّ أيَّام أمِّ منصور مليئةٌ بأمور حياتها الجديدة هناك، وهذا أمرٌ حسن. وهي بالتأكيد تتذكَّرني ولم تنسَني. وحين تخطر في بالي أفكِّر بأنِّي في اللحظة نفسها أخطر في بالها، لأنَّ القلوب تتحاكى، كما يقولون.

ولأنَّنا نجحنا أنا وأحمد في العثور على أمِّ منصور، على بُعد قارَّةٍ من المحلّ، خطر لي أن أسأل أحمد إن كنَّا نستطيع البحث عن نبيل، هو القريب جدًّا منَّا.

أفهمني أحمد أن لا علاقة للمسافة بالأمر. كنت أعرف ذلك، لكنْ لم تكن لديَّ أيَّة معلومةٍ مفيدة، بل ضروريَّةٍ للبحث عن نبيل، ولا حتى اسمه. ثم إنَّ أحمد لن يتحمَّس كثيرًا لأنَّه لم يعرف نبيل شخصيًّا ولم يلتقيا سابقًا. فنبيل لا يسكن في شارعنا، لا يتنزَّه فيه ولا يعاشر أحدًا أو يتردَّد على دكَّان، وأحمد لا يملك سيَّارةً ليذهب إلى الكاراج إن احتاج تصليحها فيتعرَّف هناك على نبيل. مالك الكاراج، معلِّم نبيل، هو الوحيد الذي يملك معلوماتٍ عنه، أقلَّه اسمه كاملًا. لكنَّ الرجل القبيح سيقول إنَّ الاسم مزيَّف، ويعود إلى نغمة الشهيد الجاسوس. أستطيع أن أسأله عن الاسم الذي كان ظاهرًا في الصورة الكبيرة التي ألصقها بأنفي، لكنِّي لن أفعل. تردَّدتُ كثيرًا لكنِّي لم أفعل.

دبَّ اليأس في قلبي، وشَكَيتُ حزني لأحمد، فصار يواسيني مردِّدًا أنَّ نبيل ربَّما ترك البلاد على عَجَلٍ فلم يودِّعني. ثم صار يكرِّر القول إنَّه سيظهر مجدَّدًا في يومٍ من الأيَّام، بشكلٍ من الأشكال، لا أحد يعرف كيف. وصار أحمد يستفيض بوابلٍ من الأمثال والحكم التي

تؤكِّد أنَّ الحقيقة تنكشف دائمًا، وأنَّ شمسها تطلع في نهاية الليل مهما أظلم، إلخ إلخ... قلتُ كلامًا لاذعًا لأحمد أسخر فيه من حكمته ومن شمس الحقيقة، ثم طويتُ الصفحة.

ضياع نبيل منِّي يغرقني في حزنٍ عميق. حسرةٌ لم أعرفها من قبل.

حزنٌ لا يتركني، مشوبٌ ببعض العتب، وحسرةٌ لا يتدبَّرها قلبي. كأنَّ أحمد تخلَّى عنِّي. تركني.

أصفن في هذا الغياب وأحتار حيرة العشَّاق المتروكين. تعتصر فؤادي الأغنيات العاطفيَّة فأبكي. أبكي مع أغاني الفراق وأغاني الملامة، ومع أغاني البُعاد وأغاني الوداع. أفضِّل أن أراه مسافرًا، أن أراه في المطار مع حقائبه وسط من هم من الشباب أمثاله، الذين يغادرون البلد حالما تلوح فرصةٌ مهما كانت. على عَجَل. لم يتسنَّ له الوقت، وأنا لا أملك تلفونًا ليتَّصل بي. فأقرِّر أن أتمنَّى له التوفيق والحظَّ الطيِّب، وأن يحبَّه الناس أينما حلَّ في أرض الربِّ الواسعة...

لكنَّ حسرتي عليه تستمرُّ ولا تذهب عنِّي.. بل هي تكبر مع الوقت كلَّما انتبهتُ إلى مرور المزيد من الأيَّام من دون خبرٍ منه. وفكرة مقتله، موته في ظروفٍ قاهرة، في بلادٍ أخرى، تمرُّ أحيانًا في رأسي، ولا أنجح دائمًا في استبعادها. أعود فأرى بقع الألوان في الصورة الكبيرة، صورة رجلٍ لا أعرفه ولا أعرف اسمه. أُعمِلُ عقلي فأقول إنَّ ذلك قد يكون ممكنًا، نظرًا لكثرة الشباب الذين يقاتلون ويعودون بالأكفان ويصبحون صورًا كبيرةً تُلصق على الجدران. قد يكون هذا ما حصل، لكنَّ نبيل لا يكذب. وقد يكون الاسم على الصورة هو اسم الشهادة، الاسم الحركيّ، ذلك الذي يتَّخذونه حين يصبحون مقاتلين. لكن يبقى

أنَّ اسمه الحقيقيّ، الذي أعطاه إيَّاه أهله، الذي كانت أمُّه تناديه به، وأولاد أخيه، وأنا، يبقى نبيل. وهو لم يكذب.

فكرة احتمال مقتل نبيل في المعارك لا تخفِّف من حزني، بل تزيده حتى يصبح لا يُطاق، إذ تحملني على تخيُّل مشاهد جنازته التي لا بدَّ تشبه ما كنَّا رأيناه كثيرًا وتكرارًا. كم يشقيني أن أراه هكذا، حيث لا أحد يبكي الشهيد. ممنوع. فعلى الناس أن تهنِّئ أهله وتوزِّع الحلويات. وأنا، لو كنت هناك، لما احتمل قلبي ذلك العرس الإجباريَّ ولصرختُ بالعويل، وخبَّطتُ بقبضتَيَّ على رأسي ووجهي، ولكانوا طردوني. حصل ذلك مع أمِّي. أخبرتني كيف طردوها من باحة الكنيسة حين راحت تولول فوق تابوت ابن عمَّتي الكبرى الذي قُتِلَ في الشمال، فيما كانوا ينثرون الزهور والأرزَّ على التابوت الأبيض، ويرقصون بالجثَّة ويطلقون أغاني الأعراس من مكبِّرات الصوت. قالت أمِّي إنَّ عمَّتي بقيتْ كالتمثال، خرساء، رأسها جامدٌ لا يشتغل وعيناها فارغتان، حتى تركوا البلد.

يشقيني كثيرًا غياب نبيل مهما كانت أسبابه، وهو غيابٌ لا يشبه غياب من أخرجتهم الأيَّام من حياتي. كنت أعرف قبل أن أتركهم أو يتركوني، سواء أكان ذلك الانقطاع مع وداعٍ أو بدونه، وسواء أكان الفراق هربًا أو موتًا، كنت أعرف. لا ضرورة لرفع الأيدي والتلويح بالمحارم البيضاء. لا ضرورة للدموع على مفترقات الطرق أو تبادل العناوين وأرقام الهواتف. لكنَّ نبيل انخطف من أمام عينَيَّ لا أعرف إلى أين ولا كيف، ولا حتى من هو ذلك الذي غاب. ليس حزنًا فقط، بل الكثير من المرارة.

يشبه غياب نبيل الاختفاء. لا تدري أين تضع من اختفى وفي أيِّ خانة. هل هو اختفاءٌ أم إخفاءٌ أصلًا؟

إنَّه موتٌ غير الموت، لأنَّه لا يُحتَمَل. فقط تفتح عينَيْكَ ولا تجده. تنده فلا يجيب. كأنَّه وقع فجأةً في حفرة، في هوَّة، وكانت الطريق سهلةً آَمنة. للموت أغراضٌ كثيرةٌ نراها ونلمسها كي نصدِّق، إلَّا الموت اختفاءً فهو فضيحةٌ خالصة، يزيد من فداحتها أناسٌ يأتون من أماكن كثيرة، أناسٌ لا تعرفهم، يتوافدون ليرووا حكاياتٍ تشرح وتفسِّر، وثرثرةً كثيرةً تحاول ربط النتيجة بالعلَّة، بعلَّةٍ ما. وتطول الحكايات وتصير كالمسلسلات المدبلجة، كلَّما طالت مدَّة الحلقات وكَثُر عددُها وتشعَّبت أحداثها، ازداد فشلها وتعفَّنت الحكاية.

لا شيء ينفعني. أبكي مع الأغاني العاطفيَّة كأنِّي كنت مغرمةً بنبيل، أو كأنِّي كنت أمَّه التي هربتْ من المأتم العرس لتبكي على هواها وتسمع الأغاني الحزينة.

هل اختفى أبي مثلما اختفى نبيل؟ لا أذكر أنَّ أمِّي بكته يومًا.

تقترب زكيَّة. تقفز إلى الكنبة. ترفع ساقها الأماميَّة وتضعها على يدي أو على فخذي. صارت تفعل ذلك كثيرًا كلَّما رأتني جالسةً على الكنبة لوقتٍ طويل، غارقةً في دموعي.

وسريعًا أقلعتُ عن البحث عن رشيد. كان أحمد يرافقني في العودة ليلًا إلى بيتي. وذات ليلة، وقبل أن يتركني عند مدخل البناية، قلتُ له إنِّي لا أو لم أعُد أريد البحث عن رشيد. لكنَّ أحمد لم يقتنع. قال نرى ذلك غدًا.

على الماضي أن يمضي، قلتُ لأحمد. لا أريد أن أبقى عالقةً في هذا الليمبوس. أنا معوَّقةٌ في جسمي، ولا أريد مزيدًا من الإعاقات. الماضي حين يُقِيم هكذا يصبح إعاقةً في الرأس يا أحمد، فكيف إذا رحنا نحن نُقلِّبه ونحفر فيه وننبش قبوره؟

قلتُ لأحمد إنَّه يبدو أحيانًا أكثر إصرارًا منِّي في البحث عمَّا لم أعُد أريده أن يعود من ماضيّ. قلتُ له أنتَ تتسلَّى يا أحمد. أنت تجعل من قصَّتي لعبة، أحجيَّةً تريد أن تحلَّها، فلا تسمعني ولا تردُّ عليّ، وإنَّ ذلك أصبح يُغضبني، ولا أفهمه. أقول لكَ إنِّي لم أعُد أريد البحث عن رشيد فتتجاهل، أسدُّ بابًا فتفتح آخر. و... دائمًا تلجأ إلى الأمثال الشعبيَّة والحكم الفلسفيَّة التافهة، من نوع أنَّنا يجب أن نواجه الماضي لكي نتخلَّص منه ونطوي الصفحة. ما هذه الترَّهات أحمد؟ أيُّ حكيمٍ من حكماء بلدكَ أفتى بهذه التحف؟ ما هذا الولع بما تسمِّيه «طيَّ الصفحة»، فيما أنتَ لا تريد لي أن أطويها؟ غريبٌ واللّـه. حلَّ عنِّي أحمد. فتِّش لكَ عن تسليةٍ غيري.

ظلَّ أحمد يبتسم وينظر إليّ. ثم حمل لي فنجانًا من الشاي من إبريق المحلّ، وهو يعرف أنِّي لا أشرب من إبريق المحلّ. بدا وكأنَّه أُسقِط في يده. لم أشعر بالندم على قسوة كلامي.

رحتُ أنظر إلى الباب وأتهيَّأ للخروج والعودة إلى بيتي، لكنِّي تردَّدت. فكَّرتُ بأنِّي إن أنا خرجتُ الآن فسأطوي صفحة صداقتي مع أحمد، ولم أكن أريد ذلك. كنت أتمنَّى أن يغضب أحمد، وأن نتعارك ولو قليلًا حتى أتمكَّن من إلقاء بعض اللائمة عليه. أن يغضب فيقول كلامًا أحاسبه عليه وأزعل. أن يكون طرفًا في غضب الكلام، فيندم ويرجع إليَّ فيعتذر. أمَّا إن خرجتُ من المحلِّ الآن فسيكون خطأي وحدي، ونهاية صداقتنا، وسأندم.

حين تأكَّد أحمد من أنِّي باقيةٌ على كرسيَّ ولن أخرج، تركني وابتعد قليلًا. وحين خفَّت الحركة في المحلِّ عاد إليَّ وعلى وجهه الابتسامة نفسها. قال إنَّه يريدني أن أتذوَّق طبق الكاري بالعدس الذي حمله معه، لكن عليَّ أن أنتظر قليلًا حتى يُنظِّف أوراق البصل الأخضر التي سيفرمها على وجه العدس. وأيضًا يجب أن يقوم بتسخين الخبز لكي نتلذَّذ بالأكل. وحين أشحتُ بوجهي قال إنَّ مفتاح الشهيَّة لقمة، فصحتُ في وجهه بأنِّي شبعتُ من حِكمه.

حين خلا المحلُّ أحضر أحمد العشاء فأكلنا. خطر لي أن أعتذر، لكنِّي لم أفعل. استعضتُ بمديحي لطبق العدس بالكاري، ورحت أستفيض في الكلام عن ميلي الجديد لأن أصبح نباتيَّةً وأتوقَّف عن أكل اللحوم. قال أحمد إنَّ ذلك حسنٌ جدًّا، لكنَّه أضاف: ويا ليتك تتوقَّفين عن شرب العرق.

شرب العرق.

طبعًا عرف أحمد أنِّي أشرب العرق في البيت لوحدي، وأنِّي أسكر. قنينة العرق الأولى التي جرَّتني إليها رائحة اليانسون وذكريات

الآحاد في بيتنا القديم، تلتها قنينةٌ أخرى. لم أكن أريد العودة إلى نبش تلك الذكريات الهانئة. كنت فقط أريد أن أنام، نومًا لذيذًا يأتي قبل النوم، ويخلو من الكوابيس، وأيضًا من أوجاع العظام. نومٌ لا أستفيق منه عدَّة مرَّاتٍ في الليلة الواحدة، ولا تعقبه صحواتٌ مريرة. نومٌ عميقٌ ليس فيه سوى مادَّة النوم الخالصة.

مع القنينة الثالثة صارت الجرعات أكبر، واستبدلتُ الكأس الصغيرة بكبَّايةٍ متوسِّطة الحجم، ثم بواحدةٍ كبيرة. فرحي باكتشاف شرب العرق وحسناته الكثيرة بدأ يخفت بدءًا من لحظة استيقاظي. أصحو حوالى الظهر. وحالما أفتح عينَيَّ يصعقني ضوء النهار بصداعٍ يستمرُّ لساعاتٍ ويعطِّل نهاري. لم أكن أجد ضيْرًا في ذلك، فأنا ليس لي واجباتٌ أو انشغالاتٌ محدَّدة، وفراغ نهاري أجده نعمة، إذ يعفيني من التفكير المتعب ومن التخطيط. يكفيني أن أطعم زكيَّة وأعود إلى خدر سريري الدافئ. متعة امرأةٍ فارغةٍ ترتع في عالمٍ فارغ.

ثم يصبح كلّ ما يستدعيني للخروج من البيت صعب المنال. النزول إلى الدكَّان لشراء حاجياتي الأساسيَّة، أو الذهاب إلى محلِّ الكومبيوتر. لكنَّ الصعوبة الحقيقيَّة صارت في نسياني ساعات تقنين الكهرباء، وبالتالي تعبئة أواني المطبخ والحمَّام بالماء حين يرفعها موتور البناية. لم أعد أتذكَّر مطلقًا أوقات تشغيل المصعد، كما أنِّي لم أعُد أسمع جيِّدًا. فحين يطرق بابي مُحصِّل القسط الشهريِّ لاشتراك البناية أكون نائمةً أو شاردة الذهن، فلا أفتح.

هكذا أصبحتُ بلا ماء. ليس في الشقَّة قطرةٌ واحدة، لا للشرب ولا للاغتسال ولا للمرحاض. حتى شُجيرة التين على البلكون نسيتُ

أن أرويها، أو أن أتفقَّدها. وحين رأيتُ مرَّةً أنَّ قنينة العرق فرغتْ تمامًا، قرَّرتُ أن أنزل إلى الدكَّان لشراء واحدة، وأن أمرَّ بمُحصِّل الاشتراك الشهريِّ أدفع ما يتوجَّب عليّ، أو أسأله على الأقلِّ إن كان قطع الماء والكهرباء عن شقَّتي، فوقعت.

وقعت. سقطتُ أرضًا من طولي. لم أكن سكرانة. كنت صاحيةً تمامًا، لكنَّ وَهَنًا مفاجئًا في ساقَيَّ أوقعني أرضًا. فكَّرتُ بأنَّه خدرٌ عابرٌ سيذهب عنِّي، وأنَّ سببه مكوثي أوقاتًا طويلةً بلا حركة، لكنِّي لم أستطع الوقوف مجدَّدًا. وكلَّما حاولتُ داهمتني أوجاعٌ قويَّةٌ في كامل جسمي. لم أستطع حتى البحث عن دَهون النمر. أعتقد أنِّي بقيتُ هكذا على أرض الصالون ساعات، ممدَّدةً على سجَّادة أمِّ منصور الحمراء الصغيرة، وأعتقد أنِّي غفوت، إذ لم أنتبه إلى خُفوت ضوء النهار ودخول العتمة.

كنت حزينةً جدًّا لاضطراري للتوقُّف عن شرب العرق والسُّكر. خفت إن أنا وقعتُ ثانيةً ألَّا ينتبه إليَّ أحد، أن أموت في مكاني، وأيضًا لأنَّ أوجاع جسمي عادت إليَّ مضاعفة. لم أكن لولا ذلك أريد التوقُّف عن شرب العرق. غيابي عن الشارع بدكاكينه كان طويلًا، إذ أخذ من ألتقيه يسألني بتحبُّبٍ عن سبب الغيبة الطويلة، كأنِّي كنت في رحلة استجمام. الدكَّان القريب حيث كنت أشتري قناني العرق قال لي، من دون أن أسأل، إنَّ العرق كلَّه مغشوشٌ في البلد، ليس فيه حبَّة عنبٍ واحدة، وإنَّه يؤدِّي إلى العمى كما تبيَّن من حالاتٍ عديدة، وهو لم يعُد يبيعه، ثم قال إنَّ الويسكي مغشوشٌ أيضًا، وهو سيعتمد مستقبلًا على الفودكا لكنَّه ينتظر مفاعيلها على الشرِّيبة قبل وضعها على رفوفه، لأنَّه صاحب ضميرٍ ولا يريد الأذيَّة لأحد.

لا أدري كيف عرف أحمد سبب غيابي عن المحلّ. ربَّما كان يشمُّ رائحة الكحول في فمي حين كنت ما زلت أتردَّد على المحلِّ في الأيَّام الأولى لشربي العرق، أو إنِّي كنت أتطوَّح وأسير بعرجٍ إضافيّ، أو أهلوس قليلًا بلسانٍ معوجّ، ويحتدُّ مزاجي عند أتفه سبب.

الحقيقة أنِّي لا أتذكَّر.

والحقيقة أنِّي أخذتُ وعداً على نفسي بالاعتدال في الشرب، حفاظًا على حبِّي للحياة الذي ينبغي أن أقرَّ وأعترف به لنفسي. إذ في النهاية، ما الذي أنقذني سوى ذلك الحبُّ الجارف؟...

وبانتظار أن نرى، صاحب الدكَّان القريب وأنا، مفاعيل الفودكا على الشرِّيبة الآخرين...

صحّ، معكَ حقّ، قلتُ لأحمد حين اقترح أن نبحث عن كلا الاسمَيْن، فرانسوا ورشيد.

الحقيقة أنّي قبلتُ على مضض. قلتُ في نفسي إنّنا سنتسلّى حتى يصل أحمد، الشغوف بالفيسبوك وعجائبه، إلى اليأس.

كنتُ حذّرتُه مرارًا من صعوبة المهمّة، فأنا لم أعُد متأكّدةً من اسم عائلة الرجل، إلى جانب جهلي لما قد يكون اعتمده في حياته الإلكترونيَّة من اسمٍ أوّل، رشيد أو فرانسوا. هذا إن كانت له حياةٌ إلكترونيَّة.

يعتقد أحمد أنّي أكذب عليه بقولي إنّي لا أتذكّر اسم عائلة رشيد - فرانسوا. يشكُّ في أنّي لم أنظر يومًا في أوراقه الثبوتيَّة، رغم عشرتنا الطويلة، نسبيًّا. يعتقد أنّي أخاف من عودة ذلك الغرام العاصف الذي هربتُ منه. هربتُ من عشقٍ قاتلٍ مع ذكرياتٍ أليمة، ولم أطوِ الصفحة كما ينبغي. هذا ما يقوله أحمد لنفسه. وهو يعتقد أنّه يتوجّب عليَّ أن أواجه هذه الحقيقة لأنسى ذلك الحبّ، ومرّةً أخرى كي «أطوي الصفحة». لا يصدّق أحمد أنّي لم أهرب من الرجل، ربّما لأنّي لا أخبره القصّة كاملة. يريد أحمد أن يشفيني من مرضٍ ليس فيّ. هكذا هم الرومنسيُّون.

حين يعصف برأسي الضجر من إصرار أحمد، ومن قضاء الساعات على الكرسيِّ نبحث عمَّا لن نجده، أحاول مرَّةً أخرى، فأقول إنَّ المخلوق المطلوب يعيش في الشارع، ليس له عنوانٌ ثابت، لا على الفيسبوك ولا علىٰ غيره. وهو بالتأكيد لا يحمل كومبيوتر يدور به في الأزقَّة. وبما أنَّنا لم نجد موقعًا على الإنترنت للمطاعم والمقاهي التي كنَّا أنا وهو نتردَّد عليها، فالأجدر أن نجد لنا لعبةً مسلِّيةً أو فيلمًا هزليًّا نروِّح به عن أنفسنا.

لا يصدِّقني أحمد. يروح يشرح لي أنَّ البحث عن الأشخاص لا يقتصر على الفيسبوك. فهناك السجلَّات الرسميَّة، وهناك أرشيف الصحف، ووسائل أخرى كثيرة... ينفد صبري، فأقف وأودِّعه متمنيَّةً له كلَّ التوفيق. غود لاك أند غود باي أحمد، وأعود لوحدي إلى البيت. لا أريد أن يرافقني إلى مدخل البناية.

في البيت، أروح أتساءل حول سبب نسياني رشيد، أو إصراري على عدم البحث عنه. لماذا لا أتسلَّى؟ بل لماذا أتوتَّر من محاولات أحمد؟ ما الذي يُغضبني بما أنِّي نسيتُه؟ وهو بعيد، ولا سطوة له عليّ، وأنا لا أخاف منه. ثم أفكِّر بأنَّ ذاكرتي تهرب منه، ربَّما من ذكرى الأيَّام الشقيَّة الأخيرة التي عشتُها معه. لكن، لماذا لم يترك فيَّ حبُّ رشيد حزنًا بعد فراقٍ كما يحصل للأحبَّة، أو حنينًا لذكرى الأيَّام الجميلة التي عشتها معه، وهي ربَّما الأيَّام الجميلة الوحيدة في حياتي كلِّها؟ أتذكَّره كثيرًا في تفاصيل تافهةٍ لا علاقة لها بالحبّ، كأن أقول إنَّ السُّكَّر لا يضاف إلى القهوة إلَّا بعد أن نُنزلها عن الموقد. أتذكَّر ذلك كلَّ صباح، لأنَّ رشيد قال يومًا إنَّ هذا ما ينبغي فعله عند إعداد القهوة. جملةٌ خاطفةٌ تعود آليًّا، وهي بلا معنى، مثل تلك الأغاني التي نكرهها ولا نقدر على إيقافها حين تصير تتردَّد عنوةً في رؤوسنا.

رشيد لم يؤذِني. رشيد الرجل الوحيد الذي أحبَّني وأحببته. الوحيد الذي جرَّني من الشارع إلى قلبه، والذي أحبَّ بشاعتي ودلَّل جسمي وقبَّل ما يؤذي عيون الآخرين بمجرَّد النظر إليه. كيف لا أشعر بحرقة خسارته؟ كيف أكون على هذه الدرجة من التخلِّي والإنكار؟ ذلك الذي شبَّهه رشيد بصياح الديك حين تركته قبلي المرأة الجميلة التي أحبَّها وتكلَّم عنها مرَّةً واحدة. لا بدَّ أنَّه الآن، حين يتذكَّرني، يشعر بمرارةٍ مضاعفة.

يشعر بمرارةٍ مضاعفة. سيفكِّر بأنَّ المسخ، حتى المسخ لم يرضَ به وتركه. ولأنِّي، حين غادرتُ البيت، الغرفة، كان في نومه الأشبه بفقدان الوعي ولم يرَني أغادر، وأنا لم أفكِّر مرَّةً في لحظة صحوه المريرة بعد هربي، حين سيرى أنِّي أنا أيضًا تركتُه بعدما تركتْه تلك المرأة الجميلة. غريبٌ ألَّا أشعر بالندم! غريبٌ ألَّا أشعر بالذنب! فأنا من جرَّ رشيد إلى تلك الحياة الضحلة في مستنقع البناية الأشبه بسفينةٍ جانحة. من أجلي، ولأنِّي مريضة، قرَّر أن يكون فوق رأسي سقف. ذلك السقف الذي انزلق عليه إلى بئر مدخل البناية.

لكنِّي لا أندم. رغم الحزن المرير الكبير، بل حتى غير المحتمل الذي تركه اختفاء نبيل من حياتي، لا أشعر بالذنب لاختفائي أنا نفسي من حياة رشيد. لا أكفُّ عن لوم نبيل، فيما أسامح نفسي وأمحو خطايا ارتكبتُها وهي أشدُّ هولًا. وأسامح نفسي كثيرًا ومرارًا، لأن لا عدالة على هذه الأرض.

هكذا.

لكن، ربَّما، ربَّما ما كان ينبغي أن أدفع رشيد إلى إيقاظ الطفل الذي كان نائمًا في بلاده البعيدة، حيث كان يرى أشجارًا خضراء

يلاطف أغصانها الوارفة نسيمٌ عليل، وحيث كان يرى سطحًا عليه امرأةٌ تتحرَّك في الشمس، تُذرِّي حبوبًا وتُجفِّف ثمارًا قطفتْها لتوِّها. امرأةٌ تنده عليه قبل الليل لتغسل قدمَيْه وتُقرِّب من فمه صحن الحساء الساخن... ثم، بسببي، صار رشيد يرى ذلك الطفل، وتلك المرأة على السطح، وصار يُخيَّل إليه أنَّ بمقدوره أن يتذكَّرهما، أن ينقلهما إلى زمنٍ لا يملكه بالمرَّة، لا يملك منه شيئًا. وربَّما ألبسني أنا ظِلَّ تلك المرأة، فتهيَّأ له أنِّي هي، في لحظات الغشِّ والتخلِّي، وحين أُقرِّبُ من فمه صحن الحساء الساخن.

في الخسارات تصير الذاكرة قصاصًا، وأنا أتخيَّل خسارات رشيد الكثيرة.

لأنَّ رشيد تورَّط وفات الأوان، ستظلُّ صور البيت البعيد والمرأة التي على سطحه تروح وترجع، لا ينفع النسيان لمحوها ولا التذكُّر لاسترجاعها. فما فقده ترك أشباحًا، مثل ما تركتْ فيه ذراعه المقطوعة التي لم يقرَّ أبدًا بفقدها، ولا بالألم الذي كان يضربها فجأةً حتى أطراف الأصابع. الذراع غير الموجودة إلَّا بألمها، بشبحها.

ما كان ينبغي أن نجرِّب تمثيليَّة البيت. فالبيوت مصائد، فخاخٌ خطيرةٌ وغشَّاشة، ومن عتبتها يبدأ دوران ماكينة الأوهام.

رغم ذلك، رغم ذلك كلِّه، لا أشعر بالندم.

أعتقد أنَّ تركي رشيد وانفصالي عنه نهائيًّا، وربَّما نسيانه بالكامل، حصل في الطائرة، في طريق عودتي إلى بيت أمِّي.

كنت تبيَّنتُ تمامًا أنِّي فقدتُ لغة البلاد الأخرى إلى غير رجعة، وهي تفكَّكت في رأسي وتهشَّمت. وقعتِ الفرنسيَّة وتشظَّت إلى مليون

قطعةٍ يستحيل جمعها من جديد، وأصبحت غبارًا كذلك الذي أشاهده عن غبار المجرَّات في محلِّ الكومبيوتر. لكنِّي، في الطائرة، كنت ما أزال خائفةً من أن أندم على عودتي إلى البلاد. أقول إنَّه لا ضمان ضدَّ الندم لأنَّه كالشيطان، بطلٌ خارق، لصٌّ جبَّار، فائق القوَّة والحيلة، إلَّا حين رأيتُ المدينة من فوق. من زجاج قُمرة الطائرة رأيتُ المطار، صغيرًا ومكركبًا ومطفوشًا بين صخور البحر ورمال البيوت الكثيرة القريبة، التي تشبه الأكواخ المرصوصة المصنوعة من الكرتون المقوَّى، بلون الكرتون المقوَّى، ذلك الذي تُرمى صناديقه المبقورة أمام المخازن قبل فكِّها وتجميعها في مستوعبات النفايات. وفيما كانت الطائرة تقترب من المدارج التي تشبه طرق البغال، تأكَّد لي أنَّ بلادي هذه تلائمني، وأنِّي قطعًا لن أندم.

وأنِّي سأبقى هنا حتى آخر أيَّامي.

هكذا قبل أن تحطَّ الطائرة، وقبل أن نتَّجه إلى بابها، كنت قد نسيتُ رشيد. بل إنِّي كنت قد قرَّرتُ أنَّه لا بدَّ قد مات.

قبل أن ترسلني عمَّتي الصغرى إلى أختها، التي لم أرَ لها وجهًا أو أسمع منها خبرًا، بل ربَّما قبل ذلك بكثير، لم تكن الناس تتكلَّم في هذه البلاد عن عاهاتٍ أو أمراضٍ أو أعطالٍ أو أنواعٍ من الخلل. لم تكن تلصق بكلٍّ هذا صفة «النفسيَّة». حتى الهلوسة والجنون على اختلاف أشكاله لم يكن «نفسيًّا». أفكِّر أحيانًا بأنَّ ارتباكات ذاكرتي تجاه كلِّ ما جرى لي، والفوضى التي تعصف برأسي ولا أستطيع ضبطها، ربَّما هي اعتلالٌ في نفسيَّتي تلك، وأنَّ عندنا الآن أطبَّاء كُثُر متخصِّصون في النفسيَّات، وعندنا صيدليَّاتٌ تبيع الأدوية التي تحسِّن النفسيَّة أو تعالجها من دون حاجةٍ إلى وصفة طبيب. فالناس يشترونها كما يشترون الخضار، مثلًا، ويتبادلون النصيحة بحسب ما يشعرون به من أمورٍ تضايقهم وتُربِك الحياة. أو هم يستشيرون الصيدليّ، أو الصبيَّ البيَّاع في الصيدليَّة، ويجرِّبون. ولِمَ لا؟ لِمَ لا؟ لِمَ لا أفكِّر بدواءٍ لنفسيَّتي يعيد ترتيب الأمور، ويَعِدُني بسعادةٍ ولو نسبيَّةٍ تأتي من الكيمياء؟ السعادة هدف المجانين لما فيها من مبالغة، وأنا تكفيني بعض لحظات الطمأنينة والهدوء الداخليّ، من النوع الذي يتحدَّث عنه البوذيُّون، مثلًا. فما تحقِّقه الكيمياء من نتائج علميَّةٍ فذَّةٍ بات لا

يُستهان به، والأدوية النفسيَّة غير محظورةٍ كالمخدِّرات، وهي متوفِّرةٌ بأسعارٍ معقولةٍ جدًّا.

أعتقد أنَّ تناول الأدوية النفسيَّة بات حلًّا ممكنًا وجدِّيًّا، لكنِّي لم أذهب إلى الصيدليَّة. تردَّدتُ بسبب خوفي من أن تضرَّ تلك الأدوية بوضعي الصحِّيِّ المتدهور، أن أُحسِّن نفسيَّتي وينهار ما تبقَّى من حُسن سير العمل في أعضاء جسمي المريض.

لذا قلتُ لأحمد: نعم أريد. فالخبريَّة، الخبر، لم يكن موثوقًا بالمرَّة، لكنَّه قال إنَّ علينا أن نبدأ من مكانٍ ما، «إن كنتِ تريدين بالفعل أن تعرفي شيئًا عن أبيك».

قلت «نعم أريد»، وأنا لم أتمعَّن في كلمة «بالفعل»، بسبب ارتباك عقلي وقلَّة سيطرتي على ما يمرُّ فيه ويخرج منه من دون تفكيرٍ منطقيّ، في ما يسبقني أنا نفسي من كلامي. لم أتمعَّن.

أو إنِّي قلتُ نعم لأحمد لأنِّي كنتُ متأكِّدةً من أنَّنا لن نجد شيئًا. هكذا، بخفَّة من يتسلَّى بفكِّ أحجيةٍ في مجلَّةٍ قديمةٍ وهو ينتظر موعدًا عند الطبيب، تاركةً لنفسي حريَّة التوقُّف عن اللعب لأيِّ سببٍ كان...

ليس لديْنا أنا وأحمد سوى اسم أبي الكامل، واسم قريته التي لا أعرف عنها شيئًا. ما أعرفه هو أنَّها قريةٌ صغيرةٌ لم يسمع أحدٌ بوجودها، وهي على الأرجح نجعٌ أو تلَّةٌ لا يعرفها إلَّا أهلها، وربَّما تكون أصبحت غير مأهولة، خرابةً أو شيئًا من هذا القبيل... رغم ذلك يتابع أحمد النقر على لوحة المفاتيح. علامَ أمنعه من المضيِّ في الاعتقاد بأنَّ شاشته

سحريَّةٌ فعلًا، وأنَّه، من هنا، من هذا الدكَّان البائس، حيث يلعب الأولاد المتبطِّلون، سوف يتمكَّن من أبواب الزمان والمكان؟

لا يسمع أحمد حين أقول له إنَّه لم يتبقَّ أحدٌ أسأله عن أبي. لا أمِّي ولا عمَّاتي، ولا أيَّ أحدٍ من عائلته التي ربَّما كان يزورنا بعض رجالها أو نسائها، لكنِّي لا أتذكَّر أحدًا منهم. وإنِّي لا أعرف منذ متى اختفى أبي أو كم كان عمري آنذاك. يهزُّ أحمد رأسه موافقًا، لكن من دون اهتمامٍ حقيقيّ، كأنِّي أحدِّثه في أحوال الطقس.

ثم ننسى الموضوع، ونعود إلى اكتشافاتنا وألعابنا ووصفات الطبيخ. ويعود إليَّ بين حينٍ وآخر ذلك القلق الخفيف من أن يسافر أحمد. وكلَّما قلَّ عدد زبائن المحلّ، الذين باتوا يعتمدون على هواتفهم النقَّالة أكثر من أجهزة الكومبيوتر، ساورتني الشكوك. لكنَّ أحمد اقترح عليَّ ذات يومٍ أن يهديني هاتفًا، بالمجَّان. قال إنَّه هاتفٌ مستعملٌ وموديلٌ قديمٌ لن يشتريه أحد. ثم فهمتُ أنَّ أحمد صار يصلح الهواتف. يحمل المعطَّل منها إلى غرفته، ويُعيدها إلى صاحبها في اليوم التالي كأنَّها جديدة، فاطمأنَّيْتُ إلى عدم سفره وفرحت، ولو أنَّ بقاءه في المحلِّ ليلًا صار نادرًا.

وكانت الحياة تسير كنهرٍ هادئٍ حين راح أحمد، ذات صبيحة، يُفصِّل في الخبريَّة، الخبر، الذي حمله إليّ.

في البداية أعطاني اسم المطران وعنوان أبرشيَّته، ثم رقم الهاتف لأخذ موعد. كنت أستمع بتركيزٍ لأنَّ وجه أحمد كان في غاية الجدِّيَّة. كنت أستمع من دون أن أفهم، فأنا كلَّما قلَّ فهمي ازدادت أشكال

التركيز على وجهي، احترامًا لمحدِّثي. ثم قال أحمد بعد أن جلس بقربي إنَّ اسم أبي واسم قريته موجودان لدى هذا المطران، إلى جانب تفاصيل قد تكون مهمَّة. ثم راح ينظر في عينَيَّ بتمعُّن. فكِّري في الأمر وخُذي الوقت اللازم. يبقى بإمكانك نسيان القصَّة برمَّتها، قال. ثم سحب من طابعة المحلِّ مجموعةً من الأوراق هي صورٌ منقولةٌ من أرشيف جريدة، أو جرائد. أعطاني إيَّاها: هذا هو الخبر. قد يكون هناك تشابهٌ في الأسماء، لكن إن أردتِ نستطيع أن نتحقَّق. إذ ذاك عليكِ أن تقابلي هذا المطران.

قرأتُ بعض العناوين. طويتُ الأوراق ودسستُها في جيبي.

بقيتُ أيَّامًا في ذهولٍ شديد. أركِّز ولا أفهم. وكلَّما أكثرتُ من التركيز قلَّ فهمي.

بقيتُ أيَّامًا في البيت لا أنزل إلى محلِّ أحمد.

بقيتُ أيَّامًا، لا أدري كم كان عدد تلك الأيَّام، لا أقرب المعطف الذي دسستُ الأوراق في جيبه. أنزلتُه عن المشجب ورميتُه في قاع الخزانة. أقرَّيتُ لنفسي بأنَّ التمرين صعبٌ للغاية، لكنِّي سأنجح في نسيان أبي، في العودة إلى نسيانه، إلى محوه مع كلِّ ما يمتُّ إليه بِصِلة، إن أنا عقدتُ النيَّة الصافية على ذلك. فكرَّستُ الوقت اللازم، الضروريّ، لترتيب أغراض النسيان في مواضعها، أو إعادة محوها، أو رميها في الأكياس السوداء الكبيرة.

بدأتُ بالأسئلة السهلة: هل أنا بحاجةٍ إلى معرفة قصَّة أبي؟ قطعًا لا. هل أنا بحاجةٍ للقائه أو رؤيته أو استرجاع شيءٍ يشبه ذكرياتي عنه؟ أنا

لا أعرف ذلك الرجل، فكيف لي أن أشتاق إلى ما لا أعرفه؟ ماذا تعني الذكريات إن كانت طَرَقات القلب قد وقعتْ خارج مكان الاختصاص، وخارج الوقت، في هوَّة فراغٍ سحيق؟ أنا لست في حاجةٍ لمجهودٍ أقوم به لوضع أبي في مكانٍ هو فيه دومًا...

لقد استوت أيَّامي على ما صرتُ فيه بعد مكابداتٍ وعذاب، عذابٍ يزداد باضطرادٍ بفعل المرض وما يفعله في جسمي. وأنا مقتنعةٌ بما أنا فيه، ولا أريد تغيير أيِّ شيءٍ في حياتي. أتمنَّى، بل أحلم، أن يذهب خطُّ النهاية المستقيم إلى آخره بسلام، من دون خضَّاتٍ أو مفاجئاتٍ أو عناصر دخيلة. لقد ساعدني غيابُ من عرفت، أو موتهم، في ترتيب حُجرة الحدود الأخيرة بشيءٍ من الطمأنينة. ليست تلك السكينة هبةً لناسٍ كثيرين، وأستطيع الادِّعاء بأنِّي محظوظة، بأنِّي، بشكلٍ من الأشكال، امرأةٌ مختارةٌ ومبارَكَةٌ من السماء، من سماءٍ ما فهي سبع سماوات. ولعلَّها دعوات أمِّي، فدعوات الأمَّهات مستجابةٌ دائمًا، حتى الأمَّهات اللواتي يشبهن أمِّي...

علامَ أحرِّك مرجل الساحرات؟

أنظر حولي. زكيَّة نائمة والشقَّة مرتَّبة، وأوجاعي مدجَّنةٌ إلى حدٍّ كبير، وهي ما زالت تسمح لي بالنزول إلى الشارع من يومٍ لآخر لشراء حاجياتي، أو حتى الذهاب إلى حافَّة النهر. وما زلتُ أستطيع الاستحمام، سواء أكان بالماء أو بماءٍ ممزوجٍ بالماورد. وأسناني تتساقط على مهل، بوتيرةٍ بطيئة، واللثَّة لا تؤلمني كثيرًا لأنِّي أحرص على تناول الأغذية الطريَّة التي أمضغها بصبر. وما أقبضه من مالٍ آخر كلِّ شهرٍ

سيكفيني لما بقي من عمري لأنَّ حاجاتي قليلة، حتى إيجار الشقَّة لم يعُد أحدٌ يمرُّ عليَّ لاستلامه.

أنا أجد أنِّي أستحقُّ هذه الطمأنينة، هذه السكينة الصغيرة غير المتطلِّبة والتي لا تحتاج شيئًا أو أحدًا. وعليَّ في النهاية ألَّا أجازف بها، ألَّا أغامر بهذا القليل الذي حقَّقتُه بنجاحٍ ورضا، بل بعد عناء. بعد زلازل وهزَّاتٍ انتهت بي على حافَّة شيخوخةٍ أرى بداياتها بقناعةٍ ودعة.

لا حاجة بي لهزِّ أيٍّ من العيدان الرفيعة التي تبني عمارة حياتي.

لن أذهب لقراءة الأوراق المطويَّة التي أعطاني إيَّاها أحمد. لن أذهب إلى أبي.

لا أفهم كيف تتسرَّب إليَّ تلك الرائحة.

تلك الرائحة الخاصَّة التي لا صفات لها، والتي رغم ذلك أعرفها، التي تتعرَّف إليها خياشيمي كخطم كلبٍ مدرَّبٍ وموهوب.

في الفجر، وقبل مغادرتي سريري، تعبر في فضاء الغرفة كنسيمٍ خفيف. قبل أن أستيقظ تمامًا، وقبل أن أرى ما حولي بوضوح. كأنِّي ما زلتُ نائمة، أو أنِّي بعد النوم وقبل اليقظة.

هذه الرائحة التي بلا صفاتٍ لا تشبه أيَّة رائحةٍ أخرى، وهي تتسرَّب إلى فجري كأنَّها تستدلُّ عليَّ من دون عناءٍ أو بحث، وتصل من نفسها. لا أحد يستدعيها أو غرض، كما أنَّها تنسحب وتذهب مع خيوط الشمس الأولى، ثم تعود في الفجر التالي.

هي نفسها تلك الرائحة التي كانت تزورني في هبَّاتٍ قليلةٍ ومتباعدة، حين كنت في عليَّة مطبخ بيتنا القديم. لا أخطئها ولا هي تخطئني. الرائحة التي كانت تدفعني للبحث في كراتين وصناديق وصُرَر العليَّة عن ثيابٍ وحاجياتٍ لأبي، تكون أمِّي دفعتْها بعيدًا عنها حتى لا تراها. حتى لا تراه. لم ترمِها لأنَّها لم تكن ترمي شيئًا. لم أجد في أغراض العليَّة شيئًا له، أثرًا ولو صغيرًا. لكنَّها كانت رائحته هناك، من

دون بواعثها. تأتي كما تأتيني الآن في غرفتي في هذه الشقَّة التي لم يمرَّ أبي فيها، في بالها، لا من قريبٍ ولا من بعيد.

رائحته رغم كلِّ هذا العبث. أعرفها لأنَّها أصبحت، أو هي كانت، تردُّني إلى جسمٍ كبير، دافئ، كالماء الدافئ، سائلٍ وطيِّع، قريبٍ جدًّا ويحيطني بالكامل، يلتفُّ بطراوةٍ بالغةٍ حول جسمي الصغير. رائحة لحمٍ ملتصقةٌ بلحمي، تمتزج به وتصبغه، وتحلُّ عليه وفيه كما تحلُّ الألوان في أقمشةٍ جعلناها في مياهٍ واحدةٍ فتتحلَّل وتتداخل. هذا أمرٌ لا يحتاج التعريف ولا يحتمل الشكّ. وهذا يعني أنِّي، طفلةً صغيرة، أو ربَّما رضيعة، كنتُ أنام في حضنه، معه، في سريره.

لا ينفع السؤال. لا ينفعني أن أسأل نفسي من أين تعود تلك الرائحة اليوم، وقد تركتني لسنين طويلة؟ أو لماذا تعود؟ فأنا لا أحبُّ أسئلة البحث العميقة، وأتوجَّس شرًّا من رائحةٍ قد تعود إليَّ كالقصاص لتفسد أيَّامي، أو القليل الذي تبقَّى منها. حتى ما قبل استيقاظي يتشركل نهاري ويتعثَّر بها من أوَّله، وأخاف من تكرارها الذي يكاد يكون منتظَمًا. بتُّ أعرف الآن أنَّ للذاكرة سلوكًا منحرفًا، وقد تكون شرِّيرةً كالقرينة، لا سببًا بيِّنًا لشرِّها ولا علاج.

وأعرف أيضًا أنَّ الجثث تتحرَّك. ويعود إليَّ كلام أحمد بأنَّه ينبغي علينا أن «نواجه الحقيقة» كي نستطيع أن «نطوي الصفحة».

ورغم أنِّي أكره «المواجهة»، إذ تستدعي في رأسي أن تحمل السلاح وتتأبَّط قوَّة المعاني، ولأنِّي لم أفهم يومًا ما المقصود بالـ «حقيقة»، قلتُ في نفسي إنَّه لا بدَّ لي من التجريب. فقد أصبحتُ أكره زيارة رائحة أبي لي فجر كلِّ يوم، وازداد خوفي ممَّا ستحمله إليَّ من هبَّاتٍ ومفاجآت.

ذهبتُ إلى المطران إيّاه مرَّتَيْن قبل أن يستقبلني. كنتُ اتَّصلتُ وحصلتُ بصعوبةٍ على موعد، لكنَّه كان مشغولًا أو على سَفَر، فعدتُ أدراجي ولم أره. وأيضًا لأنّي لم أعطِ فكرةً عن موضوع طلب المقابلة، ما جعلني في آخر الأولويَّات.

ولكي أختصر الشرح والمقدِّمات، اقترحتُ على المطران إلقاء نظرةٍ سريعةٍ على أوراق الأرشيف المصوَّرة التي حملتُها معي. ألقى بالفعل نظرةً سريعةً كأنَّه يعرف تمامًا ما فيها، ثم طواها وأعادها إليّ.

أصاب المطران تعبٌ مفاجئ، وشيءٌ من الضيق، لكنَّه كان لطيفًا ومتفهِّمًا. قال يا بنتي هذا الملفُّ أُقفِل من زمان. للأسف. ليس هناك من أملٍ في استرجاعه، خاصَّةً في الظروف الحاليَّة. للأسف. هذا الملفُّ أُقفِل نهائيًّا. الظروف الحاليَّة... ابنتي ...

كنت ما أزال واقفةً أنقل ثقل جسمي من ساقٍ إلى أخرى، كأنِّي أنتظر بقيَّة الكلام. فأشفق المطران على منظري ودعاني للجلوس، لكنَّه هو ظلَّ واقفًا. فهمتُ أنَّ الوقت المتاح قليل، فسارعتُ إلى القول إنِّي لا أعرف شيئًا عن «الملفِّ» أو خلفيَّاته لأنِّي كنت خارج البلد طيلة سنين، وإنِّي لا أطالب باسترجاع أبي من أيِّ مكان، ولا حتى جثَّته. وإنَّه ليس عندي أيُّ مطلبٍ بخصوص حقوقٍ أو إرثٍ أو واجباتٍ من قبل الدولة، أو من قبل الجهات العدليَّة أو القضائيَّة. كلُّ ما أريد هو معرفة ما إذا كان الاسم المذكور هو اسم أبي، وإن كان هو، سيادته، رآه أو قابله. أي إن كان يعرف شيئًا عن هذا الرجل، عائلةً أو اسم العائلة الموسَّع، من أفخاذٍ أو فروع، تُسهِّل عليَّ العثور على صلةٍ لي بهذا الشخص. أريد فقط أن أعرف. فقط.

ودَّعني المطران باللطافة نفسها، وبالضيق نفسه من الظروف، مؤكِّدًا أنَّه لا يتذكَّر شيئًا بالمرَّة بخصوص هذا «الملفِّ» القديم، لكنَّه بالتأكيد سيحاول العودة إلى تفاصيله، إن استطاع. قدَّم لي المطران كأس ماءٍ ملأها بيده من قارورةٍ تندى ببرودتها، وأعطاني موعدًا بعد أسبوع.

ذهبتُ إلى الموعد قبل الساعة المحدَّدة بكثير. جلستُ في باحة المطرانيَّة الواسعة أتفرَّج على نظافتها، على الزرع الجميل وعلى الأشجار العالية. جاءت سيِّدةٌ مرتَّبةٌ سلَّمتْ عليّ، ورافقتني إلى المكتب الكبير الذي لم أكن دخلتُه قبلًا.

كتب الرجل، الذي قد يكون أبي، كتب للمطران أكثر من مرَّة، يشرح له وضعه الخاصَّ الذي لا يتطابق تمامًا مع حيثيَّات الملفّ، بحسب وصف سيِّدنا. تروي رسائل الوضع الخاصِّ حكايةً تشبه مسلسلات التلفزيون في تعمُّد التشويق وفبركته، بما فيها من صُدَفٍ وتلفيق، أو ما يشبه التلفيق، وما تنمُّ عنه من سذاجةٍ يصعب تصديقها.

لم أشأ النظر إلى خطِّ أبي، أو قراءة الرسالة أو الرسائل التي كان المطران يُقلِّبها بين يدَيْه ويدفعها باتِّجاهي من وقتٍ لآخر. اكتفيتُ بما قاله باختصارٍ عن محتواها، من أنَّ الرجل هرب من قريته الحدوديَّة إلى إسرائيل لأنَّه قتل، بصدفة القضاء والقدر، شابًّا من قريةٍ مجاورة، في منطقةٍ تقع في خراج البلدتَيْن. ولأنَّه حاول الهرب بفعلته، ولم يلجأ لطلب الغفران أو دفع الديَّة، راحت عائلة الشابِّ القتيل تلاحقه للانتقام والأخذ بالثأر، فهرب. هرب إلى أقرب بابٍ للخروج.

وهناك، في إسرائيل، لجأ إلى مقاتلي الميليشيات التي كانت التحقتْ بالجيش الإسرائيليّ، فانسحبتْ معه حين انسحب هذا الجيش. وبعد سنين اعتقد أنَّ بإمكانه العودة إذا ما أُدخِل اسمه في ذلك «الملفّ»، وإذا ما عُدَّ من ضمن هؤلاء الذين عبَّروا عن ندمهم، وشرحوا

الظروف القاهرة التي جعلتهم، في أيّام الحروب والاقتتال والخوف من ردود الفعل، يلجأون إلى أرض العدوّ، وهم الآن يريدون العودة إلى كنف الوطن، حتى ولو تمّت محاكمتهم أو سجنهم.

هذا هو «الملفّ» إذن. وهذه هي حكاية الرجل الذي اختفى إذن، الرجل الذي يحمل اسم أبي، وقد يكون أبي.

المهمّ في الحكاية، أو في خُلاصتها، أنَّ الرجل انتهى في إسرائيل، ولذا لا يريد أحدٌ أن يأتي على سيرته، أو على ذِكره أو ذِكراه... والأهمّ على الإطلاق أنَّ الحكاية بكاملها لا تؤكّد أيَّة صلة قُربى لي بهذا الرجل، وأنَّ ملاحظة المطران من احتمال وجود «تشابهٍ في الأسماء» ما يزال واردًا بقوَّة...

إن كان للحدس أيَّة أهمِّيَّةٍ في مسألةٍ كهذه، فأنا أستبعد تمامًا أيَّة علاقة بنوَّةٍ لي ببطل هذه الحكاية، إذ كلُّ ما شعرتُ به هو السخرية من هبل ذلك المخلوق البائس وكذبه. وهو مخلوقٌ جبانٌ أيضًا. ولم تساورني مطلقًا أيَّة شفقةٍ عليه، أو رثاء لمصيره.

في طريق عودتي من المطرانيَّة كنت أشعر بالرضى، وبشيءٍ من الانشراح، بالارتياح والتخفُّف من سرٍّ دام طويلًا، وهو ليس سرًّا. ولم آسف لحظةً لضياع حياة رجلٍ في زحمة أقدارٍ لم ترحمه، مهما كانت الحكاية.

كنت أتنفَّس عميقًا، وكنت أفكّر بما سأقوله لأحمد عن نتيجة لقائي بالـ«حقيقة»، من أنّنا الآن في أحلى حالٍ «لطيِّ الصفحة».

ثم قرّرتُ ألَّا أقول شيئًا لأحمد، أقلَّه في المدى المنظور، وأن أبقى في البيت لا أنزل إلى الشارع.

مزَّقتُ أوراق الأرشيف، ودلقتُ فوقها الطبيخ البائت الذي رفضتْ الستُّ زكيَّة أكله. ربطتُ كيس الزبالة وصبَّنتُ يدَيَّ جيِّدًا من حبر الطابعة الأسود. ما تبقَّى من أكل القطَّة في العلبة المعدنيَّة لم يكن يكفيها لوجبةٍ واحدة. ستجوعين زاكو، قلت لها. دهنتُ ركبتي بآخر ما علق في قاع حنجور مرهم النمر، وذهبتُ إلى الكنبة أريد أن أنام.

تمنَّيتُ لنفسي نومًا هانئًا طويلًا، ورفعتُ غطاء أمِّ منصور إلى ما فوق رأسي لأتجنَّب ضوء النهار.

عاودني ذلك الحلم حيث أرى أبي من الخلف، يقود السيَّارة الفارهة إلى مطارٍ تلتمع طائراته بحُبيبات السُّكَّر. هذه المرَّة لم تكن أمِّي إلى جانبي. لم أفتقدها ولم أجد ذلك غريبًا. ولدى اقترابنا من باب دخول المسافرين أوقف أبي السيَّارة، وراح يشير إلى قمرٍ كبيرٍ كان ينزل بسرعةٍ نحو الطائرات. خفتُ أن يدمِّر القمر البدر الهائل الحجم المدرج بكامله فلا أتمكَّن من السفر. رحتُ أفتِّش بسرعةٍ عن حقائبي، طالبةً من أبي أن يفتح الصندوق الخلفيّ، وهو لا يردُّ عليَّ ولا يلتفت ناحيتي. حتى بدأتُ أصرخ: حقائبي حقائبي، أريد حقائبي.

استفقتُ سابحةً في عرقٍ بارد. كنتُ سيِّئة المزاج، والشقَّة غارقةٌ في الظلمة. لم أتمكَّن من مغادرة الكنبة لإشعال النور بسبب آلام ظهري، الذي كأنَّه أصبح لوحًا لا تتحرَّك فيه أيَّة فقرة. كأنَّ سوائل الغضروف نشفتْ عن آخرها خلال ساعات.

لم يكن أمامي سوى الصبر، أن أنتظر حتى تخفَّ تلك الأوجاع قليلًا، لأُنزِل ساقَيَّ وأحرِّكهما لمساعدة الدم على الجريان.

طال وقت انتظاري وخفتُ أن أبقى هكذا، شبه مشلولةٍ على كنبتي. صرتُ أقول إنَّ النهار كان متعبًا، وإنِّي مشيتُ كثيرًا، أكثر ممَّا ينبغي. ثم نزل عليَّ ذلك الكابوس فأرهقني في نومي. وهذه القشعريرة المستمرَّة لا تنبئ بفألٍ حسن. ربَّما أكون مريضة...

أصبحتِ الظلمة كثيفة، ولم أعُد أرى شيئًا بالمرَّة. لا يصل إلى النافذة قبالتي أيُّ شعاع نورٍ من الخارج. هذا يعني أنَّ الكهرباء مقطوعةٌ عن الشارع، وأنَّ الساعة تعدَّت منتصف الليل فأطفأوا الموتورات، وأن لا قمر يضيء السماء، أو أنَّها مخنوقةٌ بالغيوم السميكة.

خفتُ أن أبقى هكذا، مشلولةً على كنبتي. خفتُ أيضًا إذ تذكَّرتُ أنِّي، حين عدتُ من المطرانيَّة ودسستُ المفتاح في قفل الباب، وجدتُ صعوبةً في معالجة السكَّرة. بدا لي أنَّ هناك من أدخل طرف سكِّينٍ أو سلكًا معدنيًّا في فتحة القفل، محاولًا كسره أو خلعه.

عليَّ أن أتفحَّص بابي من جديد، وربَّما عليَّ شراء قفلٍ جديدٍ أكبر من ذلك الذي حاول الحرامي خلعه.

لكنِّي بقيتُ ممدَّدةً على الكنبة حتى الفجر. وفي الأيَّام التي تلت لم تتحسَّن أموري كثيرًا.

سمعتُ طرقًا على الباب. قلتُ إنَّه خطأ، فأنا لا يطرق بابي أحد. وحين تكرَّر الخبط بشيءٍ من الإصرار، اعتقدتُ أنَّه قريب مالك الشقَّة. أتى بعدما تراكمت الإيجارات الشهريَّة فاستحقَّ المبلغ عناء الطريق، أو أنَّه أتى مصمِّمًا هذه المرَّة على طردي وإلقائي في الشارع. طنَّشتُ ولم أفتح.

ثم سمعتُ صوت أحمد بلكنته التي أعرفها جيِّدًا. نظرتُ من العين الزجاجيَّة وفتحتُ الباب. قال أحمد معتذرًا بشدَّةٍ إنَّه أراد الاطمئنان عليّ، وقد فات وقتٌ لم يرَني. لكنَّه أتى أيضًا لأنَّه يحمل خبرًا سارًّا يريد أن يزفَّه إليّ.

أنا لا أحبُّ الأخبار يا أحمد، لا السارة ولا العاطلة. سأعدُّ لكَ كوبًا من الشاي، قلتُ على أمل أن يعود أحمد من حيث أتى، وتوجَّهتُ إلى المطبخ. لكنَّ أحمد لحق بي.

عندنا موعدٌ مهمٌّ في المحلِّ بعد نصف ساعةٍ من الآن. موعدٌ مهمّ؟ في المحلّ؟ مفاجأة واللَّـهِ! بدا إصرار أحمد، كما زيارته لي في بيتي، غريبًا. وحين لم يردَّ على أسئلتي إلَّا بـ واللَّـه واللَّـه، ألقيتُ معطفًا على كتفَيَّ ولحقتُ به، رغم تبرُّمي وانزعاجي الصريح.

كان الوقت عصرًا والمحلُّ مليئًا بالأولاد، ما زاد في ضيقي من أحمد ومفاجآته. لكنَّه استمرَّ متحمِّسًا يردِّد: سوف ترين، سوف ترين.

انتحينا جانبًا وجلسنا إلى طاولة الجهاز الذي اعتدنا استعماله. كان أحمد ينظر باستمرارٍ إلى ساعة هاتفه، ثم قال: حان الوقت.

ظهر على الشاشة شابٌّ في عشرينيَّاته، أقرع أو أنَّه حليق الرأس، يبتسم ملء فمه بأسنانٍ كثيرةٍ شديدة البياض. قال أحمد تكلَّمي، تكلَّمي معه. سوف تعرفين من هو.

كان الشابُّ يتفحَّص صورتي ويبتسم، ثم قال: أهلًا هنادي. كيف أنتِ؟ سعيدٌ بلقائك. يبدو أنَّنا أهلٌ وأقرباء. يبدو أنِّي أخوكِ.

كان الشابُّ يكلِّمني بالعربيَّة، بلهجةٍ فلسطينيَّةٍ أو هكذا بدا لي. قال إنَّه يكلِّمني من أميركا، وإلى جانبه زوجته، وهي عربيَّة، وتريد إلقاء التحيَّة. وأنا كنت أنتقل بنظري بين أحمد والشاشة المضيئة، وفيها رأسا الشابِّ العشرينيِّ وزوجته متلاصقتان. صار أحمد يقول تكلَّمي، تكلَّمي معه. وجدتُه على فيسبوك. أخوكِ. أخوكِ من أبيكِ. تكلَّمي معه.

أنزلتُ يدي عن فمي. كنتُ أخفي الفجوة التي أحدثها فقداني لأسناني الأماميَّة. قلتُ متلعثمة: أين هو؟

روى الشابّ، المبتسم دائمًا، حكايةً تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ ما كنت عرفتُه من لقائي بالمطران. قال إنَّه يأسف لما عاناه أبوه الذي كان بريئًا فعلًا، لكنَّه تصرَّف بغباء. ندم ندمًا شديدًا على محاولته الخلاص عن طريق وضع اسمه على لائحة من أبدوا الاستعداد لمواجهة الأحكام بالسجن نظير العودة من إسرائيل إلى بلادهم. اعتقدَ أنَّ قصَّة هربه من الأخذ بالثأر لن يهتمَّ بها أحد، بل لن يصدِّقها أحد. اعتقد أنَّ وجود

اسمه على تلك اللائحة سيأخذ بُعدًا وطنيًّا، وستهتمُّ به الدولة. مسكين. سنين وهو يحاول، حتى استسلم لليأس. استسلم تمامًا. فيما نجح غيره في العودة وظبَّط أوضاعه على أحسن حال. المهمّ، طلَّقته أمِّي وراحت في سبيلها. أمِّي لبنانيَّةٌ أيضًا، لكنَّها لا تشبهه في شيءٍ وأفكارها مختلفة. فهي كانت تحبُّ الضابط لحد ولا تريد العودة إلى بلادها. كانت تقول إنَّه ضابطٌ وطنيٌّ وليس ميليشياويًّا خائنًا متعاملًا مع جيشٍ عدوّ، وإنَّه لم يهرب إلَّا ليحمي جماعته من الأوباش، وهو سيعود قريبًا منتصرًا حين يوقِّعون معاهدة السلام، وسيُغيِّر النظام... حتى بعد أن عامله الإسرائيليُّون بنذالةٍ كانت أمِّي تقول إنَّ ذلك ليس مهمًّا، وإنَّ اللبنانيَّ يتأقلم حتى في جهنَّم... ثم حين يئست من أبي صارت تقول إسرائيل بلادي الآن، وفي لبنان سيشنقونني أو يقتلونني انتقامًا. زهقتْ أمِّي من أبي، وهو ظلَّ يكتب الرسائل إلى مطرانٍ عندكم، وينقُّ بأنَّه لا شأن له ويريد العودة إلى بلاده. المهمّ، تركتْه أمِّي وأخذتني معها.

أنا الآن أعيش في أميركا. صرتُ إسرائيليًّا أميركيًّا لأنِّي خدمتُ هناك في الجيش، وحصلتُ على منحةٍ تعليميَّةٍ في أميركا، وبقيتُ هنا. تعرفين هنادي، أنا زرتُ بيروت. كنت قد رأيتُها على التلفزيون مرارًا. ليست جميلةً بصراحةٍ كما تدَّعون، أو كما كان يروي أبي في هذياناته. يعني، البحر جميل، لكنَّها مُكلفةٌ جدًّا، أكثر من تل أبيب التي تشبهها على فكرة. لم أكن أعرف أين أجدكِ في بيروت. كنت أعرف أنَّ لي أختًا هناك لأنَّ المسكين كان أتى على ذِكركِ مرارًا، وقال إنَّ له ابنةً تشبه الملاك في جمالها. أعتذر منك هنادي، أفهمني الصديق أحمد أنَّك تعرَّضتِ لمرضٍ نادر. كان المسكين يبكي كلَّما أتى على ذكرك، وهو على كلِّ حالٍ كان يبكي كثيرًا. لو كنتُ أعرف مكانك في بيروت، أو في أيِّ

مكانٍ آخر، لقمتُ بزيارتكِ بكلِّ سرور. أنا أسافر بجواز سفري الأميركيّ، وليس عندي مشكلة. الحياة صعبةٌ جدًّا عندكم بصراحة. حياتي لطيفةٌ هنا، وأنا عريسٌ جديد. هنادي، هل تودِّين زيارة أميركا والتعرُّف إلينا؟ نحن نحبُّ أن نتعرَّف إليك. أستطيع أن أساعدكِ في الحصول على فيزا، إن كان وضعكِ الصحِّيُّ يسمح بذلك. ولا مشكلة بالنسبة لبطاقة السفر.

رفعتُ يدي عن فمي وقلت: أين هو؟

قال: آه... والدي. والدكِ. حكايته حزينةٌ عزيزتي. لقد مات. انتحر. وجدوه مشنوقًا أمام باب بيته. بالأحرى أمام باب الخربة التي كان يعيش فيها. لم أكن هناك، للأسف. أرسل لي أحد زملائي صورًا من داخل بيته. خرابة، تتراكم فيها القمامة على أنواعها، والأوساخ والأغراض غير الصالحة للاستعمال. لا أدري كيف كان المسكين يعيش هكذا. مسكين. أنا آسفٌ هنادي، لكنَّ هذا كلَّه أصبح من الماضي الآن، أليس كذلك؟ وأنتِ، ما هي أخبارك؟ كلِّميني عنكِ قليلًا. أنا لا أنوي زيارة بيروت مجدَّدًا، صراحة، ولا العودة إلى إسرائيل. هي بلدي، لكن هناك أيضًا الوضع صعبٌ ومعقَّد، وتندلع الحروب فجأةً لا أحد يعرف لماذا. أنا وزوجتي نريد أن نعيش بسلام. صراحة. نحن وأولادنا. صراحة...

أين هو؟ سألته مجدَّدًا.

آه. صراحةً لا أدري. لم أكن هناك، ووصلني خبر موته متأخِّرًا. تعنين قبره، أو مكان دفنه. آسف، لكنِّي أستطيع أن أحقِّق في الأمر. أنا أُفضِّل أن ندعه يرتاح بسلامٍ في...

سألتُه إن كان شنق نفسه على شجرة تين. تحيَّر قليلًا، ثم ضحك. مثل يهوذا تعنين. تعنين أنَّه خائنٌ مات موت الخائنين. لا هنادي، هذا

غير صحيح. الأرجح أنَّه رجلٌ سيِّئ الحظّ، وجبانٌ أيضًا. وهو ندم كثيرًا. ليس خائنًا، لا أعتقد ذلك بصراحة، لأنَّه لو كان كذلك لرتَّب أموره بشكلٍ أفضل. وصراحةً هنادي هذه أفكارٌ غير إيجابيَّة. أفكارٌ سيِّئةٌ أتمنَّى أن تتجنَّبيها. غير مفيدة. هل تودِّين زيارة أميركا هنادي؟ نحن نرحِّب بكِ هنا، لأنَّنا أخويْن بالنهاية ولو من أُمَّيْن. أشكر الصديق أحمد الذي كان وراء هذا اللقاء الجميل، وأتمنَّى أن نلتقي ثانية. ويهمُّني أن أقول إنِّي جاهزٌ للمساعدة مادِّيًا إن كنتِ...

قرَّب أحمد رأسه من كاميرا الشاشة وقال إنَّ أحوالي على ما يرام، وإنَّنا سنعاود الاتِّصال به لأنِّي الآن ما زلتُ ضائعةً قليلًا من قوَّة المفاجأة.

قدَّم لي أحمد شايًا ساخنًا.

جلس بقربي يحدِّق فيَّ بعيْنَيْن حزينتَيْن كمن يريد أن يعتذر، لكنَّه لم يقل شيئًا.

ثم رافقني حتى باب المصعد وتأكَّد من أنَّه شغَّال، ثم قال كوني بخير.

دخلتُ الشقَّة وتوجَّهتُ فورًا إلى البلكون واقتلعتُ النبتة. النبتة التي ستصبح شجرة تين، أو التي اعتقدتُ أنَّها ستصبح كذلك.

كان أحمد هناك، في غرفةٍ تشبه المكتب. غرفةٌ صغيرةٌ معتمةٌ فيها طاولةٌ وكرسيَّان.

قالوا سنرى الآن أين تكمن الحقيقة خلال هذه المواجهة. يللا اتَّكلنا.

كانوا حملوني بالقوَّة من البيت بعد أن خلعوا الباب. رفعني اثنان منهم من تحت إبطَيَّ عن الأرض، واندفعوا جميعهم بسرعةٍ على الدرج. كنت أئنُّ من الألم، وأعتقد أنَّ جسمي تكسَّر.

كانت الناس مُتجمِّعةٌ أمام مدخل البناية تتفرَّج. سمعتُ صاحب الكاراج يصرخ أفسحوا لمخابرات الجيش. أفسحوا. ابتعدوا. يللا.

ألقوا بي داخل سيَّارة جيب.

تخابُرٌ مع العدوّ. سمعوكِ. أكثر من شاهدٍ واحد. أسمعينا صوتكِ الجميل.

كنت أعي تمامًا بأنَّ عليَّ أن أجيب على أسئلة الضابط، أو العسكريّ.

فكَّاي كانا مقفلَيْن ككمَّاشةٍ صدئةٍ تحوَّلتْ إلى قطعة فولاذ. إنَّها خائفةٌ سيْدنا، قال أحمد، فنهروه بقوَّة. كان عليَّ أن أردَّ حتى لا يعتقدوا أنِّي أرفض الردّ، وأنِّي أُخفِي عنهم تخابري مع العدوّ.

كانوا يتركونني لوحدي وقتًا طويلًا، ثم يعودون مع أحمد. أفتح فمي قليلًا، لكن خَرَسِي يعود فلا تخرج كلمةٌ واحدةٌ مفيدة. فقط أصواتٌ مفكَّكةٌ كأنَّها تصدر من مكانٍ لا أعرفه. أسمعها فقط، كأنَّها ليست منِّي.

يقول أحمد حين يأتي دوره بالردِّ على الأسئلة إنِّي لست خرساء، لكنِّي مريضة. ورأسي يتأثَّر بمرض جسمي، وإنَّه رأى ذلك فيَّ من قبل. وكرَّر أحمد أنَّ الشباب في المحلِّ لم يسمعوا من اتِّصالي بأخي في أميركا سوى شذرات، وربَّما كلمة إسرائيل. ثم عاد إلى تكرار كلامه بجُمَلٍ مختلفة. وكان أحمد يلتفت إليَّ من وقتٍ لآخر ليقول تكلَّمي. تكلَّمي يا أختي اللّـه يعينك. لستِ خرساء. طوِّلوا بالكم عليها سوف تتكلَّم. مريضةٌ سيادتكم، على حافَّة قبرها. هل هذا منظر جاسوسةٍ سيادتكم؟ تكلَّمي يا أختي.

كان باديًا أنَّهم ضربوا أحمد، الذي كان يعود إلى الشرح من جديد.

ثم حملوني وألقوا بي في باحة ذلك المبنى. كانوا يضحكون ويقولون لي اذهبي إلى أخيكِ. أنتِ كنزٌ لا يستحقُّكِ البلد. كنز. نحن نراقبكِ يا كنز الكنوز. هناك في الخارج وجدتُ أحمد برفقة بائع النظَّارات الباكستانيِّ قريبه، الذي كان يلبس طقمًا مرتَّبًا وربطة عنقٍ ويضع نظَّاراتٍ شمسيَّة.

ساعداني في الوصول إلى سيَّارةٍ كانت مركونةً في الشارع المحاذي، وتركاني أمام باب المصعد. بقيا صامتَيْن، وأنا أيضًا.

وجدتُ باب الشقَّة مخلوعًا. رددتُ الدرفة الكبيرة وزنقتها بأختها. لم أجد القفل.

لم تكن الشقَّة في حالة فوضى، وللوهلة الأولى لم ينقص شيءٌ من محتوياتها. لكنِّي لم أجد الدولارات التي كنت دسستُها في مرطبان السُّكَّر.

ولم أجد القطَّة زكيَّة.

كنت أريد أأن أعرف إذا ما كنتُ أُصِبتُ بالخَرَس فعلًا، أو نهائيًا.

حتى لوحدي لا تخرج الكلمات. أفتح فمي، حرفان ساكنان ناشفان متلاصقان بلا وهدة، بلا رطوبة حرف العلَّة، وتَعلَقُ الكلمة. لا رباط بين اللسان والحلق. فقط الشفتان وقليلٌ من الهواء. ثم أحاول من جديد.

لا تؤثِّر الأكروميغاليا على النطق. وفي التحقيق لم يضربوني، ولا أنا خفتُ منهم لدرجة البكم. كنتُ أتمنَّى لو أنَّهم لم يكرِّروا الأسئلة نفسها، بالكلمات نفسها، وبطبقات الصوت نفسها. لو فعلوا ربَّما...

أستطيع أن أُخرِج موسيقى الأغاني، لا الكلمات. وغالبًا لا ترجع إلى رأسي الأغاني التي كنت أحبُّها، بل تلك القبيحة المشهورة التي كنت أستغرب كيف يحبُّها الناس. تعود آليًّا ورغمًا عنِّي، كحجر الطاحون.

لا فائدة من التفكير في الأحاجي. يعود النطق أو لا يعود، ليس ذلك بالمصاب الجلل، فأنا الآن لا أحتاج للكلام مع أحد. لم أذهب إلى النجَّار لتصليح بابي، ولا أريد شراء قفلٍ جديد. فالقفل هو ما يغوي الحرامي ويجلب رغبات السرقة، وهو سبب الخلع، إذ يفترض القفل وجود أغراضٍ ثمينةٍ يضنُّ بها مالكُها.

لن أضع قفلًا لأنِّي ما زلتُ أنتظر عودة زكيَّة إلى البيت.

ولن أعود إلى محلِّ الكومبيوتر لأنِّي أعتقد أنَّ أحمد يكرهني الآن. أنا أيضًا أكرهه قليلًا، ولو أنَّ ما قام به صَدَرَ عن نيَّةٍ طيِّبة. ثم إنِّي هناك، في المحلّ، سوف أكون مضطرَّةً للكلام. لولا ذلك لاستمتعتُ بالتفرُّج مجدَّدًا على سُحُب الغاز والغبار الكونيِّ وهي تبتلع المجرَّات، وكيف تولد السوبر نوفا مثلًا، أو كيف تموت.

مشاهدةُ صور «هابل» هي أجمل ما رأيتُ وما رأى البشر على الإطلاق. تلاميذ المدارس دفعوا من مصاريف الجيب حين ظلَّ هابل معطَّلًا لسنين، إذ رفضت الناسا تصليحه. ظلَّ عليلًا يتهادى كالأعمى في الظلمات لسنواتٍ عديدة، بسبب برغيٍّ واحدٍ لم يخرج من قاعدة الكاميرا القديمة المعطَّلة. وحين نجح رائد الفضاء الميكانيكيِّ في استبداله، غمرت الكون موجةٌ من الفرح الأسطوريّ.

الآن ما زال التلسكوب العملاق، حكيم الدهر، يرسل صوره. ولم يتبقَّ من رصده لحدود الكون سوى سبعين في المئة، على أبعد تقدير.

كلُّ ما يقوله هابل يتلخَّص في أنَّ كوننا قديم، وهو يسير إلى نهايته المحقَّقة حين سيصل تضخُّمه السريع إلى الانطفاء والتلاشي النهائيّ. بعد ذلك؟ لا نعرف. الأرجح أن يبدأ كونٌ جديد، من دوننا، ولا نعرف عنه شيئًا بالمرَّة.

لعلَّ الصور الفائقة الجمال التي يرسلها هابل تلهينا عن حقيقة نهاية الكون، فنفرح بدل أن نحزن ونبكي. ونحن، إذ لا نحفل بالفاجعة، بالتراجيديا المقبلة لا محالة، نبدو وكأنَّنا ضجرنا من هذا العالم الذي نعرفه، ضجرنا ويئسنا إلى أبعد حدود الضجر واليأس، إلى أبعد حدود التمنِّي له بالموت.

على حافَّة هذا النهر الذي ليس نهرًا في شيء، كنت أتمنَّى أن تكون زكيَّة إلى جانبي. فهي أحبَّتني إلى آخر حدود الحبّ، ونذرت حياتها وكرَّستها لي. لا عشيق ولا زوج، لا أهل ولا عائلة أو أولاد. أنا فقط. تحبُّني أنا فقط. مثل ما جاء في قصَّة القدِّيسة ريتا. الشوكة الربَّانيَّة والحبُّ المطلق. أنا شوكة زكيَّة.

كان تكدُّس ففقراتي يُفقدني باستمرارٍ سنتمتراتٍ من طولي فأقترب من الأرض. أنزل إلى تحت وأتخلَّى عن العلوّ، عن الارتفاع بلا فائدة. كنت راضية، بل سعيدةً بالهبوط أكثر فأكثر إلى مستوى نظر زكيَّة.

وأنا في الحقيقة صرتُ أتمنَّى أن أبقى هنا، على هذه الحافَّة التي لا تعجب أحدًا ولا يتردَّد إليها أحد، والأهمُّ أنَّها ليست لأحد. أن أبقى هنا وأتحلَّل بطيئًا، فميكروبات الميت تعيش طويلًا من بعده، زمنًا كافيًا لإعادة التدوير مع تراب الأرض، مضيفةً إليه مادَّةً جديدةً مختلفة، كما يحصل عند نموِّ جذور نبتتَيْن معًا، أو عندما يتبادل حبيبان القبل. وهكذا بالضبط تزدهر الحياة النباتيَّة بالقرب من جيفة حيوانٍ متحلِّلة.

تركتُ هذه البلاد من دون أن أصل إلى البلاد الأخرى، وها أنا أعود إليها فلا أجدها. الحقيقة أنِّي لم أغادر أحدًا، ولم أجد أحدًا يستقبلني حين رجعت. بقائي هنا على هذه الحافَّة بالذات يبدو لي فكرةً ملائمة.

هذه السنة كانت ثلوج المرتفعات أكثر كرمًا من سابقاتها. فهناك جدولٌ رقيق، فَتْلةٌ من الماء تتلوَّى في المجرى العريض وقد تصل إلى البحر.

لكنَّ الصفصافة لم تَعُد هنا.

** ** **

مكتبة
t.me/soramnqraa

Mes remerciements au Centre National du Livre (CNL) pour sa bourse d'aide à l'écriture.

Hoda Barakat

تُصاب هنادي ذات الجمال الاستثنائيِّ بمرض تضخُّم الأطراف والعظام (الأكروميغاليا)، وتتحوَّل إلى مسخ. تتنكَّر الأمّ لابنتها المريضة وتنكرها، فتُخفيها في علِّيَّة المطبخ. لكنَّ هنادي تنجح في الهرب.

في مغامرات تجوالها العشوائيّ، تعيش المرأة القبيحة في إحدى ضواحي باريس، قبل أن تقرِّر العودة إلى بلدها الذي يعاني بدوره من التضخُّم بفعل مشاكله المتزايدة.

أسئلةٌ كثيرةٌ محيِّرةٌ ومبهمةٌ لحيوات ناسٍ عاديِّين، تُحرِّك أقدارهم الصدف الكبيرة والصغيرة.

هدى بركات روائيَّةٌ لبنانيَّةٌ تعيش في فرنسا. حصلت رواياتها المترجمة إلى لغاتٍ عديدةٍ على جوائز عربيَّةٍ وعالميَّة، وحازت تقديرًا واعترافًا عاليَيْن.

من الروايات الصادرة للكاتبة عن دار الآداب:

بريد الليل، حارث المياه، سيِّدي وحبيبي، أهل الهوى، حجر الضحك، ملكوت هذه الأرض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب

لوحة الغلاف: رضا عبدالله